الفصل الثالث

السخرية من الأخلاق الإسلامية والدعوة إلى الانحلال والفوضى الخلقية

إن للأخلاق في الإسلام منزلة عظيمة ودرجة كبيرة، ومكانة سابقة إلى درجة أن النبي ﷺ جعل صاحب الخلق الحسن أكمل الناس إيماناً، حيث قال ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً**»(١)، وقال ﷺ: «**إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وإن حسن الخلق ليبلغ درجة الصوم والصلاة**»(٢).

وذلك أن التقيد بالأخلاق الحسنة ابتغاء مرضاة الله تعالى يقتضي المصابرة والمجاهدة، وذلك بتحمل مشقة مخالفة الهوى، ومشقة معالجة أمور الحياة الاجتماعية المتقبلة، على أن حسن الخلق لايغني عن فروض العبادات كما أن الفروض نفسها لايغني بعضها عن بعض، فأداء فرض

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الرضاع، باب: ماجاء في حق المرأة على زوجها ٣/٤٦٦، وأبو داود في كتاب السنة، باب: الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ٥/٦٠، والدرامي في كتاب الرقاق، باب: في حسن الخلق ١/٧١٩.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢/٢٥٠ مختصراً، والحاكم مختصراً وصححه الذهبي ١/٣، وذكره في مجمع الزوائد بهذا اللفظ، وقال: رواه الطبراني في الأوسط وفيه علي بن سعيد بن بشير. قال الدارقطني: ليس بذاك وبقية رجاله رجال الصحيح ٨/٢٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/٣٢٧ برقم ١٥٧٨.

الصلاة لايغني عن أداء فرض الصيام، وأداء الصلاة والصيام لايغني عن أداء فريضة الحج لمن استطاع وهكذا.

وقد جعل الإسلام حسن الخلق جماعاً للفضائل كلها، كما جاء في الحديث عنه ﷺ: «**البر حسن الخلق**»[1] الحديث.

والبر هو جماع أفعال الخير، ونعته النبي ﷺ بأنه حسن الخلق.

وأخبر النبي ﷺ بأن الخلق الحسن من الأمور التي تجلب الحسنات الكثيرة فقال: «**ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، فإن الله يبغض الفاحش البذيء**»[2].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب الخلق الحسن ليبلغ درجة صاحب الصوم والصلاة**»[3].

بل أخبر عن نفسه ﷺ بقوله: «**إنّما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**»[4].

وهذا القول وحده كافٍ في الدلالة على المنزلة الكبيرة للأخلاق في دين الله القويم، ويُمكن أن تتبين منزلة الأخلاق ودرجتها في الإسلام وبعض أحكامها وأقسامها من خلال ما يلي:

أولاً: ما المراد بالأخلاق؟ وما صلتها بالسلوك والآداب؟:

الأخلاق جمع خلق وهو (صفة مستقرة في النفس ـ فطرية أو

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: تفسير البر والإثم ٣/ ١٩٨٠، والترمذي في كتاب الزهد، باب: ماجاء في البر والإثم ٤/ ٥٩٧، والدارمي في كتاب الرقاق، باب: في البر والإثم ١/ ٧١٨.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب: ماجاء في حسن الخلق ٤/ ٣٦٢، وأبو داود كتاب الأدب، باب: ماجاء في حسن الخلق ٥/ ١٥٠.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب: ماجاء في حسن الخلق ٤/ ٣٦٣، وأبو داود كتاب الأدب، باب: في حسن الخلق ٥/ ١٥٠.

(٤) أخرجه أحمد في المسند بهذا اللفظ ٢/ ٣٨١، ومالك في الموطأ في كتاب حسن الخلق، باب: ماجاء في حسن الخلق ٢/ ٩٠٤ بلفظ: «بعثت لأتمم حسن الأخلاق».

مكتسبة ـ ذات تأثير في السلوك محمودة أو مذمومة)[1].

فأمَّا استقرار الخلق في النفس، فهو أصل، فإن كان الخلق حميداً كانت آثاره حميدة، وإن كان ذميماً كانت آثاره ذميمة.

وهذه الصفة المستقرة في النفس قد تكون فطرية جُبل الإنسان عليها، وتكون مكتسبة استفادها من التعلم أو التخلق أو من الاعتقاد أو من المجتمع المحيط به، وهذه الصفة المستقرة في النفس يُمكن معرفتها وقياسها عن طريق قياس آثارها في سلوك الإنسان.

وليست كل الصفات المستقرة من قبيل الأخلاق، بل منها غرائز ودوافع لا صلة لها بالخلق، والذي يميزها عن جنس هذه الصفات، كون آثارها في السلوك قابلة للحمد أو للذم، ومع ذلك فهناك بعض التشابك بين الأخلاق والغرائز، فالأكل عند الجوع بدافع الغريزة ليس فيه مايحمد أو يذم من جهة السلوك الأخلاقي، لكن الشره الزائد عن حاجات الغريزة العضوية أمر مذموم؛ لأنه أثر لخلق مذموم، هو الطمع المفرط[2].

أمَّا السلوك الإرادي للإنسان فمنه ماهو أثر من آثار خلق في النفس محمود أو مذموم، كالعطاء عن جود، والإمساك عن شح، والاعتراف عن حب للحق، والإنكار عن كبر، والتحمل عن صبر، ومن السلوك ما هو استجابة لغريزة من غرائز الجسد كالأكل المباح عن جوع، والشرب المباح عن ظمأ، ومنه ما هو استجابة لغريزة من غرائز النفس الفطرية كالسعي في اكتساب الرزق تلبية لداعي الفطرة، والاستمتاع المباح تلبية لطلب النفس، والترويح عن النفس بشيء من مباحات اللهو واللعب ومن السلوك ما هو استجابة إرادية لترجيح فكري، كأن يرى بفكره أن هناك مصلحة ومنفعة في سلوك ما، فتتوجه إرادته لممارسته، وعلى هذا معظم أعمال الناس اليومية في وجوه الكسب، ومن السلوك ماهو من قبيل الآداب الشخصية أو

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها لعبدالرحمن الميداني ١/ ١٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ١/ ١٠ ـ ١١.

الاجتماعية، كآداب الأكل والشرب واللباس والتأنق ونظافة الجسد، وإبداء كل حسن في ذلك احتراماً لأذواق الناس وتكريماً لهم، ومراعاة لمشاعرهم، وربّما يكون التزام بعض هذه الآداب أثراً من آثار خلق في النفس محمود.

ومن السلوك ما هو طاعة للتكاليف والأوامر الشرعية أو غير الشرعية، وقد تكون هذه الأوامر والتكاليف ملزمة بسلوك أخلاقي، أو ملزمة بأعمال هي من قبيل العبادات المحضة في حالة صدور الأوامر من قبل الشرع، أو ملزمة بأعمال هي من قبيل الآداب، أو ملزمة بأعمال تحقق المصالح والمنافع للناس، ومن السلوك ما هو من قبيل العادات، وقد ترجع إلى موجه أخلاقي أو موجه غريزي، أو موجه تكليفي أو موجه اجتماعي، وقد لاتكون إلاّ مجرد ممارسات عابثة استحكمت بالعادة، ومن السلوك ما هو من قبيل التقاليد الاجتماعية التي تسري في سلوك الأفراد بعامل التقليد المحض أو بقوة التأثير الاجتماعي، وقد تكون هذه التقاليد حسنة وقد تكون سيئة، وبهذا يتضح أن السلوك الإرادي الإنساني له أنواع شتى، فليس كل سلوك مظهراً من مظاهر الأخلاق في النفس الإنسانية[1].

ثانياً: السلوك الظاهر يدل على الخلق المستقر في النفس:

سبقت الإشارة إلى أن الخلق في حقيقته تكوين خاص ثابت في النفس فطري أو مكتسب له ظواهر في السلوك، وهذا يدل على أن السلوك الأخلاقي يدل على الخلق الأصيل الثابت في قرارة النفس، وإن كانت هذه الدلالة ظنية وليست قطعية؛ لأنه قد يكون السلوك الظاهر صادراً عن تكلف وتصنع أو خوف أو طمع، أو محبة مدح أو خوف قدح، وقد يكون صاحبه مخلصاً يريد تطويع نفسه وترويضها وقسرها حتى تكتسب الكريم ولولم يكن ذلك من أصل طبعها.

فقد يجود الشحيح لغاية في نفسه، فنسمي هذا السلوك عطاءً كريماً، ولكن صاحب هذا العطاء غير متصف بخلق الجود، وإنّما ظهر ذلك منه

---

(١) هذا كله مقتبس من كتاب الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/ ١١ ـ ١٣.

تكلفاً أو لطلب المدح أو لدفع القدح، أو يتطبع بذلك ليتحول بالتدريب والعادة إلى اكتساب خلق الجود، ومع ذلك فليس حاله، وإن تطبع كحال المفطور على خلق الجود[1].

ثالثاً: ضبط السلوك وتوجيهه نحو الأحسن والأجمل واعتناق مكارم الأخلاق والتزام فضائل الآداب واجتناب الأخلاق الذميمة، كل ذلك من مقتضيات العقل السليم والدين القويم والفطرة المستقيمة.

كما أن رذائل الأخلاق وانفراط السلوك وتوجيهه نحو الأقبح والأخبث من الأمور التي تخالف العقل السليم والدين القويم والفطرة السليمة.

فأمَّا دلالة الدين على القضية فواضحة غاية الوضوح.

وأمَّا دلالة العقل والفطرة فإنه مما يُمكن التمييز به بين الأخلاق الحميدة عن غيرها: التقاء النفوس البشرية على استحسان الأخلاق الحميدة كالأخذ بالحق أو الخير أو الجمال وإن خالف الهوى، وترك الباطل والشر والقبح وإن وافق الهوى والشهوة.

وعلى استقباح الأخلاق الذميمة كالأخذ بالباطل أو الشر أو القبح، وترك الحق أو الخير أو الجمال اتباعاً للهوى أو الشهوة، وعلى هذا فيمكن أن يقال على سبيل التفريع بأن الخلق المحمود: صفة ثابتة في النفس فطرية أو مكتسبة تدفع إلى سلوك إرادي محمود عند العقلاء، وعكس هذا في الخلق المذموم[2].

إذن فكل سلوك أو خلق فردي واجتماعي التقت النفوس البشرية مهما اختلفت أديانها ومذاهبها وعاداتها وتقاليدها ومفاهيمها، على اعتباره وتلقيه بالقبول، فهو سلوك وخلق محمود والعكس بالعكس؛ وذلك أن النفوس فطرت على محبة الخلق الجميل وبغض الخلق الذميم، والعقول تدرك حسن الخلق الحسن وقبح الخلق الذميم، ولكنها لاتستقل بالأمر والنهي، أو الوعد

---

(١) انظر: المصدر السابق ١/١٧.

(٢) انظر: المصدر السابق ١/١٦.

بالثواب أو الإيعاد بالعقاب، فإن ذلك من حق الشرع الذي جاء بما يوافق العقول والفطر لا بما يخالفها.

فمن تفلسف وادعى قبح الأخلاق المحمودة، أو حسن الأخلاق المذمومة؛ فإنه محجوج بالعقل والفطرة والشرع.

ومثله في ذلك مثل من يستقبح الماء الزلال ويستحسن البول النجس، أو يستقبح الفاكهة الطيبة الناضجة، ويستحسن العذرة، فإن الفطرة والعقل والشرع على عكس استحسانه واستقباحه.

فالعقل يدرك الحسن والقبح فيما هو ملائم للطبع أو مضاد له، فإذا لاءم الغرض الطبع فحسن، كاللذة والحلاوة، وإذا نافره فهو قبيح كالألم والمرارة، وهذا القدر معلوم بالحس والعقل والشرع، مجمع عليه بين الأولين والآخرين بل هو معلوم عند البهائم[1].

أمَّا الحسن والقبح المتعلق بالشرع بمعنى كون الفعل سبباً للذم والعقاب أو المدح والثواب، وهل يعلم ذلك بالعقل أم لايعلم إلاّ بالشرع أم يعلم بهما معاً؟.

فهذا محل افتراق وتنازع، والقول الحق في ذلك هو قول أهل السنة والجماعة، وحاصله أن الحسن والقبح يدركان بالعقل، ولكن ذلك لايستلزم حكماً في فعل العبد، بل يكون الفعل صالحاً لاستحقاق الأمر والنهي والثواب والعقاب من الحكيم الذي لايأمر بنقيض ما أدرك العقل حسنه أو ينهي عن نقيض ما أدرك العقل قبحه؛ لأن ما أدرك العقل حسنه أو قبحه راجح ونقيضه مرجوح، بمعنى أن صفة الحسن في الفعل ترجح جانب الأمر به على جانب الأمر بنقيضه القبيح، وصفة القبح في الفعل ترجح جانب النهي عنه على جانب النهي عن نقيضه الحسن، عملاً في ذلك بمقتضى الحكمة التي هي صفة من صفات الله ـ سبحانه وتعالى ـ فلا حكم إلاّ من الخطاب الشرعي ولا أمر ولا نهي إلاّ من قبل الشارع الحكيم، وخطابه

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٨/ ٩٠، ٣٠٨، ٣٠٩، ومفتاح دار السعادة ٢/ ٤٤، ومدارج السالكين ١/ ٣٣٠، وإرشاد الفحول: ص ٧.

وأمره ونهيه جاء بتقرير ما هو مستقر في الفطر والعقول من تحسين الحسن والأمر به، وتقبيح القبيح والنهي عنه[1].

وهذا كله يصدق على الأخلاق التي أمر بها الإسلام لحسنها والتي نهى عنها لقبحها.

فمكارم الأخلاق يؤيدها الفكر العلمي ويستحسنها ويحث عليها، ورذائل الأخلاق يؤيد العقل اجتنابها ويستقبحها ويحث على البعد عنها، وهي إضافة إلى ذلك فطرية مغروسة في وجدان الناس، فإنه من المعلوم أن في فطر الناس ميلاً إلى مكارم الأخلاق، ورغبة داخلية في ممارسة كل سلوك تدفع إليه، وفي فطر الناس نفور واشمئزاز من رذائل الأخلاق، ورغبة داخلية باجتنابها واجتناب كل سلوك هو من آثارها، وهي إضافة إلى ذلك وفوق ذلك تعود إلى القاعدة الإيمانية في الإسلام، التي تلزم بطاعة الله في أوامره ونواهيه، وأتي منها التوجيه للعمل بمكارم الأخلاق واجتناب رذائلها وقرنت ذلك بالوعد بالثواب لمن أطاع والوعيد بالعقاب لمن عصى[2].

رابعاً: ارتباط الأخلاق بالإيمان والعبادة لله تعالى.

إن عقيدة الإسلام ليست مجرد عقيدة قلبية مجردة معزولة في الوجدان، وليست مجرد ألفاظ تردد على الألسن أو تدون في الكتب، وليست مجرد تفكير عقلي أو ثقافة ذهنية فقط، وليست مجرد جهد بدني أو عمل جوارحي فقط، بل هي ذلك كله؛ إذ الإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح.

---

(١) انظر: هذه القضية في مفتاح دار السعادة ٢/٧٦، ٩، ١٢، ٣٩، ٤٤، ٥٧، ومدارج السالكين ١/٢٣١ و ٣/٤٨٨، ٤٩٠، وشفاء العليل: ص ٤٣٥، ودرء التعارض ٨/٤٩٣، ومجموع الفتاوى ١١/٦٧٧ و ٨/٤٢٨، ٤٣٦، وسلم الوصول لشرح نهاية السول ١/٨٣ ـ ٨٤، ولوامع الأنوار البهية ١/٢٨٤، وشرح الكوكب المنير ١/٣٠٠ ـ ٣٢٢، وتيسير التحرير ١/٣٨٣ ـ ٣٨٧، وروح المعاني للألوسي ١٤/٩٤ و ١٥/٣٧ ـ ٤٢.

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/٢٢ ـ ٢٣.

ومن تأمل دين الإسلام وجده ـ في التقسيم المنهجي أو التصنيفي ـ يدور حول عدة قضايا هي العقيدة والشعيرة والشريعة والأخلاق، فالأخلاق ربع الإسلام ـ إن صحت التسمية والقسمة ـ وهي مربوطة بالعقيدة، موصولة بها، مثل ارتباط الشريعة والشعيرة.

ويتبين هذا الارتباط من خلال النظر إلى الإسلام على حقيقته الصحيحة، على أنه وحدة كاملة متشابكة مترابطة لا انفصال بين أجزائها وعناصرها وأقسامها في الواقع، وإن جرى على ألسنة وأقلام أهل الإسلام تقسيمه إلى عبادات وعادات أو عقائد وشرائع وأخلاق، فهذا التقسيم هو من الناحية النظرية التعليمية التصنيفية حيث جرى العرف العلمي على تجميع كل فئة منها تحت كلية من الكليات.

وإذا نظرنا إلى أوجه الارتباط بين العقيدة والأخلاق وجدناها تتمثل فيما يلي:

١ ـ إن العقيدة الإيمانية هي أساس الدين، وأصل كل شيء في ملة الإسلام، فالمصلي يصلي لله تعالى مؤمناً بألوهيته وربوبيته مطيعاً أمر رسوله راجياً ثوابه في المعاد، وكذلك صاحب الخلق الحسن، يظهر خلقه الحسن في سلوكه راجياً ـ في حال احتسابه ـ الأجر من الله تعالى؛ لأنه يطيع أمر الله الإله الحق، ويقتدي بالرسول الكريم ﷺ، فهو بذلك يطبق لوازم إيمانه بالله ورسوله والوحي والمعاد.

٢ ـ أن الإيمان بالله تعالى يندرج تحت الدوافع الأساسية للأخلاق، بل هو من أعظم الدوافع وأهمها وأقواها تأثيراً في غرس فضائل الأخلاق وتعهدها وجعلها سلوكاً، وفي النهي عن رذائل الأخلاق.

٣ ـ لارتباط الخلق بالإيمان نجد أن دين الإسلام يعتمد في غرس الفضائل وتعهدها والنهي عن الرذائل على صدق الإيمان وكماله، كقوله ﷺ: **«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»**[1].

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر... ٥/ ٢٢٤٠، ومسلم في كتاب اللقطة، باب: الضيافة ونحوها ٢/ ١٣٥٢.

وقوله ﷺ: **«ليس بمؤمن من لا يأمن جاره غوائله»**[1].

وقوله ﷺ: **«إن الحياء والإيمان قرنا جميعاً، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»**[2].

وقوله ﷺ: **«الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان»**[3].

وقوله ﷺ عن الغدر: **«الإيمان قيد الفتك لا يفتك مؤمن»**[4].

وقوله ﷺ: **«لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»**[5].

وقوله ﷺ: **«ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»**[6].

٤ ـ وعلى ما سبق يُمكن القول بأن الإيمان القوي يلد الخلق القوي، وأن انهيار الأخلاق مرده إلى ضعف الإيمان أو فقدانه؛ لأن الإيمان قوة مانعة عن الدنايا، دافعة إلى المكرمات، وما أكثر الآيات المبدوءة بقوله

---

(١) أخرجه الحاكم عن أنس ٤/ ١٦٥، وذكره في صحيح الجامع ٢/ ٩٥٠ برقم ٥٣٨٧.

(٢) أخرجه الحاكم في كتاب الإيمان عن ابن عمر ١/ ٢٢، وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما ووافقه الذهبي، وذكره في مجمع الزوائد ١/ ٩٢، وهو في صحيح الجامع برقم ١٦٣٠، ١/ ٣٣١.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب: أمور الإيمان ١/ ١٢، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان... ١/ ٦٣، وغيرهما.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الجهاد، باب: في العدو يؤتى على غرة ٣/ ٢١٢، وأحمد في المسند عن الزبير بن العوام ١/ ١٦٦.

(٥) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ١٥٤، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ٩٦، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني في الأوسط، وهو في صحيح الجامع برقم ٧١٧٩ جـ ٢/ ١٢٠٥.

(٦) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب: ماجاء في اللعنة ٤/ ٣٥٠، والحاكم ١/ ١٢، وذكره في مجمع الزوائد ١/ ٩٧، وهو في صحيح الجامع برقم ٥٣٨١، ٢/ ٩٩٤.

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وبعدها يرد الأمر بالفضيلة والخير والبر أو النهي عن الرذيلة والشر والإثم، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾[3]، وغيرها من الآيات.

فالإيمان واتباع منهج الإسلام سلوك إرادي توجبه فضائل الأخلاق، وهو - في الوقت نفسه - يدل ويوصل إلى فضائل الأخلاق، وينهى ويحذر عن رذائلها، والإيمان في حقيقته يستلزم كل الفضائل ويستلزم النهي والمفارقة لكل الرذائل، بل هو كذلك في صميمه إضافة إلى ما يستلزمه ويقتضيه.

٥ ـ الإيمان في أصله إذعان للحق واعتراف به وانقياد، وهذا عمل أخلاقي عظيم تطلبه النفوس التواقة، بخلاف الكفر فهو استكبار عن الحق ورد له وتعال عليه، وهذه دناءة خلقية عظيمة، تنحط إليها النفوس الرديئة.

ومن هنا يُمكن أن نفهم قول النبي ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً**»[4].

فأحسن الناس خلقاً لابد أن يكون أصدقهم إيماناً وأخلصهم نية، وأكثرهم التزاماً بما يجب على العباد نحو ربهم من عبادة، وأكثرهم التزاماً بحقوق الناس المادية والأدبية، فالأسس الأخلاقية والأسس الإيمانية ذات أصولٍ نفسية واحدة، وإن كانت بعض الأوامر الشرعية تستند إلى محض التعبد لكونها أوامر من الله تعالى، يجب إنفاذها على الوجه الذي أمر الله به كعدد ركعات الصلاة وهيئاتها، ولايستدعيها أساس أخلاقي منفصل عن

---

(١) الآية ١٣٥ من سورة النساء.
(٢) الآية ٢٧ من سورة الأنفال.
(٣) الآية ١١٩ من سورة التوبة.
(٤) سبق تخريجه: ص ١٩٤٥.

الإيمان، فيُظن أنه لا ترابط بين هذا وذاك، غير أنها في الحقيقة مترابطة، لكونها عائدة إلى الإيمان وهو في أساسه إذعان للحق واعتراف به وانقياد له، ومن هنا نقول بأن هذه الفضيلة الخلقية توجب القيام بهذه الطاعة من جهة أن الله تعالى أمر بها، إذ الفضيلة الخلقية توجب طاعة الله تعالى لأنه الخالق المنعم المالك الإله الحق المبين[1].

وخلاصة القول: أن الإيمان بالله تعالى وعبادته مما توجبه الأخلاق الفاضلة، ومن أولى الواجبات التي تفرضها مكارم الأخلاق، وأن الكفر بالله ورفض عبادته من أقبح رذائل الأخلاق؛ لأنه إنكار للحق من عدة وجوده: فهو إنكار لربوبية الله تعالى ـ مع أن كون الله تعالى رب لكل شيء وخالق كل شيء حقيقة قاطعة واضحة تفرض نفسها على كل منصف محب للحق ـ وهو جحود لألوهية الله واستكبار عن عبادته، وهذا الجحد والاستكبار أشنع الرذائل الخلقية وأخبثها.

٦ ـ وفي الإسلام ارتباط بين العبادة والأخلاق، ذلك أن العبادة هي كمال المحبة مع كمال الخضوع لله ـ جلَّ وعلا ـ، والقيام بذلك واجب أخلاقي متحتم، وعدم القيام به كفر ورذيلة أخلاقه شنيعة.

والفضيلة الخلقية في العبادة لله تعالى تفرض على الإنسان أنواعاً من السلوك الأخلاقي الراقي منها الإيمان بالله؛ لأنه الإله الحق، ومنها الاعتراف له بكمال الأسماء والصفات والأفعال، ومنها شكره على نعمة التي لاتحصى، وطاعة أوامره واجتناب نواهيه، وتصديق أخباره؛ ذلك أن طاعة من تجب طاعته، وتصديق من يجب تصديقه ظاهرة خلقية يدفع إليها حب الحق وإيثاره، وبغض الباطل واطراحه، والذين يستكبرون عن عبادة الله تعالى محرمون من هذه الفضيلة الخلقية الجليلة، مقارفون لرذيلة خلقية شنيعة هي الاستكبار، كما قال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ

(١) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها ١/ ٤٣ ـ ٤٤.

إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾[1]، وقال سبحانه عن عبادة الملائكة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾[2].

ولو ذهبنا نستقصي الأوامر والنواهي الشرعية فإننا نجدها ـ إضافة إلى هذا المعنى الأساسي ـ تشير من قريب أو من بعيد إلى خلق قويم أو تنهى عن خلق ذميم، فالمعاملات كلها قائمة على أساس الحق والعدل ومعلوم أن حب الحق أحد الأسس الأخلاقية العامة، وقائمة على مجانبة الظلم، وهذا مرتبط بالأخلاق أيضاً.

ومن تأمل أحكام البيع والإجارة والقرض وأحكام النكاح والطلاق، وأحكام الحدود الشرعية والقضاء، وجدها تدل على هذه المعاني الخلقية أوضح دلالة، وتدل في فرعياتها على فرعيات خلقية كثيرة، بل نجد فيها ألواناً من الحكمة الخلقية والمقصد الخلقي لايوجد في غيرها من أحكام القوانين الأرضية الجاهلية.

بل إذا تأملنا العبادات الشرعية المحضة مثل الشعائر التعبدية وجدناها تشير إلى معاني أخلاقية، فالصلاة ـ وهي الركن الثاني ـ قال الله عنها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[3] والصيام قال عنه النبي ﷺ: **«إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه أو قاتله فليقل: إني صائم إني صائم»**[4].

وفي فريضة الحج قال الله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾[5].

---

(١) الآية ١٧٢ من سورة النساء.

(٢) الآية ٢٠٦ من سورة الأعراف.

(٣) الآية ٤٥ من سورة العنكبوت.

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الصيام، باب: حفظ اللسان للصائم ١/٨٠٦، والبخاري بنحوه في كتاب الصوم، باب: فضل الصوم ٢/ ٢٦٧٠، وأبو داود في كتاب الصوم، باب: الغيبة للصائم ٢/٧٦٨.

(٥) الآية ١٩٧ من سورة البقرة.

وفي عموم الأمر بالعبادة نجد هذه الروابط الوثيقة بين الخلق والعبادة، ومن ذلك أن النبي ﷺ سأل أصحابه عن المفلس فقال: «أتدرون من المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[1].

وفي هذا دلالة قوية على أهمية أمر الخلق، وعظم منزلته، فالمتدين الذي يباشر بعض العبادات، ويبقى بعدها بادي الشر، كالح الوجه، قريب العدوان، كيف يحسب إنساناً تقياً[2]؟ ولذلك عده رسول الله ﷺ مفلساً.

وخلاصة القول: أن الأخلاق ذات مكانة عالية، ومنزلة مرموقة ودرجة سامقة في الإسلام، وهي متصلة بوشائج متداخلة مع عقيدة الإسلام وعباداته وأحكامه وتشريعاته وهي مطلوبة من المؤمن، مأمور بها، منهي عن ضدها، موعود عليها بالثواب الجزيل من الله الكريم.

وإذا انتقلنا إلى الجاهلية المعاصرة وموقفها من الأخلاق فإننا نجدها تخبطت في شأنها بشتى أنواع التخبط، ومن ذلك:

١ ـ أنها في جحدها لوجود الله تعالى أو في جحدها لألوهيته وحقه في العبادة والطاعة قارفت أعظم الرذائل الخلقية، وجانبت أعظم الفضائل الخلقية وبيان ذلك في أن الإيمان بالله وعبادته أمر توجبه فضائل الأخلاق الفكرية، بل هو أسمى الفضائل وأبرز مظاهر الكمال الخلقي في الإنسان؛ ذلك لأن اعتناق الحق والاعتراف به والتزامه فضيلة خلقية لها مستند من العقل السليم والفطرة القويمة.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم ٣/١٩٩٧، والترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ماجاء في شأن الحساب والقصاص ٤/٦١٣.

(٢) انظر: خلق المسلم للغزالي: ص ١٢.

وشكر المنعم بالوجود والحياة والعقل وسائر النعم واجب أخلاقي متحتم، وعدم شكره والاستكبار عليه رذيلة أخلاقية شنيعة، فيها الكبر والكذب والتكذيب وكراهة الحق، والظلم إضافة إلى ما في لوازم ذلك من فساد كبير في الأخلاق والسلوك والعمل.

٢ ـ أن النفس الإنسانية منذ تكوينها وتسويتها أُلهمت فطرتها إدراك طريق الفجور، وأعظمه وأخبثه الشرك، وطريق التقوى وأعظم التقوى التوحيد والإيمان، وهذا الحس الفطري الذي تدرك به الخير والشر والحق والباطل في بعض أوجهه فضيلة خلقية يسعى المؤمن في تنميتها وتزكيتها، ويسعى الكافر في تدسيتها ودفنها والهبوط بها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾[1] فالإيمان بالله وبدينه ورسوله أعظم مايعتنقه المكلف، والكفر أشنع مايعتنق، وبالإيمان تتزكى القلوب والأعمال والأخلاق، وتشرق حياة الإنسان بالعمل الصالح والخلق القويم، وبالكفر تتدنس القلوب والأعمال، وتظلم حياة الكافر بالعمل الفاسد والخلق الدنيء.

ومن نظر في حياة المؤمنين الصادقين وأخلاقهم وأعمالهم، وحياة الكافرين والمنافقين والمشككين وأخلاقهم وأعمالهم، وجد البون الشاسع والفرق الهائل، الذي هو أعظم في سعته من الفرق بين الثرى والثريا، وأكبر في حقيقته من الفرق بين البصل والمسك، وأجلى في ذاته من الفرق بين التراب والجوهر.

ومن تأمّل أحوال فلاسفة الأخلاق القدماء والمعاصرين وقارنها أدنى مقارنة مع أحوال الأنبياء وأخلاقهم تبينت له هذه الفوارق، وما ذلك إلاّ لما في الكفر من ظلام وتخبط وفساد، وما في الإيمان من نور واستقامة وصلاح.

٣ ـ أن النظرة المادية التي تسلطت على أفكار فلاسفة الغرب الماديين

---

(١) الآيات ٧ ـ ١٠ من سورة الشمس.

قادتهم إلى اعتبار الإنسان مادة مجردة من الروح وآفاقها، وسلكته في سلك الحيوان.

أبطلت تميزه واختصاصه، وألغت تفرده، ونظمته في نظام الحيوانية الهابطة، فهو في نظرهم مخلوق ذو طبيعة واحدة تتحدد بحدود الجسد والغرائز، جسمه هو مصدر طاقته، وغرائزه هي الموجه له، وتصرفاته الغريزية هي عالمه الأوحد.

إلغاء كامل وصريح ومتعمد لإنسانية الإنسان، وجحد للحقيقة الروحية والرغبات والأشواق والآفاق، والسلوكيات المنبثقة عنها.

مصادرة كاملة لكل القيم العليا في الإنسان: قيم الحق والخير والجمال والحرية والإخاء والحب، وتحويلها إلى مجرد وسائل، أو حيل يحتال بها الإنسان لتحقيق مراداته الغرائزية.

٤ ـ بناء على هذه النظرة المادية الحيوانية للإنسان أقامت أوروبا سياستها واقتصادها وحياتها الاجتماعية والنفسية بمعزل عن القيم الروحية، وبمعزل عن الأخلاق، وبمعزل عن الدين كله جملة وتفصيلا.

وكانت النتيجة هذا الانفلات الرهيب في الأخلاق، والصراع المدمر العنيف، والشد والجذب في داخل النفس والمجتمع بصورة تتلف المشاعر وتمرض الأعصاب وتدمر النفوس وتسحق الإنسان، حتى وصلت حوادث الانتحار والجنون والأمراض النفسية والعصبية إلى درجة لا مثيل لها في تاريخ البشرية، لقد وصلت النظرة المادية للإنسان إلى أنحاء عديدة أصيلة من الحياة العامة، وأثرت في تصورات إنسان الغرب وسلوكه وسائر مناشطه، وظهر تأثيرها جلياً في مجال الأخلاق والسلوك، وكلها تعود إلى التصور الأعور للكيان الإنساني، التفسير الناقص قصير النظر محدود الرؤية الذي جعلوه أساساً شاملاً لمنطلقاتهم الفكرية والعملية، إنه التفسير المادي الحيواني للإنسان، وبناء عليه تفرعت نظراتهم للإنسان وأعماله وأخلاقه، ومن أظهر ذلك:

أولاً: التفسير المادي الذي يقول: إن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث

عن الطعام، واللهاث خلف الظواهر الاقتصادية، وحصر إنسانية الإنسان في العبودية الخانعة للمال والتأليه الأعمى للمادة، وبناء على ذلك فالاقتصاد ـ عند الماركسيين أصحاب التفسير المادي ـ، أو البحث عن الطعام والشراب هو منبع كل عقيدة وتصور، وأساس كل قيمة وسلوك وخلق.

وقد تفرع عن هذه النظرية الحمقاء مصائب كثيرة عادت بالبلاء والهلاك على الناس الذين اتبعوها، على أنه يجب ألاّ ننسى أن الإطار الفلسفي لهذه النظرية الهابطة مأخوذ من نظرية داروين، وأن المنهج التطبيقي منقول عن هذه النظرية الخرافية مع إضافة فرضيات فلسفية أخرى، ولايصح أن ننسى مطلقاً أن هناك مصدراً مهماً لنظرية التفسير المادي الماركسي يتمثل في التراث اليهودي التلمودي والنفسية اليهودية، المشهورة بعبادتها للمال، وتأليهها للكسب، وحقدها الحارق على البشرية وقيمها وتراثها ومقدساتها.

وإذا أخذنا الأخلاق ـ وهي مجال حديثنا هنا ـ مثالاً للتفسير المادي الماركسي بخلفياته المادية الداروينية، وخلفياته اليهودية الساعية في الأرض فساداً؛ وجدنا أصحاب هذا الاتجاه ينظرون إلى القيم والأخلاق بمنظارين:

أحدهما: أن القيم والأخلاق ليست سوى انعكاس للأحوال المادية والاقتصادية القائمة في أي وقت من الأوقات، وكل وضع اقتصادي أو مادي قائم هو الذي ينشيء كل مايتعلق بالدين والأخلاق والأسرة، وكلما تغيرت الأوضاع الاقتصادية المادية تغير الدين والأخلاق.

يقول فردريك إنجلز: (إن الناس عن وعي أو لاوعي يستمدون مفاهيم الأخلاقية ـ في التحليل الأخير ـ من العلاقات العملية التي يقوم عليها وضعهم الطبقي، أي من العلاقات الاقتصادية التي ينتجون بها ويتبادلون فيها)[1].

وقول مجموعة من العلماء والأكاديميين السوفييت في كتابهم الموسوعة الفلسفية تحت عنوان «الأخلاقية» (شكل من أشكال الوعي الاجتماعي

---

(١) نصوص مختاره من إنجلز: ص ١٥٩، جمع جان كانابا، ترجمة وصفي النبي.

تنعكس وتثبت فيه الخصال الأخلاقية للواقع الاجتماعي...، ويتحدد طابع الأخلاقية بفعل النظام الاقتصادي والاجتماعي، ويعكس مستواها المصالح الطبقية...)[1].

وعندما ذكرت آنفاً الجذر الداروينى لهذه النظرة المادية الاقتصادية الحيوانية، فإن ذلك لم يكن لمجرد استنتاج من فحوى هذا المذهب، وإن كان الاستنتاج يدل على هذا المقصد بجلاء، بل إن فردريك إنجلز ينص على هذه المرجعية في تلخيص بليد يدل على عته فكري، ويدل على إيمانٍ بغيبٍ مّا، وإن كان هذا الغيب خرافة.

يقول إنجلز: (منذ مئات عدة من ألوف السنين كان يعيش في مكان ما من الدائرة الاستوائية عرق من القردة الشبيهة بالبشر بلغت تطوراً رفيعاً بوجه خاص، وقد أعطانا داروين وصفاً تقريباً لهذه القردة التي قد تكون أسلافنا... وقد أخذت هذه القردة ـ متأثرة بالدرجة الأولى دون شك بنمط ـ معيشتها الذي يتطلب أن تنجز الأيدي من أجل التسلق غير وظائف الأرجل، أخذت تفقد عادة الاستعانة بأيديها من أجل السير على الأرض واتخذت أكثر فأكثر مشية عمودية، وهكذا ثم اجتياز الخطوة الحاسمة لانتقال القرد إلى إنسان ـ وبعد كلام طويل يضيف قائلاً ـ ينسى الناس أن الظروف الاقتصادية لحياتهم هي منشأ الحقوق التي لديهم مثلما أنهم نسوا أنهم قد نسلوا من عالم الحيوان)[2].

ثانيهما: أن الأخلاق وجميع أصولها وأسسها ليست قيماً ثابتة بل هي نسبية متحولة فلا ثبات لها ولا قدسية، وهذه القضية مبنية على جحدهم أن الإنسان مخلوق لله تعالى من عدم، ومبنية على أن التطور أمر حتمي لازم لا فكاك منه مطلقاً، وهذا مأخوذ عن الداروينية.

قال علماء السوفييت في موسوعتهم الفلسفية: (ليست القواعد

---

(١) الموسوعة الفلسفية: ص ١٤.

(٢) نصوص مختارة من إنجلز: ص ١٦٠ ـ ١٦٢.

والعلاقات الأخلاقية شيئاً يبزغ مرة وإلى الأبد، كما يعتقد المتافيزيقيون، وليست الأخلاقية من محض خلق العقل أو الروح، كما يؤكد المثاليون واللاهوتيون)[1].

ويقول إنجلز: (وهكذا فإننا نرفض كل محاولة لإلزامنا بأية عقيدة أخلاقية مهما كانت على اعتبارها شريعة أخلاقية أبدية، نهائية، وثابتة أبداً، بحجة أن للعالم الأخلاقي أيضاً مبادئه الدائمة التي تنهض فوق التاريخ، وفوق الفوارق بين الأمم.. إنا ننادي على النقيض من ذلك بأن سائر النظريات الأخلاقية قد كانت حتى هذا التاريخ، في آخر تحليل، نتاجاً لأوضاع المجتمع الاقتصادية السائدة في زمنها)[2].

ويقول أيضاً: (منذ اللحظة التي تطورت فيها الملكية الخاصة للأشياء المنقولة كان لابد لجميع المجتمعات التي تسود فيها هذه الملكية الخاصة أن يكون فيها هذه الوصية الأخلاقية المشتركة: لاتسرق، فهل يعني أن تصبح هذه الوصية وصية أخلاقية سرمدية؟ كلا أبداً!، ففي مجتمع أزيلت منه دوافع السرقة... لايُمكن أن يرتكبها مع مرور الزمن غير مجانين، كم سيضحك الناس من الواعظ الأخلاقي الذي يود أن يعلن على رؤوس الأشهاد الحقيقة السرمدية: لاتسرق.

ولهذا فإننا نرفض كل طمع بأن تفرض علينا أية عقائدية أخلاقية كقانون سرمدي نهائي لايتزعزع بعد اليوم بذريعة أن لعالم الأخلاق هو أيضاً مبادئه الدائمة، التي هي فوق التاريخ والفوارق القومية)[3].

هذه أصول نظرتهم إلى القيم والأخلاق من الناحية الفلسفية، أمَّا من الناحية التطبيقية فقد سعت الشيوعية إلى إبادة كل خلق إنساني أصيل باعتباره شيئاً من الفردية المحرمة، أو باعتباره حيلة برجوازية للاستغلال والسيطرة!!

---

(١) موسوعة الفلسفة: ص ١٤.

(٢) من الترجمة العربية لكتاب أنتي دوهرنج: ص ١١٤ ـ ١١٥ نقلاً عن كتاب مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب: ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٣) نصوص مختارة من إنجلز: ص ١٦٠.

فالأسرة والزواج ـ عندهم ـ من بقايا البرجوازية ومن التصورات اللاهوتية المترسبة، ولذلك دعت الشيوعية إلى الجنس المشاع والإباحية المطلقة، وجعلت ذلك من أهم أهداف الثورة الشيوعية.

وقد تبنت الدول الشيوعية عملياً محاربة الدين وأعلنت ذلك رسمياً وقامت بتدريس الكفر والإلحاد، وبذلت كل الوسائل للتنفير من الدين والأخلاق، واعتبرت أن الحق والعدل والفضيلة والصدق وغيرها من الفضائل الخلقية مجرد هراء، ولا وجود لشيء من ذلك إلاّ في أذهان اللاهوتيين والمثاليين!!.

واعتبروا بث هذه الأفكار ونشرها عنواناً للوعي والتقدم والنضال الشريف، واعتبروا أي دعوة للدين أو للإصلاح الأخلاقي أو الاجتماعي علامة تخلف ورجعية يجب على الثورة الشيوعية مقاومة ذلك، ويجب على الثوار المناضلين استئصال أولئك بالقتل والاغتيال.

وفي سياق التعصب الشيوعي الماركسي لايسمح لأي أحد أن يناقش أو ينافس العقيدة الماركسية، ولابد أن تسيطر على كل مناحي الحياة، فالعلم يجب أن يكون أداة لبث الإلحاد، وترسيخ العقيدة الماركسية والأدب والفن لابد أن يكون في بوتقة «الواقعية الاشتراكية» والإعلام يقوم بالدعاية للشيوعية ومشاريعها وشخصياتها، والدعاية المضادة للمخالفين والمناوئين لها.

ثانياً: التفسير الجنسي الحيواني:

يعتبر اليهودي فرويد أشهر من تبنى التفسير الجنسي ونشره ودافع عنه بتعصب شديد، ولم يكن فرويد أول من تحدث عن اللامعقول ولا الجانب الشهواني من الطبيعة البشرية، بل هو أظهر من تجرأ فأشار إلى هذه الجوانب، لقد كانت أوروبا تعج بالآراء والأفكار الجنسية الشهوانية (ولم يكن فرويد هو العالم الوحيد الذي كان يبحث في الجنس وقضاياه، بل كان هناك أيضاً العالم الاشتراكي الرائد في علم الجنس هافلوك إليس، ففي العشرينات من القرن العشرين، سقط الاحتشام الفكتوري المألوف، وقد أصدرت الروائية البريطانية إلينور جلن روايتها «ثلاثة أسابيع» حيث روت فيها

قصة خيالية تدور حوادثها حول مباهج الزنا والتزاني، الأمر الذي لم يكن ليفهمه أو بالأحرى ليتسامح به العهد الفكتوري، وقد لاقت روايتها هذه رواجاً مذهلاً. . .)[1].

جاء فرويد في هذا الجو المحموم مدفوع بخلفيته اليهودية الحاقدة[2] على البشرية، وبمزاجه الساخر بل لقد كان «كلبي المزاج»[3] و(كان أيضاً دوغماتياً شديد التزمت)[4]، وورث عن داروين نظرته القائلة بحيوانية الإنسان، وتوافق ذلك مع خلفياته اليهودية التي تقرر أن ما عدا اليهود هم ليسوا سوى حيوانات في هيئة بشر خلقوا ليكونوا خدماً لشعب الله المختار!!.

تمازجت هذه الأمور كلها في عقلية فرويد فخرج بنظريته الجنسية الحيوانية.

أمَّا الدين فكانت معاول الهدم قد توجهت ضده في أوروبا التي فرحت بالخلاص من ضغط وهيمنة الدين النصراني المحرف المليء بالتحريف والسيطرة الظالمة من رجاله، واستفاد فرويد من هذه الفرصة أيما استفادة، فراح ينشر فكرته الجنسية بكل حرية وجرأة بل بكل تعصب وتزمت.

رسم فرويد صورة ثابتة لكيان الإنسان على أساس الجانب الحيواني المادي في الإنسان، وتمددت فكرته المدمرة تحت ظل البحث العلمي، وتحت شعار علم النفس!!.

ولئن كان ماركس نظر إلى النفس الإنسانية من خلال عالمها الخارجي ومن خلال المؤثرات الخارجية، الاقتصادية بالذات؛ فإن فرويد نظر إلى

---

(١) تاريخ الفكر الأوروبي الحديث: ص ٥٠٠ ـ ٥٠١.

(٢) ظهرت مؤلفاته بالعربية والألمانية والإنجليزية وغيرها تؤكد أن فرويد كان يصدر في كتابته عن نفس يهودية خالصة، اقرأ بالعربية كتاب الدكتور صبري جرجس، وبالألمانية أو الإنجليزية كتاب يونج تلميذ فرويد بعنوان «ذكرياتي عن فرويد». انظر: الإنسان بين المادية والإسلام لمحمد قطب: ص ٢٧ هامش رقم ١.

(٣)(٤) تاريخ الفكر الأوروبي الحديث: ص ٥٠٠ ـ ٥٠١.

النفس الإنسانية من خلال عالمها الداخلي، ولكنهما وصلا في النهاية إلى نتيجة واحدة في موضوع الدين والأخلاق، واتخذوا التفسير الحيواني للحياة الإنسانية وللإنسان.

التقى ماركس وفرويد عند نقطة تسخيف الدين والأخلاق واعتبارهما قيماً غير أصيلة في الحياة البشرية، وإنّما انعكاساً لشيء آخر، مادي في أصله وحيواني.

بيد أن فرويد كان أفحش وأخبث في تلويثه للنفس الإنسانية والانحطاط بها إلى الحضيض، وذلك من خلال نظريته المسماة نظرية التحليل النفسي[1] حين قرر أن الحياة النفسية للإنسان ليست حيوانية فحسب ولكنها كلها تنبع من جانب واحد، من جوانب الحيوان جانب الجنس، الذي اعتبره العامل المهم بل الوحيد المسيطر على كل تصرفات الإنسان، ويُمكن تلخيص حيوانية فرويد ـ التي يطلق عليها اسم نظرية التحليل النفسي ـ في عدة نقاط:

١ ـ الإنسان ليس مخلوقاً لله تعالى، بل هو نتاج الطبيعة، وهو في أصله حيواني.

٢ ـ الإنسان ليس فيه شيء اسمه الروح بل هو مجرد جسد.

٣ ـ التكوين النفسي للإنسان على ثلاث درجات بعضها فوق بعض، أولها وأدناها الطاقة الشهوانية وموطنها الذات السفلي وهي طاقة جنسية لها السيادة التامة، ثانيها النفس الواعية التي تواجه المجتمع وتحتك به، وتحاول التوفيق بين الرغبات المتناقضة في داخل النفس، وبين الحقيقة المادية الخارجية، ثالثها الذات العليا، وهذه تنشأ من تلبس الطفل بشخصية والده،

---

(١) مدرسة من مدارس علم النفس، وطريقة لمعالجة الأمراض العقلية والعصبية قام بتطويرها سيغموند فرويد، تشدد بصورة خاصة على ظاهرة العقل الباطني أو اللاشعور، وتقوم على اعتبار الإنسان مجرد مادة وحيوان في الأصل والمنشط، وأن أصل جميع تحركاته وأعماله في اليقظة والمنام تنبع من الدافع الجنسي. انظر: موسوعة علم النفس: ص ٦٦.

وحينئذ تنشأ عقدة أوديب كنتيجة طبيعية لحب الولد لأمه حباً جنسياً، يحول وجود الأب دون تحقيقه، فيتكون في نفس الطفل نحو أبيه شعور مزدوج من الحب والكراهة في آن واحد.

٤ ـ عقدة أوديب، محور من محاور نظرية التحليل النفسي عند فرويد وأتباعه، وأصل قولهم بهذه العقيدة، وأختها الأخرى المسماة عقدة الكترا، تلك الخرافة الخيالية التي افترضها فرويد وصدقها، وتبعه على ذلك من تبعه، وملخص هذه الخرافة المستمدة أصلاً من خرافة داروين: أن الأبناء في مطلع البشرية اتجهوا نحو أمهم بدافع الرغبة الجنسية، فوجدوا والدهم عائقاً في طريق رغبتهم فقتلوه، فأحسوا بالندم على قتله، فتعاهدوا على تقديس ذكراه فعبدوه، ومن هنا نشأ الدين ونشأت عبادة الأب التي تحولت فيما بعد إلى عبادة للطوطم، ولما وجدوا أنهم سوف يتقاتلون على الأم قرروا تحريمها على أنفسهم بدلاً من الخصام، فنشأت القيم، وهكذا بقيت هذه الحادثة تطبع البشرية بهذا الطابع منذ ذلك الزمان وحتى الآن، فكل طفل يعشق أمه بدافع الجنس، وكل طفل يكبت ذلك العشق فتنشأ عقدة أدويب نسبة إلى أوديب التي تقول الأساطير الإغريقية، أنه قتل أباه وتزوج أمه دون أن يعلم حقيقة ما فعله.

وكذلك الطفلة تعشق أباها بدافع الجنس ثم تكبت هذا العشق فتنشأ في نفسها عقدة الكترا، التي تعني في مدرسة التحليل النفسي تعلق الابنة بوالدها، وشعورها بالعداء نحو والدتها التي تنافسها أو تستبد بالوصال الجنسي مع أبيها، وهذه الرغبة ناتجة عن وعي أو غير وعي في نفس الطفلة، وتسفر عن الشعور بالعداء والبغض للأم كما تؤدي إلى شعور بالذنب نتيجة تضارب عواطف الفتاة.

٥ ـ من عقدة أوديب والكترا، والكبت الملاصق لهما يقرر فرويد أن الدين والأخلاق والتقاليد والقيم العليا تنشأ وتنطلق من هاتين العقدتين، فالكبت الذي بدأ منذ قتل الأبناء والدهم مستمر لم ينته، ويتحول دائماً إلى قلق نفسي دائم لايترك البشرية في راحة، وإنّما اخترع

الناس الأديان ـ حسب قول فرويد ـ لحل هذه المشكلة.

٦ ـ ومن هذه المنطلقات والتحليلات والتفريعات توجه فرويد نحو الدين والأخلاق والتقاليد والقيم العليا يدنسها ويقذرها في نفوس الناس، ويغمسها في مستنقع الجنس، ثم يخرج حلوله بعد ذلك من المستنقع ذاته يتقاطر منها الجنس المكبوت.

٧ ـ ينشأ الضمير والأخلاق عند فرويد من قضية الكبت والقمع للشهوات الجنسية، أي أن الضمير والأخلاق ليست موجودة في عالم الحقيقة وإنّما هي خرافة تنشأ بسبب عوامل الكبت والقهر.

٨ ـ ينفي فرويد كل قيمة خلقية ذاتية؛ لأنه لايستطيع أن يتصور أن إنساناً يُمكن أن يتنازل عن متعته من أجل قيمة عليا أو خلق قويم.

٩ ـ يفسر فرويد الدوافع الإنسانية النبيلة تفسيرات تدنيسية تُذهب جلالها وتطمس ما فيها من خير وإشراق، فهو يعتبر كل ارتفاع خلقي مجرد حيلة لا شعورية لمداراة خسة هابطة، وكلما ازداد الإنسان رقياً وخلقاً وتطهراً في الظاهر كان ذلك عند فرويد دليلاً على عمق مشاعر الإجرام والنذالة التي يكبتها في لاشعوره.

١٠ ـ يفسر كذلك كل العلاقات العاطفية بالتفسير التدنيسي نفسه، فحزن الأهل على ميتهم ـ مثلاً ـ ليس شعوراً بالحزن على فراقه، ولكنه مداراة للفرحة الخفية التي يحس بها الأقارب عند التخلص من هذا الشخص الذي يكرهونه ويتمنون موته، والولد يكره والده، والبنت تكره أمها، والزوجة تبغض زوجها وتتمنى له الموت، وليس هذا عنده على مستوى المشاعر الفردية، بل يمتد حتى يشمل الحياة النفسية كلها بين الأفراد والمجتمعات، فالجميع يكبتون مشاعر الكراهية الثابتة في نفوسهم تجاه من يتظاهرون بحبه، وليس في حسابه أي سمو إنساني، ولن يحدث مثل هذا السمو ـ إن حدث ـ إلاّ بالكبت القهري للنوازع، ولا سبيل عنده لارتفاع الإنسان عن أي رذيلة في سبيل خلق أو قيم عليا أو فكرة قويمة.

١١ ـ ينكر فرويد جميع المعنويات، وينكر كل حقيقة خارجة عن

نطاق الأرض، وبناء على ذلك يعالج المرضى ويفسر الأحلام. فلا غيب عنده ولا روح، ولا شيء خلف المادة ومعطياتها وفرعياتها، أمّا الدين فقد ذكرنا في نقطة سابقة خرافة قتل الأبناء لأبيهم ثم أسفوا لذلك وقدسوا ذكراه وعبدوه، وهكذا ظهرت أول ديانة في الأرض حسن خرافة فرويد، ولذلك عادى فرويد الدين واعتبره خطراً على الإنسان؛ لأنه يعتقد أن الدين يصرف الانسان عن التعامل مع الواقع إلى أوهام تفسد عليه حياته.

١٢ ـ يعتبر فرويد الأخلاق والتقاليد والقيم العليا وسلطة المجتمع حراس كبت وقهر، يتربصون بالفرد الدوائر ليفتكوا به ويوقعوه في سلطانهم ويخضعوه لمشيئتهم، والفرد في صراع دائم ضد هؤلاء الحراس بوعي أو بغير وعي يبحث عن أي فرصة للانقضاض عليهم علانية إذا أمن، أو خفية واحتيالاً إذا خشي العاقبة.

وعلى هذا المبدأ يصور فرويد مريض العقل والنفس والمصاب بالجنون والهستيريا والانفصام، والمجرم والشاذ، يصورهم جميعاً ضحايا لكبت المجتمع والأخلاق والقيم، وضحايا الدين ووخز الضمير، ضحايا هذه العوائق التي تحطم الفرد وتكبت غرائزه وتحطم كيانه.

١٣ ـ وبناء على ذلك فإنه يصور أن الإنقاذ للإنسان والخلاص له من العقد النفسية والاضطرابات العصبية والهلوسات وانهيار الأعصاب إنّما يحصل بإزالة هذه الحواجز: «الدين، الخلق، الحالة الاجتماعية، القيم، الضمير، التقاليد» وإطلاق المشاعر المكبوتة.

لقد سمى هذه الأشياء «المشاعر العليا» بعد أن وجه إليه النقد الشديد واعترف بوجودها ولكنه أصر على القول بأنها جميعاً تنشأ من قهر النوازع الفطرية في عقدة أوديب، أي أنه اعترف بها اعترافاً أسوأ من النفي.

١٤ ـ بنى كل أحكامه على تجاربه في الشاذين والمتخلفين والمجرمين، وكل تجاربه كانت في هذه الأصناف، ومن هؤلاء الشواذ استنبط أحكامه وعممها على الأصحاء مشياً على قاعدته القائلة أن في كل

إنسان قدراً من الشذوذ، وأن كل البشر مصابون بعقدة أوديب أو عقدة الكترا، ثم يتغلبون عليها بطريقة ما.

وبناء على هذه الأحكام المستمدة من الشاذين، والمأخوذة من جيل معين هو جيله الذي عاش فيه، ومن مجتمع معين هو المجتمع الأوروبي، عمم فرويد أحكامه على البشرية كلها في جميع أحقابها الماضية والراهنة والآتية، وعلى جميع أنماط ومناشط البشر باختلاف بيئاتهم وخلفياتهم وعقائدهم وأديانهم.

١٥ ـ يرى فرويد أن الإنسان ليس له إلاّ أحد طريقين، إمَّا انطلاقة الطاقة الشهوانية الجنسية انطلاقاً حراً، أي «حيوانياً» وإمَّا الكبت المدمر للاعصاب المبدد للطاقات المفسد للحياة.

١٦ ـ الحياة كلها جنس، ومنبثقة من خلال الجنس، والجنس بيداء منذ أن يولد الإنسان، فهو يولد جنساً خالصاً في إهاب طفل حيواني صغير، وكل أعمال الطفل تعبير عن طاقة الجنس، فالرضاعة ومص الإبهام والتبول والتبرز والالتصاق بالألم كلها جنس في جنس ولمقصد جنسي.

١٧ ـ لقد لخص فرويد خطته كلها لتلميذيه يونج وأدلر بقوله: إننا ينبغي أن نحطم كل العقائد الدينية، ونجعل من الجنس عقيدة[1].

---

(١) نقلت واقتبست هذه الأقوال من:

١ ـ الإنسان بين المادية والإسلام: لمحمد قطب: ص ١٩ ـ ٤٦، ٢١٥.

٢ ـ دراسات في النفس الإنسانية: له: ص ٧٤ ـ ٧٥، ١٥٩ ـ ١٦٠، ١٧١، ١٩٦ ـ ١٩٧، ١٩٨ ـ ٢٠٤، ٢٠٨، ٢٤٥ ـ ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٣، ٣٥٤، ٢٧٣.

٣ ـ التطور والثبات في حياة البشر: له أيضاً: ص ٤٥ ـ ٥١.

٤ ـ مذاهب فكرية معاصرة: له أيضاً: ص ١٠٧ ـ ١٢٤.

٥ ـ الموسوعة الفلسفية: لعبدالمنعم الحفني: ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩.

٦ ـ تاريخ الفكر الأوروبي الحديث: ص ٤٩٧ ـ ٥٠١.

٧ ـ الموسوعة الفلسفية: لعلماء وأكاديميين سوفييت: ص ٣٣١.

٨ ـ موسوعة علم النفس: ص ٤٣، ٤٦، ٦٦، ٧٧ ـ ٧٨، ٩٢، ٩٤، ١٨١، ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٣.

هذه نظرية فرويد التي أثرت في الحياة الغربية كما لم تؤثر نظرية أخرى باستثناء سابقتها المسماة نظرية النشوء والارتقاء، التي تأثر بها فرويد أيما تأثر، فماذا صنع فرويد ونظريته في الحياة الغربية في مجال الأخلاق والقيم؟.

لقد نزع عن الإنسان إنسانيته وألقاه في حضيض الحيوانية، بل أفحش في تصوير حيوانية الإنسان، حين صور أن الحياة الإنسانية ليست حيوانية فحسب، ولكنها كلها تنبع من جانب واحد من جوانب الحيوان، من الجنس، من الغريزية الشهوانية، وعلى ذلك فإن أي عائق يعوق انطلاق هذه الغريزة فهو كبت يجب تجاوزه بل يجب تحطيمه، وأهم هذه العوائق عند فرويد الدين والأخلاق، التي اعتبرها قيما غير أصيلة في الحياة البشرية، وإنّما هي ـ عنده ـ انعكاس لشيء آخر، مادي في أصله وحيواني.

إذن فالأخلاق والقيم مجرد خرافة وزيف يمارسها الناس مع بعضهم عن طريق المخادعة والتلبيس.

وبهذا الشكل استطاع فرويد تلويث فكرة الدين والأخلاق والتقاليد وتقذيرها وتدنيسها في نفوس الناس، حتى لقد اجترأ في خبث يهودي معهود ـ فسمى التسامي الخلقي شذوذاً، وقرر أن الكبت الجنسي خطر على الكيان النفسي والعصبي؛ لأنه يصيب النفس بالعقد والاضطرابات.

طارت هذه النظرية الجنسية في آفاق الحياة الغربية، وأصبح فرويد قواد الجيل الحديث إلى كل رذيلة وانحطاط و(امتد تأثيره إلى ميادين التربية والتعليم والآداب والفنون والدين والفلسفة والأخلاق والثقافة الشعبية)[1].

لقد كان أثره عنيفاً في الحياة الغربية، اعتنقت الجماهير آراءه، وظاهرهم في ذلك كثير من العلماء، بل توسع بعضهم في تفسير هذه النظرية واستطرد مع لوازمها ومقتضياتها في تواصل جذري مع نظرية داروين التي تعتبر أصلاً ومنطلقاً لنظرية فرويد، إلى حد أن أحدهم كتب كتاباً عن

---

(١) تاريخ الفكر الأوروبي الحديث: ص ٤٩٨.

الإنسان ودراسة أحواله العضوية والجنسية والاجتماعية فلم يجد ما يسمى به الإنسان إلاّ اسم «القرد العاري»[1] حيث جمع في هذه التسمية بين داروين وفرويد، فالإنسان حيوان بل قرد، وهو عاري لأن أصله كما افترضت خرافة فرويد، حيوان شهواني جنسي تساقط عنه الشعر واستقامت قامته، وعاش بغريزة الجنس ومن أجلها!!.

انطلق الغربيون جماهير وعلماء خلف خرافة فرويد، وانغمسوا في مفاهيمها نظرياً وعملياً، فانطلقت الغرائز بلا حد ولا ضابط، وتهدمت القيم والأخلاق والتقاليد؛ لأن فرويد أخبرهم بأن هذه عوائق في سبيل الانطلاق، وبدأ الناس ـ وخاصة الشباب وصناع الفن الإعلامي ـ ينظرون إلى الأخلاق والدين نظرة عداء ومناقضة، ويعتبرون وجودها أو الحديث عنها حديثاً عن أشياء وهمية وغير منطقية، بل أشياء معادية للتحرر والانطلاق، وليست ـ في أحسن الحالات ـ إلاّ تراثاً من الماضي العتيق الذي كان غارقاً في التخلف والرجعية والانكبات.

وسرت في الجماهير لوثات عديدة شكلت عقليتها وممارساتها وأهدافها ونظرتها للكون والإنسان: لوثة داروين المتمثلة في حيوانية الإنسان، والتطور المطلق بلا حدود، ولوثة فرويد المتمثلة في الإباحية الجنسية، والعداء للدين والأخلاق.

نشأ الجيل الغربي وقد رسمت أمامه طريقان:

أحدهما: احترام وصايا الدين، والأخلاق، والمجتمع، وتقدير القيم المعنوية والخلقية، وهذه قال فيها فرويد وسائر المتأثرين به من فلاسفة وتربويين وإعلاميين وعلماء نفس واجتماع، بأن هذه القضايا ليست أصيلة ولا ذات جذور، وليست ثابتة، بل هي ناشئة عن الكبت، واتباعها يولد الكبت والمرض والاضطراب والتخلف الشخصي والاجتماعي.

الثاني: تحطيم العوائق من أجل التحرر والانطلاق، والزعم بأنه لاتتم

---

(١) القرد العاري لديز موندموريس ترجمة ميشيل أزرق ومراجعة محمد قجة.

سعادة الفرد إلاّ بسحق الدين والأخلاق وتقاليد المجتمع، وأول ماتبدأ سعادة الفرد وحريته بالحصول على اللذة الجنسية وإطلاقها من قيود القيم الخلقية والدينية، ليتحقق للفرد شعوره بذاته واستقلاله وحريته وسعادته.

وبالطبع لقد اختار الناس الطريق الثاني، فهو أسهل وألذ، ولايكلف شيئاً، في حين أن الطريق الأول قد تحطمت أسباب بقائه منذ الصراع القديم بين الكنيسة والعلم.

وبعد الحرب العظمى الأولى وجدت الأرض الاجتماعية والنفسية القابلة لهذه النظرية فقد جند للحرب ملايين الشباب وعاشوا في أتونها سنين عديدة تحت ألوان القصف والتدمير الحسي والمعنوي، وقتل منهم الملايين وبعد انتهاء الحرب انفلت البقية من خنادق القتال بعد كبت وقهر الحرب ضمأى يبحثون عن أي شيء يروي غرائزهم المشتعلة.

وكانت المرأة قد أخرجت من بيتها بعد قتل عائلها، تبحث عن الرزق في المصنع وفي غيره، وهناك وقعت الواقعة وكانت الفرصة مناسبة لاتباع تعاليم خرافة فرويد، وكانت الظروف كلها تدفعهم للانطلاق في هذا المضمار، ووجدوا في فرويد ونظريته المتكأ العلمي ـ كما زُعم لهم ـ فانطلقوا خلف نزواتهم الجنسية الملتهبة.

وتحولت القضية تحولاً كاملاً، فبدلاً من ظهور أصحاب التحلل الخلقي والشذوذ الجنسي في هيئتهم الحقيقة كمجرمين وشاذين ومنحرفين، هيأت لهم نظرية فرويد السند العلمي ـ بزعمهم ـ ليقولوا إنّما نحن من أتباع العلم، ورواد التقدم، وطلائع التحرر، وهذه أولى بالاتباع وأحق بالاعتناق من أساطير الأخلاق والدين.

وتركزت الفتنة في أول أمرها فيما أسموه «تحرير المرأة» فأخرجوها في الشوارع عارية سافرة وبغضوا إليها المنزل والاستقرار فيه، وجعلوا العمل في المنزل وتربية الأولاد سبة تنفر منها كل امرأة عصرية، وكتب في ذلك الكتاب والصحفيون والإعلاميون والأدباء، وتحركت الأفلام السينمائية ثم التلفازية ثم أشرطة الفيديو تصور المرأة عارية داعرة داعية إلى الفساد،

وتحركت بيوت الأزياء، ومعارض الأزياء وأدوات الزينة، ووسائل الدعاية متخذة من المرأة سلعة وأسلوباً للترويج من خلال إظهار المفاتن وكشف العورات.

وأضحت هذه كلها وغيرها صورة عادية من صور الحياة الاجتماعية، وأضحى المجتمع المنحل لايستغني ـ لشدة ألفه وانطماس بصيرته ـ عن المرأة الفاتنة الجذابة بجسدها بل بعورتها!!.

وأصبحت هذه الفتنة جزءاً من الحياة، واستمر الحال في ازدياد، حتى أصبح لكل فتاة عشيقها أو صديقها الذي تمارس معه الجنس كاملاً في أغلب الأحيان، وأصبح الأمر عرفاً اجتماعياً عادياً لايستطيع أحد أن يفكر في استنكاره فضلاً عن الجرأة في ذلك، إلاّ بقية قليلة ضعيفة تنادي في خضم هذه الأمواج المتلاطمة بالعودة إلى الدين والأخلاق، ويضيع صوتها، بل توصم بالجنون والتخلف والرجعية، فقد استقر عند الجميع أن الدين والأخلاق عوائق لابد من تحطيمها!!.

وتمادى الحال حتى وجدت بيوت الدعارة المحمية من الدول، وجمعيات الشاذين والشاذات الذين يطالبون بحقوق التحرر الكامل كما يريدون، وتصل قوتهم إلى حد دخولهم نسيج السياسة والحياة العامة ليطالبوا بالمزيد من التحلل والشذوذ والمزيد من الحماية، وطلب سن القوانين لحماية حقوق أصحاب الشذوذ والجريمة والانحراف، كما حدث في بريطانيا حينما خرج الشذاذ من الرجال في كامل زينتهم وعريهم واضعي المساحيق على وجوهم والحلي في آذانهم وأعناقهم، مبرزين مؤخراتهم كاتبين عليها عبارات الدعاية لفاحشة اللواط، خرجوا في مظاهرة عارمة في شوارع لندن يطالبون بتشريع قانون يبيح للبالغين إقامة علاقات الشذوذ الجنسي، وإبطال كون ذلك مخالفاً للقوانين، وبالفعل حصلوا على ذلك في عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م[1].

---

(١) انظر: المجتمع العاري: ص ٢٣، ١٠٨.

وعندما حصلت الضجة حول «جيرمي ثورب» زعيم حزب الأحرار البريطاني حول علاقته الشاذة بالشاب «نورمان سكوت» لم يكن من هذا الزعيم السياسي إلاّ أن احتج بأن القانون البريطاني الجديد يحميه من المؤاخذة على هذا الفعل ولو كانت العلاقة تعود إلى خمسة عشر عاماً من قبل[1]، بل وقف الشاب في المحكمة يقول: (إنهم يضطهدوني بسبب علاقتي الجنسية مع جيرمي ثورب)[2] وهو يعني الصحافة التي اتخذت من الحدث مجالاً للإثارة والتسلية وتصفية الحسابات السياسية.

ولم تعد هذه الأمور تشكل في حس الغربي أي مراجعة أو مؤاخذة أخلاقية، فقد أضحى عدد الشواذ في بريطانيا وحدها حسب إحصائيات عام ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣ خمسة ملايين شاذ[3].

هذه بعض الأمثلة على بعض آثار نظرية فرويد، وسوف أذكر المزيد من ذلك بعد ذكر بعض الآراء الفلسفية والنظرية في قضية الأخلاقي، والتي كان ذات تأثير في هذا الميدان وإن كانت دون تأثير ماركس وفرويد، وسوف أجمل ذكر هذه المذاهب والآراء، في النقطة التالية:

ثالثاً: جملة مذاهب في الأخلاق تعود إلى الشجرة المادية المترعرة في الغرب:

أ ـ المذهب العقلي في الأخلاق، ويستند أصحابه إلى العقل في تقرير الخير وقواعد السلوك وأشهر أصحابه سبينوزا وكانط[4] حيث يرى هذا

---

(١) المصدر السابق: ص ١٠٦ ـ ١٠٨.

(٢) المصدر السابق: ص ١٠٧.

(٣) انظر: المصدر السابق: ص ١٠٦.

(٤) عمانوئيل كانط، ولد عام ١١٣٦ هـ/١٧٢٤ م، وتوفي ١٢١٨ هـ/١٨٠٤ م، أثر في عصره وشطر الفلسفة الحديثة إلى شطرين ما قبل كانط وما بعده، وسيطرت فلسفته على القرن التاسع عشر برمته، تقوم فلسفته على النزعة العقلية ثم النزعة التجريبية التي أخذها عن هيوم، وتوصف فلسفته بأنها مثالية نقدية، يرى أن العقل دائماً هو مصدر الحقائق وشكك في المعرفة الميتافيزيقية. انظر: الموسوعة الفلسفية: ص ٣٧٢، ومعجم الفلاسفة: ص ٤٧٤.

الأخير أن القانون الخلقي ينبع من العقل وحده لا عن ابتغاء مرضاة أحد، أو تحصيل منفعة، فإذا قرر العقل ذلك وجب اتجاه الإرادة نحوه، ومن ثم يصبح القانون الخلقي ضرورة ويستحيل أمراً يقيد الإرادة ويلزمها، ومن ثم يصبح أمراً كلياً مطلقاً، ويرى أنه لا ارتباط بين الأخلاق والإيمان بالله تعالى؛ لأنه يزعم أن العقل النظري قد عجز عن التدليل على وجوده، وإن استلزم العقل العملي افتراضه، ومع ذلك فإنه يرى أن الدين لم يسبق الأخلاق ولم يحددها، وأن الأخلاق، على العكس، هي التي أدت إلى الدين[1].

وعلى الرغم من أن نظرية كانط هذه تعد أمثل من النظريات المادية البحتة أو الحيوانية الصرفة إلاّ أنها لاتبعد كثيراً عن المجال المادي، وإن عد الفلاسفة نظرية كانط من الفلسفات والنظريات المثالية، إلاّ أن ذلك لايبعدها عن الإطار المادي، وذلك حين استبعد الإيمان بالله تعالى والدين عن الأخلاق، أو قلل من شأنهما.

ولولا الله تعالى ما استند قانون الأخلاق إلى أساس متين، ولولا الدين ما استقامت الأسس الأخلاقية ولا استمرت، ويُمكن القول بأن حاجة الإنسان في الاحتفاظ بأخلاقه إلى وجود الله ضرورة لأنه بيده وحده مكافأته عليها حيث لا مكافيء، وهذا ما لايزال يقوله أنصار الدين من أنه لا أخلاق معولاً عليها من غير دين[2].

أمَّا سبينوزا اليهودي الهولندي فقد سبق الحديث عن فلسفته، ويهوديته في مواضع من هذا البحث[3].

---

(١) انظر: الموسوعة الفلسفية لعبدالمنعم الحفني: ص ٣١، ٣٧٥ ـ ٣٧٧، والأخلاق عند كانت لعبدالرحمن بدوي، وفلسفة الدين والتربية عند كانت له.

(٢) انظر: موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين ٣/ ٦٩ لمصطفى صبري، وقد ناقش ـ رحمه الله ـ كانط في كلامه عن وجود الله وعن قضية الأخلاق من: ص ٦٥ إلى: ص ٨٣.

(٣) انظر: ص ١٠٥٨، ٢٠٨٨ من هذا الكتاب.

ب ـ المذهب الطبيعي في الأخلاق، وسمي طبيعياً لأن أصحابه يحددون معنى الخير بمفهوم طبيعي ـ حسب قولهم ـ فكل ما يؤدي إلى لذة أو منفعة للناس فهو خير[1]، ومن هذا المذهب انبثقت الفلسفة المعاصرة المسماة بـ«البرجماتية»[2]، والتي أثرت في الأخلاق والسياسة وعظم تأثيرها في السلوك السياسي المعاصر وخاصة في أمريكا التي تقوم سياستها على البرجماتية، أي الذرائعية، ويتبعها في ذلك ـ تقليداً وانهزاماً ـ كثير من الدائرين في فلكها، فالأخلاق عند البرجماتيين هي التي تكون لها نتائج طيبة، وهي التي توصل إلى المراد، بغض النظر عن نوعية هذه الأخلاق، وقد تأثرت هذه الفلسفة البرجماتية الأمريكية بنظريات أحد أعلام البرجماتية[3] الذي كان بدوره متأثراً بنظرية داروين؛ ولذلك كانت بهذه المثابة من المادية، وعدم الثبات، فالمعيار عندهم للحقيقة والخلق والقيم هو نجاح الأفكار والوصول إلى الأهداف، بل وصف هذا البرغماتي المؤسس العمل الصادق بأنه المفيد[4].

وعلى هذا فلا إيمان عند البرجماتيين بأخلاق ولا قيم، بل هي عندهم نسبية وغير ثابتة، ومقياس نجاح كل شيء الوصول إلى نتيجة.

وتوجه الغرب بقيادة أمريكا اليوم إلى هذه الفلسفة بكليته، وأقام

---

(١) انظر: المعجم الفلسفي لعبدالمنعم الحنفي: ص ٣١.

(٢) البرجماتية: مذهب فلسفي، يقيس صدق القضية بنتائجها العملية، فليس هنالك معرفة أولية في العقل تستنبط منها نتائج صحيحة، بغض النظر عن جانبها التطبيقي بل الأمر كله مرهون بنتائج التجربة الفعلية العملية التي تحل للإنسان مشكلاته، ولما كان تقدم العلم يغير ـ عندهم ـ من صدق القضايا، فالصالح في ظروف سابقة يصبح غير صالح في الظروف الراهنة كان «الحق» أمراً نسبياً يقاس إلى زمن معين ومكان معين ومرحلة من التقدم العلمي معينة، وأشهر أعلام البرجماتية تشاركس بيرس، ووليام جيمس وجون ديوي وفرديناد شيلر. انظر: الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٣٣٥، ٨٤١، والمعجم الفلسفي: ص ٣٢، والموسوعة الفلسفية للحفني: ص ٩٣ مدخل إلى الفلسفة المعاصرة: ص ٨٥ ـ ١٣٠.

(٣) هو جون ديوي. انظر: الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٨٤١ ـ ٨٤٢.

(٤) انظر: المعجم الفلسفي: ص ٩٣. والمقصود جون ديوي.

الأعراف السياسية والأخلاقية على نوع من التهذيب النفعي الذرائعي، بعيداً عن التهذيب الخلقي الإنساني؛ لأن الأخلاق عندهم ليست أصيلة ولا مستقرة، بل هي متغيرة حسب المصلحة؛ ولأن طبيعة الغرب طبيعة مادية نفعية، وعلى ذلك ترتبت أفكاره ومشاعره وسلوكياته، وانطلق في دركات الانحطاط الخلقي بصراحة حمقاء، وألقى قناع الحياء، بل راح ينظّر لهذا الانحدار ويفلسف له، ويسعى في ترسيخه واقعاً عملياً بين الناس في كل الأرض، وما إعلام الشهوات الهائجة، وسياسة الظلم الأهوج، والمكاييل المزدوجة التي تمارسها أمريكا والدول الأوروبية إلاّ نماذج لهذه البرغماتية المادية المبرأة من كل إنسانية، والمشبعة بكل ألوان النتن والسخف والجهالات.

ويقول بعض المنبهرين أن هذه السياسة قد نجحت في السيطرة، ونجحت في تحرير الإنسان والرقي به، واستمرارها دليل نجاحها.

وهذه الفكرة من فرعيات المذهب البرجماتي، فليس الأخلاقيات الأمريكية البرجماتية بذات نجاح في ذاتها، ومايتصوره المنهزمون نجاحاً في الواقع ليس إلاّ نتاجاً لقوة السيطرة، وتحكم القوى، وتغلب القوي، وإلاّ فما قيمة فلسفة أو نظرية أو ممارسة تنكر كل القيم العليا وتؤمن بالمادية النفعية، وتنكر إنسانية الإنسان، وتصهره في بوتقة الذرائعية، وتنهيه في المستنقع الجنسي الإباحي وتظلمه وتسلب حقوقه، وتتلاعب بإمكانياته وقدراته، من أجل الوصول بها إلى خدمة ومنفعة ثلة متحكمة من اليهود ومطاياهم؟.

والمتأمل بعين البصيرة المتفتحة في حال الإنسان هناك، وفي وقائع الأحداث اليومية، والجرائم الخلقية وفي عدد زوار العيادات النفسية، وفي إحصائيات الانتحار والمخدرات والسطو والفتك والاغتصاب يوقن إلى أي مدى أثرت هذه الفلسفة البرغماتية وما ظاهرها من فرويدية وداروينية.

أمَّا النظر في تطبيقات الأخلاق البرغماتية في سياسة التعامل مع الدول والشعوب الأخرى فإنه يدرك لا محالة ـ إن كان له بصيرة ـ

الروح اليهودية في التصرفات والمواقف والعلاقات، روح العلو والفساد، كما أخبر سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤﴾[1]، وقوله جلّ شأنه في شأنهم: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ﴾[2] يجد أخلاقيات السياسة الظالمة المستعلية، المجاهرة بظلمها وعلوها وفسادها، ويجد أنه ليست لديهم مشاركة وجدانية لغيرهم في سعادة أو ألم؛ لأنهم أنانيون مفرطون في أنانياتهم، نفعيون يسعون فيما فيه سعادة أنفسهم، وتحقيق مصلحتهم، ولو كان ذلك على جثث الأبرياء أو من خلال الخوض في وحول دمائهم أو في غابات أشلائهم!!.

جـ ـ مذهب العاطفة في الأخلاق، ويمجد أصحاب هذا المذهب العاطفة على صورتها الحيوية أو على صورة التعاطف والمحبة، ويجعلون أساس الأخلاق ما تستحسنه أو تميل إليه[3].

د ـ مذهب الإرادة الأخلاقية، ومخترعه «نيتشه» ويصف القائلون به الخير بأنه كل ما يعلي في الإنسان شعوره بالقوة وإرادة القوة، والشر بأنه كل ما يصدر عن ضعف، وقد كان هذا المذهب سابقاً على فرويد، ولذلك لم يخف فرويد إعجابه بنيتشه رغم عداء نيتشه لليهود، وذلك لما في كتب نيتشه وفلسفته من نقد للدين والقيم والتقاليد والأخلاق، بل وما فيها من هدم وزعزعة لهذه القضايا[4].

وعلى فلسفة نيتشه هذه قامت النازية في ألمانيا وفعلت بالعالم ما فعلت، وهي تطبيق أخلاقي عسكري وسياسي لفلسفة إرادة القوة[5].

---

(١) الآية ٤ من سورة الإسراء.

(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة.

(٣) انظر: المعجم الفلسفي لعبدالمنعم الحفني: ص ٣١ ومن أصحاب هذا المذهب آدم شميث وشوبنهاور.

(٤) انظر: المصدر السابق: ص ٣١، ٤٨٩ ـ ٤٩٠.

(٥) انظر: الموسوعة السياسة ٦/ ٥٤٥.

هذه بعض النظريات الفلسفية الأخلاقية التي كان لها التأثير البالغ في الحياة الغربية المعاصرة، سواء في مجال الأفكار والمفاهيم ـ وهي الأساس ـ أو في مجال التطبيق والممارسة، بيد أن أهم محاور الأخلاق هناك تعود إلى:

١ ـ القول بنسبية الأخلاق، وأنه ليس لها حقائق ثابتة، بل هي خاضعة للتبدل والتغير.

٢ ـ القول بأن الإنسان أو الظروف المحيطة به هي مصدر الأخلاق والقيم.

٣ ـ فصل الأخلاق عن الدين.

٤ ـ حرية الإنسان لاتتم إلاّ بالتخلي عن العوائق وهي الدين والأخلاق.

وبعد هذا، سوف أذكر شيئاً من تأثيرات هذه الفلسفات على أعمال وتصرفات الإنسان الغربي، وسوف أورد أولاً نَماذج من حياة مفكريهم وفلاسفتهم وأدبائهم ومنظري الأخلاق عندهم!!، ولنبدأ بذكر المبدعين الذين هم قدوة الأدباء والفنانين المنهزمين من أبناء البلاد الإسلامية.

جاء في كتاب «الجنس والنفس في الحياة الإنسانية» في فصل عن الشذوذ الجنسي، عنوان «الجنسية المثلية[1] والإبداع» قال فيه: (هنالك مايسترعي الانتباه والملاحظة في أن ممارسة الجنسية المثلية بدرجة أو أخرى تكثر في المجال الفني والإبداعي، ولايعرف تماماً فيما إذا كان تفسير ذلك يعود إلى أسس بايولوجية تكمن وراء الاتجاهين الجنسي والإبداعي، أو أن طبيعة الظروف الحياتية لبعض المبدعين هي التي تساعد على نشوء ذلك، ومع أن من المستحيل على أحد أن يعطي نسبة وقوع الجنسية المثلية في حياة المبدعين، إلاّ أن هنالك الكثيرين من المبدعين في مجال أو آخر ممن

---

(١) معنى الجنسية المثلية أن يواقع الرجل الرجل أو المرأة المرأة، وهو المعروف عند المسلمين بمسمى اللواط والسحاق.

عرفوا نزعتهم الجنسية المثلية، ومن هؤلاء الرسام والنحات مايكل أنجلو، وليوناردودفينشي والموسيقار شايكوفسكي، وواجنر، والكتاب: فلوبير وأوسكار وايلد، وجين كوكتو، والشاعر فيرلان، وغيرهم كثيرون ممن مارسوا الجنسية المثلية بصورة حصرية أو غالبة، ونحن لانستطيع بيان الأثر لهذه الممارسة على أعمالهم الإبداعية، وإن كان هنالك ما يسوغ النظرية التي تفسر مقدرة بعض المبدعين على وصف دقائق الحياة الشعورية للأنثى، كما هو الحال في وصف فلوبير لمدام بوفاري، على أساس تمتعهم بميول جنسيته ثنائية، وقد يجد الباحث مايسند هذه النظرية في دراسته للأعمال الإبداعية عند بعض المبدعين)[1].

ثم أضاف في الهامش: (وقد لوحظ أن بعض ممارسي الجنسية المثلية في بعض المجتمعات يتباهون بممارستهم ويتفاخرون علناً بها وبأنهم ينتمون إلى فئة مختارة تتميز ليس بانحرافهم في الحب وإنّما بشخصيتهم المرهفة الإحساس والإبداعية في الفنون، كما لوحظ أن الكثيرين من الذين يعرفون بجنسيتهم المثلية في هذه المجتمعات يمارسون أعمالاً فنية أو مسرحية)[1].

وقد شرح كولن ولسن[2] بعض الدوافع النفسية والإبداعية في قضية الشذوذ الجنسي وأورد في كتابه «أصول الدافع الجنسي» تفصيلاً مشيناً وقذراً للواط عند بعض الكتاب والأدباء الغربيين ومقاطع من كلامهم في هذه القضية وغيرها من أمور الدعارة وأحوال الشاذين والمومسات[3].

---

(١) الجنس والنفس في الحياة الإنسانية للدكتور علي كمال: ص ٢٥٣.

(٢) كولن ولسن، كاتب وفيلسوف وجودي إنجليزي، اتخذ الوجودية الجديدة مذهباً له، سجل وقائع حياته في كتابه رحلة نحو البداية، وكتب مجموعة كتب فلسفية ودراسات أدبية نقدية، وروايات من أشهرها: الرواية القذرة «ضياع في سوهو»، وله سقوط الحضارة واللامنتمي ومابعد اللامنتمي، وغيرها، مارس وجوديته في الجنس والمخدرات والشذوذ والبغاء الجماعي، وغير ذلك كما ذكر ذلك عن نفسه.

(٣) انظر: أصول الدافع الجنسي لكولن ولسن: ص ٣٠ ـ ٣٥، وكان كلامه عن لورنس واللواط، وتحليلات ولسون نايت وهيرشفيلد للاتجاه اللوطي عند لورنس، ثم يذكر بول دي ريفر وكتابه المجرم الجنسي، ويذكر مجموعة من القصص والروايات الشاذة=

والكتاب كله مليء بالشواهد والأمثلة الكثيرة على أنواع اللواط وزنا المحارم والشذوذ والدعارة والانحراف عند الكتاب والأدباء والروائيين والشعراء الغربيين التي حكوها أو مارسوها.

ولم نذهب مع كولن ولسن في دراسته لروايات وكتب الآخرين؟ وروايته «ضياع في سوهو» أكبر شاهد على مقدار الانحلال والفوضى الخلقية، سواء في الجانب التأليفي الكتابي الإبداعي ـ كما يحلو لهم أن يقولوا ـ أو في الجانب الواقعي حيث يصف ولسن حي سوهو الشهير في لندن، والذي قال عنه: (كان حي سوهو قد خيب أملي، كنت أتوقع أن أجد فيه نوعاً مثالياً من حرية الروح)[1].

هذا الحي الذي خيب الأمل الوجودي لدى ولسن، أي أنه لم يجد فيه الأشباع كما كان يطمح، وصفه في روايته ضياع في سوهو أدق مايكون الوصف، الحياة الشهوانية الحيوانية في صورة حقيقية دقيقة واضحة، ووصف التشرد والضياع والتفاهة والعربدة والشذوذ والإجرام والإباحية الجنسية، وغير ذلك من الحياة التي يعيشها أهل سوهو، حيث تمثل هذه الرواية وهذا الحي الصورة الصارخة عن الحياة الغربية، المرآة العاكسة للموت الإنساني والضياع البشري، للأجساد الهائمة عطشاً في أودية الجنس كل أنواع الجنس، أجساد صارخة بالشهوة والشهوة فقط، نموذج للحرية الفرويدية ولانسحاق الأخلاق والقيم والانسلاخ من كل إنسانية لأجل الوصول إلى لا شيء...، لا عقيدة ولا خلق ولا ضوابط ولا قيم ولا حتى تقاليد متوارثة عن الأقدمين، لا طموح ولا آفاق ولا أشواق ولا أهمية، سوى تلك الآفاق الجنونية التي تتسلل إلى أدمغتهم من خلال سجائر الأفيون.

الرواية شاهد موت للإنسانية في الغرب، ودليل عدمه واضمحلاله

= مثل يوليس وبئر الوحدة، ولوليتا وعشيق الليدي شاترلي التي اقتبس من انتشارها أنهم على استعداد لتقبل النظرة القائلة بأن العملية الجنسية الواردة في هذه الكتب ليست غير طبيعية كلية، ثم يذكر بعد ذلك الرواية الجنسية العلقم ومابعد لانجوس ولسون.

(١) رحلة نحو البداية: ص ٢١٢.

وتلاشيه في بحيرات النتن، في الجنس والخمر والحشيش، في التفاهة والعربدة والمجون والسقوط والضياع[1]، وصدق الله القائل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[2].

أمَّا كتابه «رحلة نحو البداية» الذي خصصه للحديث عن نفسه وفكره وحياته وفلسفته في الحياة، لا باعتباره مجرد كاتب وروائي بل كما قال مترجم هذه الرواية أن ويلسون اكتشف أنه (منقذ الفلسفة الغربية من الأفلاس)[3]، فما هي حياته التي وصفها في هذا الكتاب، إنها قصة حياة الضياع والتشرد والتيه والانحلال، حياة التناقض والتشاكس والعبثية والضنك، سواء كان ذلك في وصفه لحياته أو لحياة أمثاله من الكتاب والفلاسفة، أو لحياة بعض عامة الناس.

وسوف أذكر بعض مفردات هذه الحياة مشيراً إلى صفحاتها في الهامش: الضجر والفراغ، اللامبالاة، الافتقار للهدف، اللواط الذي وقع به وهو صغير، وسمى الفصل الرابع «العدمية» وبدأه بذكر إحساسه العميق بعبثية الحياة، وكراهته للجنس البشري، وتفكيره في قتل نفسه، ووصفه للدياثة، وكتابته لرواية عن الشذوذ الجنسي على ضوء فلسفة فرويد، وإلحاده، وعبادته للشيطان، ووصفه للشذوذ الجنسي بين أفراد الجيش البريطاني، وأثر الدعايات التجارية الجنسية في إثارة الجنس لدى الشباب، وتصويره لبعض أعماله الداعرة، وعلاقته بأحد الشاذين جنسياً، وشرحه عن المقاصد الجنسية والنفسية والخلقية لروايته طقوس في الظلام، وتصريحه بأن الحضارة تجعلهم خانعين كالأغنام ثم تقتل أرواحهم من الجوع والجدب، وانضمامه إلى مجموعة الفوضويين في لندن، وذكره علاقته الداعرة مع فتاة شيوعية والجنس القذر معها وإصابته بالعجز الجنسي، ووصفه لحياة التشاكس

---

(١) انظر: رواية ضياع في سوهو ترجمة يوسف شرور وعمر يمق، وكتاب أوروبا إلى أين؟ : ص ٥٦ ـ ٥٩ ليوسف فرنسيس.

(٢) الآية ١٢ من سورة محمد.

(٣) رحلة نحو البداية: ص ٣، والقول للمترجم سامي خشبة.

والضنك الذي يعيشه وشعوره بالتفاهة وسعيه مرة أخرى إلى الانتحار، ووصفه لعلاقة جنسية انتهازية مع فتاة متشردة بلا أسرة ولا منزل ولا نقود، وذكره لمجموعة من الكتاب الغربيين ونماذج من حياتهم الفاسدة المنحرفة المنحطة، وخصص الفصل الثالث عشر للحديث عن الجنس، وفيه ذكر نماذج من دعارته ومطاردته للنساء، وتحبيذه لحياة الدعارة، وذكره لتجربة تعاطيه لمخدر المسكالين وكيف وصف التجربة في كتاب مابعد اللامنتمي، وذكره لحالات استغواء الأساتذة لتلميذاتهم الصغيرات وعمل الفاحشة فيهن[1].

أمَّا أحاديثه عن الجنس وأوصافه وأحواله وممارساته المتنوعة فأكثر من إمكانية إحصائية هنا، وفي هذا الكتاب أبلغ الشواهد على الحياة الغربية الخلية من القيم والأخلاق ممثلة في سلوك منظر وفيلسوف الشباب في بريطانيا وأمريكا.

ومن نماذج الانحرافات الخلقية والهبوط والعدمية ما كتبه اليساري الإيطالي محبوب الحداثيين العرب «ألبرتو مورافيا»[2] الذي تخصص في وصف الجنس بأشكاله وألوانه البهيمية.

وقد وصف بأنه (جعل من نفسه شاهداً على قضايا عصره...، وطمح أن يصبح ضمير عصره والشاهد على مشكلاته، وقد دفعه هذا الطموح على الرغم من النجاحات الباهرة التي حققتها أعماله الروائية ويخص

---

(١) انظر: رحلة البداية: ص ٩، ١٥، ١٦، ٣٧، ٦٤، ٧٤، ٧٥، ٨٠، ٨٣، ٨٦، ٨٩ و ٩٠، ٩٩، ١٠٨، ١٢٢ ـ ١٢٣، ١٢٦، ١٣٨، ١٦٠ و ١٦٨ ـ ١٧١ و ١٧٨، ١٧٨، ١٩٤ ـ ١٩٧ و ٢٠١، ٢١٧ ـ ٢١٨، ٢٢٥ ـ ٢٢٦، ٢٧٢، ٣٦١ ـ ٣٦٣، ٣٨٠ ـ ٤٢٥، ٣٩٥، ٤٠٢، ٤١٥، ٤١٧. الفقرات المفصولة بواو مقلوبة تجد رقم صفحاتها هنا، أمَّا إذا كانت الصفحات معطوفة على بعضها بالواو أو بعلامة (ـ) فهذا تابع للفقرة نفسها وليس لما يليها.

(٢) ألبرتومورافيا كاتب وروائي إيطالي، ولد في روما ١٩٠٧ م، كتب مجموعة من الروايات، وانتمى للحزب الشيوعي الإيطالي وسعى في ترشيح نفسه للبرلمان، وقد توفي في السنوات القليلة الماضية. انظر: الموسوعة السياسة ٦/٤١٧ ـ ٤١٨.

من بينها بالذكر السأم، والملتزم، واللامبالون، والرومانية الحسناء، والحب الزوجي، وأنا وهو، والانتباه، والاحتقار، دفعه إلى ممارسة العمل الصحفي وإلى كتابة تحقيقات مطولة في موضوعات تتمحور حول معاناة الإنسان المعاصر. . .)[١].

هذا المديح كتبه عنه أحد العرب المعجبين!!، وإذا أخذنا روايته «أنا وهو» وجدناها أبشع مثال عن الانحدار الخلقي الذي وصل إليه الغرب، فهو يعني نفسه بلفظ «أنا» ويعني فرجه بلفظ «هو» وتدور الرواية حول تأثير الفرج على العقل والتصرف والسلوك، بل الرواية تدل كلها على أن المتحكم في الإنسان والمتصرف في مشاعره وأحاسيسه وأعماله هو الفرج[٢]، وهي باختصار تطبيق روائي لنظرية فرويد.

أمَّا روايته الانتباه فتدور حول قصة صحفي يمل من زوجته ومن معاشرتها جنسياً، فيهجرها ويسافر في رحلات طويلة، وحين عاد من سفره وجد زوجته بغياً تدير مواعيد البغاء في منزله، ويكتشف أن ابنتها منه بالزنى قد كبرت وأصبحت جميلة فيقع في غرامها ويمارس معها الزنى[٣].

وله مجموعات قصصية يدور بعضها حول الجنس والزنى والفساد الخلقي[٤].

وإذا نظرنا إلى سلوكيات أخرى من سلوكيات أصحاب الاتجاهات الحديثة والفلسفات المادية وماذا آلوا إليه وجدنا ـ مثلاً ـ أن ماركس انتحرت زوجته وثلاث بنات له، وكانت إحداهن تمارس الدعارة في الشوارع، وهو نفسه مات ميتة غامضة.

---

(١) الموسوعة السياسية ٦/٤١٨.

(٢) انظر: روايته «أنا وهو» ترجمة نبيل المهايني

(٣) انظر: روايته «الانتباه» ترجمة جورج طرابيشي.

(٤) انظر: مجموعته: «تسير نائمة، محرومة من الغريزة، مخطوفة، متشردة، الدولاب» ترجمة نهاد محرم، والمجموعة الأخرى: «حياة أخرى، لنلعب لعبة معدنية، جاهلة، بنت طيبة، شهيرة»، ترجمة نهاد محرم.

وفي كتاب «نهاية عمالقة في حضارة الغرب» إشارات عديدة لحياة ماركس الهابطة، ومن ذلك ما كتبته الأستاذة الجامعية «فرانسواز ليفي» تحت عنوان «كارل ماركس تاريخ برجوازي ألماني» ففي هذا الكتاب ص ٣٥٧ اتهام له بالتجسس وعلاقته المشبوهة بالكولونيل «بانجيا» الذي يعمل لحساب الحكومة الروسية، وفي ص ١٧٦ أنه كان يعيش في حي الباغيات «سوهو» في لندن سنة ١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠ م، وثبت في سلوكه الاختلاس وسرقة أموال الفقراء، وتزوج البارونة جيني المنتسبة إلى أعرق العائلات البروسية والتي أنجبت منه العديد من الأطفال، وكان يعايشها في منزلها الخادمة هيلين التي أنجبت من ماركس عن طريق السفاح، وقد قالت زوجة ماركس: «لو أنه خير لي أن أعيش مرة أخرى لما تزوجت»، أمّا «اليانور» و«لورا» بنتا ماركس فقد انتحرتا، وإحداهما اختارت لذلك مع زوجها عيد رأس السنة[١].

وأمّا نيتشه فقد عاش مجنوناً ومات في مصحة عقلية[٢].

وأمّا فرويد فقد مات مصاباً بالعصاب، وكان مدمن مخدرات، حيث كان جميع أصدقائه يعرفون أنه كان يتعاطى الكوكايين لمحاربة الخجل واكتساب الشجاعة والثقة، بل كان ينصح مرضاه بتعاطيه وزعم أنه دواء له مفعول سحري، ولما أدمن بعض مرضاه عليه وهوجم بسبب ذلك سنة ١٣٠٤هـ ١٨٨٧م قال بأن الكوكايين والخمر والمورفين ليست في ذاتها سبباً للإدمان، وإنّما المدمن شخص ضعيف الإرادة مؤهل للتعود والإدمان.

وكان فرويد كثير التطير والتشاؤم وخاصة من اليوم ١٧ في الشهر، وسيطرت عليه فكرة أنه سيموت في عمر ٦٢ سنة وبالتحديد سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م وحينما مر عليه العام دون أن يموت قال بأنه لم يعد يثق في الخوارق ولايؤمن بها.

يُمكن هنا ملاحظة الموضوعية وعمق الاستدلال!!!.

---

(١) انظر: العقلانية هداية أم غواية: ص ٢٣، ونهاية عمالقة في حضارة الغرب لرشدي فكار: ص ٦٥ ـ ٧١.

(٢) انظر: ص ١٢١ من هذا الكتاب.

وقد كان فرويد ملتزماً في زواجه بيهوديته بل كان يرى أنه كان يقوم في جمعية التحليل النفسي بدور موسى التحليل النفسي وليس موسى التوراة، وكان يخاطب أحد زملائه قائلاً: «إذا كنت أنا موسى فأنت المسيح لاستعادة أرض الميعاد»، ومن سيرته أنه فكر بالانتحار مرات، وكان مدمن تدخين وكان يقول: «لا حياة بدون تدخين»، وأخبر عنه ارنست جونس أقرب المقربين إليه أن كل أنواع المعاناة والعوارض التي كانت في حياته آتية من «الذهانية العصابية التي كان يعاني منها فرويد»، وبعد سرطان الذقن الذي أصابه، وانبعثت منه الروائح الكريهة قال لطبيبه: «والآن كل شيء يعني الآلام المتصلة، ولم يعد للحياة أي معنى يستحق الذكر» وطلب منه أن يضع حداً لآلامه بمضاعفة جرعة المورفين حتى يموت، وبالفعل حقنه الطبيب بجرعات كبيرة قاتله حتى هلك، وأُحرق بناء على وصيته ووضع رماده في مزهرية قديمة، وهكذا أعلن عابد الحياة المنبهر بها أنه لم يعد لها أي قيمة، وانهارت أمام ناظره معبودته الدنيا التي كان يعتبرها الأولى والأخيرة[1].

وسارتر قال على فراش الموت: ائتوني بقس، وقال: لقد قادتني فلسفتي إلى الهزيمة[2].

ولوي ألتوسير الفيلسوف البنيوي الماركسي الفرنسي، شارح كتب ماركس، وصاحب المنهج التجديدي في الماركسية والذي وصفه رئيس فرنسا بأنه «عقل فرنسا» ذبح زوجته ونقل للمصحات العقلية، وبقي فيها حتى توفي سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠ م[3].

والقاص الأمريكي أرنست همنغواي صاحب الرواية الشهيرة الشيخ والبحر، انتحر سنة ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١ م[4].

---

(١) انظر: نهاية عمالقة: ص ١٠٤ ـ ١١٨، والعقلانية هداية أم غواية ؟: ص ٢١.

(٢) انظر: المصدر السابق: ص ٢٤.

(٣) انظر: الموسوعة السياسية ١/ ٢٦٠، ومعجم الفلاسفة: ص ٧٩ ـ ٨١، والعقلانية هداية أم غواية: ص ٢٣، ومجلة الناقد ٩/ ١٧.

(٤) انظر: العلمانية لسفر الحوالي: ص ٤٨٣. وممن انتحر من العرب رجاء عليش الذي أطلق على نفسه الرصاص. انظر: مجلة الناقد ١/ ٧١، وكذلك خليل حاوي.

هذه حياة قدوات المنبهرين والمخدوعين من المستغربين الداعين إلى محاكاة الغرب وتقليده والسير على منواله واقتفاء آثاره في الفكر والأخلاق والسلوك.

أمَّا الأمثلة من الحياة العامة الغربية فهي كثيرة لايُمكن استقصاؤها؛ لأنه لايُمكن جمع البحر في فنجان[١]، ولكن نستدل ببعض الشواهد الدالة على مدى الانحراف الأخلاقي والانهيار السلوكي والجرائم وأنواع الانحطاط في حياة الغربيين:

١ ـ خمسة ملايين شاذ جنسياً في بريطانيا[٢].

٢ ـ جاء في كتاب «الثورة الجنسية» لبيتريم ساروكين مدير مركز الأبحاث بجامعة هارفارد ما نصه: (إننا محاصرون من جميع الجهات بتيار مطرد من الجنس يغرق كل غرفة من بناء ثقافتنا وكل قطاع من حياتنا العامة، وهذه الثورة التي تعبر بنا آخذة في تغيير حياة كل رجل وكل امرأة في أمريكا أكثر من أي ثورة أخرى في هذا العصر)[٣].

٣ ـ صرح جون كيشلر أحد علماء النفس الأمريكيين في شيكاغوا أن ٩٠٪ من الأمريكيات مصابات بالبرود الجنسي، وأن ٤٠٪ من الرجال مصابون بالعقم، وأن الإعلانات التي تعتمد على صور الفتيات العارية هي السبب في هبوط المستوى الجنسي للشعب الأمريكي[٤].

٤ ـ نشرت مجلة الجمعية الطبية البريطانية مقالاً بعنوان «الحمل عند فتيات المدارس» جاء فيه: أن بنات المدارس غير المتزوجات اللواتي يحملن وهن في سن يتراوح بين ١٦ و١٩ سنة أصبحن مشكلة تواجه الهيئات الطبية والاجتماعية في بريطانيا، كما أنهن يسببن المشاكل

---

(١) انظر: كتاب أوروبا إلى أين؟ ليوسف فرنسيس.
(٢) المجتمع العاري: ص ١٠٦ نقلاً عن مجلة الحوادث اللبنانية.
(٣) المصدر السابق: ص ٢١.
(٤) المصدر السابق: ص ٢٢.

لأنفسهن ولأهلهن، ولكن مع ذلك قسم منهن يستطعن العمل وكسب عيشهن ومنهن من يتزوجن بمن حملن منهم، إلاّ أن المشكلة الحقيقية تأتي عند التلميذات اللواتي يحملن دون السادسة عشرة، وذلك لكونهن لايستطعن الزواج ولا العمل، وهنا تأتي مشكل الأهل أيضاً الذين عليهم تدبير أمرهن، لقد بلغ عدد التلميذات اللواتي وضعن أطفالهن وهن دون السادسة عشرة حوالي «٢٠٠» فتاة في منتصف الخمسينات في إنكلترا وويلز، ولكن هذا العدد ازداد بشكل مضطرد خلال العشرين سنة الأخيرة فبلغ «١٧٤٣» في عام ١٩٧٣ م، وفي نفس العام بلغت الإجهاضات التي تمت بمعرفة القانون «٣٠٩٠» في فتيات في نفس الأعمار مما رفع عدد حالات الحمل غير الشرعية إلى «٤٨٣٣» وفي عام ١٩٧٥م بلغ عدد التلميذات اللواتي وضعن أطفالهن بدون زواج إلى «٣٥٢٦» إلاّ أن نسبة الإجهاضات انخفضت بنسبة ٢,٥٪[١].

٥ ـ في عدد واحد من صحيفة «فرانس سوار» جاء ما يلي: في أربع وعشرين ساعة مضت حدث ما يأتي:

ـ في مدينة ديجون، على كتف باريس، ثمانية أولاد بينهم ست فتيات يتولون بسادية عجيبة تعذيب طفل في الثالثة عشرة من عمره، فبعدما أوثقوا يديه ورجليه راحوا يضربونه ويوخزونه بالإبر وينتفون شعيرات مّا من جسده النحيل، ولايكتفون بذلك كله بل أصلوا الحديد على النار وكووا له ظهره بعلامات ط.

ـ في «ليل» خطفت سيدة من مطعم شعبي كي تمارس الجنس ـ رغم إرادتها ـ مع امرأة في مثل سنها.

ـ في «ليل» أيضاً الرجل المسن المتقاعد جورج فالون قتل بيده ثلاثة صبية يتراوح أعمارهم بين الخامسة عشرة والعشرين.

ـ في «الهافر» اعتقل البحار «بون زينفر» لاعتدائه على أولاد صغار.

---

(١) المصدر السابق: ص ٤٦.

ـ في المترو بين محطتي «سان ميشال» و«كلاركي» اغتُصبت فتاة لا تتعدى الثالثة عشرة من العمر[١].

ونشرت الصحيفة في العدد نفسه إحصائية كاملة للدعاوى التي نظرت فيها محكمة «السين» في ذلك اليوم وهي: ٢٣٥ حالة ضرب وجرح حتى الموت، ٣٥٨ تعذيب أولاد، ١٠٠٧ اغتصاب، ٢١١٠ قتل ٣٨٨ سرقة بدون مبرر، ٤١ سرقة موصوفة[٢].

ثم أضافت الصحيفة قائلة: إنه في اليوم الواحد تغتصب ١٣٠ امرأة أو فتاة، ويقتل ١٩ شخصاً ويعذب ٣٠ شخصاً كل دقيقتين، وكل ٢٠ ثانية تحدث سرقة، وكل ٤ دقائق هناك عملية اختلاس، وكل ربع ساعة هناك سرقة سيارة، وكل ٤ دقائق يخلع بيت[٣].

٦ ـ وفي مقابلات أجراها مراسل مجلة الحوادث البيروتية مع مجموعة من الشباب الباريسي في الحي اللاتيني أجابه أحدهم قائلاً: (نحن كالكومبيوتر نعمل في خط وخطة واحدة: على الذين أعدوا لنا الحياة، وبرمجوها لنا أن يحاسبوا أنفسهم عنا، نحن تعساء مرصودون بوجه الحياة شراً كانت أم خيراً، أمّا السجن فلا يخيفنا بل يقتل الإحساس ويقوي روح العنف فينا، والثالث يعلق: ما دامت الحياة قصيرة تافهة مصطنعة فلم لانسرع؟ لم لانقتل أو نسرق أو نغتصب؟ والرابع يستطرد: نحن كلنا ضحايا أمراض الأخلاق، نحن نعيش في عالم متوحش فقد ضميره، وراح يتقاتل مع أخيه بالمخلب والناب والسكين، ويقاتل فيه أقوياؤه ضعفاءه، وتسوده فلسفات الإجرام والنهب والسلب وتحكمه مبادئ مادية عمياء ومصالح باردة...)[٤].

ويواصل الصحفي مشاهداته في ساحات باريس ساحة «بيكال»: (هذا لص محترف يريد سرقة سيارة، وهذا بائع الهيروين بالمفرق يبيع بالشمة،

---

(١) المصدر السابق: ص ٧٣ ـ ٧٥.

(٢) (٣) المصدر السابق: ص ٧٦ ـ ٧٧.

(٤) المصدر السابق: ص ٧٩ ـ ٨٠.

وثالث مريض جنسياً يبحث عن طريدة، والطريدة في باريس موجودة في كل مكان، تلقاها منذ الصباح في ميدان «الأوبرا» على الرصيف، وعند الفجر في «السان ميشال» أو «السان جرمان دي بري» وبين غروب الشمس وحلول الظلام تسرح على «العمياني» هنا وهناك وهنالك، وعلى الرصيف المواجه لفندق «غير ان أوتيل» صبية شقراء تدعوك لقبول دعوة حب صريحة بـ ٥٠٠ فرنك لليلة الواحدة ومائتين للجلسة العابرة، فإذا راق لك العرض حملتك في سيارتها الصغيرة المنمنة وطارت بك إلى شقتها في البناء القديم في الحي المتاخم لميدان الأوبرا... في ساحة الأوبرا طلوعاً ناحية المطعم شبان يعرضون أجسادهم للبيع بحفنة من الفرنكات أو الدولارات لا فرق، فتيات يعرضن أجسادهن على مثيلاتهم من بنات جنسهن مقابل كذا فرنكات في الساعة[١].

٧ ـ أوردت مجلة «رياليتيه» أن بين كل عشر نساء في باريس ست نساء شاذات، وبين كل عشرة رجال هناك أربعة يفضلون حب الجنس الواحد، ويعملون بمبادئه[٢].

٨ ـ في ساحة «البغال» يجد المار من هناك فئة الشباب الذين يتزينون على شاكلة النساء ويلبسون لباسهن، ويتبرجون بحليهن ويتصايحون ويتنهدون، والبوليس ليس مكلفاً بمطاردة هؤلاء فالحرية تكفل لهم حق التحرك كيفما اتفقت لهم أو شاؤوا[٣].

٩ ـ من حوادث باريس هذا الخبر: اعترضت ثلاث فتيات جميلات طريق شاب وسيم وأصعدنه بالقوة معهن في السيارة، وأمام منزل مهجور يقع وسط غابة ترجلت الفتيات وترجل الفتى المخطوف وهو يسأل مستغرباً: ماذا تردن مني؟ فأجابته الكبرى وهي لم تتجاوز سن السادسة عشرة: سوف تقوم باغتصابنا الواحدة تلو الأخرى ورفض الشاب، لقد أصيب بصدمة نفسية

---

(١) (٢) المصدر السابق: ص ٨٢ ـ ٨٣.

(٣) المصدر السابق: ص ٨٥.

قاتلة جعلته عاجزاً عن ممارسة الجنس، وكان انتقامهن منه رهيباً: أوثقنه إلى جذع شجرة، وقتلنه رجماً بالحجارة[١].

١٠ ـ في عام ١٤١٣هـ/١٩٩٣م تقول الأكسبرس أن جرائم الشباب الفرنسي ارتفعت خلال عشر سنوات بنسبة ١٥٦٪، وأكثرهم من الشباب الذين تعدوا مرحلة المراهقة ولم يصلوا إلى سن الرجولة بعد[٢].

١١ ـ بروز ظاهرة صور السفاحين والمجرمين على قمصان الشباب والفتيات، رمزاً لافتخارهم واعتزازهم بهؤلاء المجرمين[٣].

١٢ ـ تقول نشرة صدرت في نيويورك عام ١٤١٣هـ/١٩٩٣م أن أكثر من ٣٥٪ من النساء الأمريكيات يتعرضن للضرب المبرح من قبل أزواجهن، ونسبة كبيرة من هؤلاء النسوة يصبن بإصابات بالغة، ويقول مدير شرطة نيويورك في حديث له عن هذه القضية، إن أكثر من مائتي امرأة تنقل شهرياً إلى المستشفى نتيجة إصابات كبيرة وتهشيم ضلوع أو كسر في العظام من قبل الأزواج[٤].

١٣ ـ جاء في إحصائيات المؤسسة الأمريكية الاجتماعية أن هناك على الأقل مئة ألف فتى وفتاة في الولايات المتحدة يمثلون الأفلام الجنسية، وهناك أكثر من مليون فتى وفتاة لم تتجاوز أعمارهم السادسة عشرة يهربون من منازلهم، وهناك ميلونان ونصف المليون من الفتيان والفتيات يمارسون «التحشيش» على جميع مستوياته، وثلاثة ملايين ولد من الجنسين يعملون في الدعارة[٥].

١٤ ـ في نيويورك وفي الشارع الثامن منه حيث الحي المشهور بأنه

---

(١) المصدر السابق: ص ٨٧ ـ ٨٨.
(٢) المصدر السابق: ص ٩٣.
(٣) المصدر السابق: ص ٩٦.
(٤) المصدر السابق: ص ١٠٣ ـ ١٠٤.
(٥) المصدر السابق: ص ١١٦.

حي الحشاشين والسكارى والمعربدين تطالعك مئات الصور من الأولاد الذكور تتراوح أعمارهم ما بيت تسع سنوات إلى تسع عشرة سنة يعرضون أنفسهم لمن يمارس معهم الشذوذ مقابل المال، ٥٠٪ من هؤلاء من بورتوريكو، و٣٠٪ من السود، و٢٠٪ من البيض، وهؤلاء الأولاد لا يأوون إلى منازلهم، بل إلى دور السينما في أكثر الأحيان، وإذا عادوا إلى منازلهم فيعودون عند مطلع الفجر حيث يجدون أهاليهم بانتظارهم ليقبضوا منهم ما جنوه خلال الليل، أو لا يجدونهم لا فرق، فيجب على هؤلاء الأولاد أن يناموا ليستيقظوا في مساء اليوم التالي ليعودوا إلى الشارع الثامن النيويوركي ليفتشوا عن المشتري[١].

١٥ ـ صدر في بريطانيا كتاب بعنوان «في البالوعة» يتحدث فيه أحد أعضاء «جماعة التافهين» عن نفسه وعن جماعته يقول: (نحن نريد أن يرانا الناس مختلفين نحن نريد أن نبدو لهم كالشياطين والناس لايستطيعون التوقف عن النظر في وجوهنا وملابسنا؛ لأننا سحرناهم وفتناهم بهذه التقليعة إنهم جميعاً يقفون مشدوهين ويظنون بأننا خياليون غريبو الأطوار)[٢].

وصورة غلاف الكتاب تدل فعلاً على أن فكر هؤلاء التافهين هو على مستوى عنوان الكتاب، فالغلاف عبارة عن صورة فتاتين:

الأولى حلقت شعرها إلاّ من خصلات قصيرة، رفعت إلى أعلى بمادة صمغية ودهنت بلون فضي براق فبدأ صلع رأسها في بعض أجزاء من رأسها وخاصة في المقدمة، أما رقبتها فلفتها بحلقة جلدية مثل التي تربط في أعناق الكلاب، ووجها أقرب للبشاعة بسبب الأصباغ المتنافرة التي لطخت بها وجهها.

أمّا الفتاة الأخرى فهي أكثر بشاعة حيث حلقت كل شعرها وظهرت صلعاء وزاد من بشاعتها تلك الأصباغ السوداء التي امتدت من عينيها إلى

---

(١) المصدر السابق: ص ١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) في البالوعة: ص ١ ـ ٢ نقلاً عن كتاب جولة في عالم التيه: ص ١٥.

مؤخرة رأسها بشكل متموج مرعب بشع، أمّا أذنها فقد ثقبت بستة ثقوب لتضع فيها الأقراط بشكل فوضوي.

هذا الكتاب وما فيه ومن فيه تعبير عن جماعة أعلنت نفسها باسم «التافهين» بديلاً عن جماعات سابقة هي الخنافس والهيبيز والقرود[١].

يقول أحد المدرسين عنهم في إحدى المعاهد البريطانية: (بكل أمانة أنك تنمو في هذا المجتمع معتاداً لظهورهم بل لا تستطيع أن تلاحظ هذا الأمر بعد فترة، فأحد هؤلاء التافهين تراه مميزاً بعلامات أو ندبات في وجهه أوجدتها الحروق أو الآلات الحادة القاسية، إنه أمر سخيف حقاً عندما تفكر فيه، أن يكون عندك أحد الطلبة من هؤلاء الشباب ذوي الشعور المصبوغة باللون القرنفلي ومن دون حواجب وأمواس الحلاقة معلقة بشحمتي أذنيه، جالساً أمامك على منضدته في قاعة الدرس يناقشك في قصيدة من قصائد شكسبير)[٢].

ويقول أحد التافهين في هذا الكتاب واصفاً حادثة: (بعصبية وغضب شديد يقول: إذا أردت أن تشاهد مثلاً فرقة موسيقية أو غيرها من الفرق الأخرى فإنه يجب عليك الاصطفاف أياماً في الطابور حتى يمكنك أن تشتري تذكرة دخول حفلهم الموسيقي العامر، إنك بهذه التذكرة سوف تذهب إلى جزيرة الأعباء الثقيلة وأقول ثقيلة لأنك ستجد في مكان حفلهم ـ وعادة تكون في مكان فسيح واسع كملعب رياضي أو حديقة كبيرة ـ الطين في كل مكان والمستنقعات والناس يبولون على أكياس النوم وفي كل اتجاه ومكان بشكل فوضوي...)[٣].

١٦ ـ في أمريكا جامعة باسم «سير جورج وليمز» لديها الكثير من المنح الدراسية وتشترط في المتقدم لها أن يكون «لوطياً أو مختناً»[٤].

---

(١) انظر: جولة في عالم التيه والضياع: ص ١٤.
(٢) في البالوعة: ص ٣ ـ ٤ نقلاً عن جولة في عالم التيه: ص ١٥.
(٣) في البالوعة: ص ٣٣ نقلاً عن جولة في عالم التيه: ص ٢٠.
(٤) انظر: جولة في عالم التيه: ص ٤٣.

١٧ ـ في مدينة لوس أنجلوس في كلفورنيا يتجمع أكثر ٣٠٠ ألف من الشاذين جنسياً[١].

١٨ ـ نشرت مجلة أخبار اللوطيين الصادرة في بريطانيا خبراً بالخط العريض مفاده أن (الدين سبب لكل المشاكل في الدنيا)[٢].

١٩ ـ نشرت جريدة الرأي العام الكويتية عن رئيس وزراء الهند موراجيس ديساي أنه يشرب بوله على الريق كل صباح ويقول: هذا نافع جداً جداً، ولست بحاجة لأدفع ثمنه إنه بالمجان، وهو أيضاً نافع لتدليك الجسد وليس لي فقط بل إن شقيقتي شفيت بعد جرعات من بولي[٣]!!.

٢٠ ـ كانت جمعيات الشذوذ الجنسي موجودة في أمريكا وبريطانيا تحت تسمى «كلوزت براكتيس» وكانوا يقومون بمزاولة كل أعمالهم في الخفاء، حتى قام أحد ضباط الصف اليهود بوضع قطعة كبيرة خلفه في مكتبه العسكري في أمريكا وكتب فيها «أنا لوطي» فقام الجيش بطرده وقامت الدنيا ولم تقعد على الجيش لاتخاذه مثل هذه الخطوة، ونشرت التايمز الأمريكية صورته على غلاف الصفحة الأولى، ودُعى إلى عدد كبير من المؤتمرات ليلقى فيها محاضرات، وبعدها فجأة انتشرت جمعياتهم في كل مكان فلم تبق جامعة تقريباً في الولايات المتحدة أو في أوروبا أو في استراليا أو في نيوزلندة إلاّ وفيها فرع للشذوذ الجنسي، ولقد استطاعوا أن يجعلوا الكثير من الممثلين والمطربين وحتى الوزراء ينضمون إلى مثل هذه الجمعيات فمثلاً في مقاطعة كوبيك في كندا يوجد ثلاثة وزراء يعلنون جهاراً نهاراً أنهم شاذون جنسياً ولذلك أصدروا قوانين كلها تؤيد الشذوذ الجنسي بالخفاء[٤].

هذا ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن الشواذ جنسياً استطاعوا في

---

(١) (٢) انظر: المصدر السابق: ص ٤٣.

(٣) انظر: المصدر السابق: ص ٤٢.

(٤) انظر: المصدر السابق: ص ٤٣ ـ ٤٤..

أمريكا بعد تولي بل كلنتون وفي عام ١٤١٣هـ/١٩٩٣م أن يستصدروا أمراً إلى الجيش بتوسيع توظيف الشاذين جنسياً في قطاعات الجيش، كما أنه أتاح لجماعات الضغط من لوطيي كلفورنيا وغيرها أن يدخلوا في الانتخابات بشعاراتهم ومشروعاتهم الجنسية، وبالفعل نجح مجموعة من الشاذين جنسياً للدخول في الكونجرس ومجلس الشيوخ.

ولما ذهبت إلى أمريكا في رمضان سنة ١٤١٤هـ كانت أجهزة الإعلام تتحدث عن الشاذين، وأنه يجب التعامل معهم على أنهم أسوياء، ومواطنون عاديون، وليسوا شواذًا كما كان يقال!!، وأُقترحت برامج للأطفال والأسر لإشاعة هذه الفكرة بين الناس، من أجل تطبيع علاقة هؤلاء الشواذ بقطاعات المجتمع!!.

وكان مما ألقي في هذه البرامج أنه يلزم تجاوز عُقُد الماضي حينما كان يمنع الشواذ من التمثيل النيابي والعمل في الجيش، ذلك أن الحقبة الأخيرة قد أتيحت لهم فيها الفرص الواسعة حتى لقد أصبح من أعضاء الكونجرس ومجلس الشيوخ مايزيد على خمسة عشر نائباً يعرفون بالشذوذ ويعلنون ذلك ولا يخفون به، وهناك أضعاف هذا العدد من النواب والوزراء وكبار شخصيات الحكومة الأمريكية الذين لم يعلنوا عن كونهم من الشاذين جنسياً، وهم في الحقيقة كذلك، وهكذا كانت هذه الحيثيات وغيرها من أجل تطبيع الشذوذ في المجتمع.

وفي ١٤/٩/١٤١٤هـ وأنا في مدينة «تيمبي» من ولاية «أرزونا» كتبتُ عن إحدى المحطات التلفازية هذه المعلومات، كل عشرين ثانية تسرق سيارة، وكل ثماني عشرة ثانية حالة اغتصاب، يوجد في المنازل الأمريكية اثنان وخمسون مليون كلب وأربعة وخمسون مليون قط تُربى ويُعتنى بها، بل بعضهم استعاض بها عن أبنائه وبناته الذين تركوا المنازل أو طردوا منها، وعرضت برامج ومقترحات لحل مشكلات البنات القواصر من إحدى عشرة سنة إلى سبع عشرة سنة اللاتي يحملن سفاحاً ويضعن أطفالاً، أو يقمن بعمليات إجهاض، وبعض هذه البرامج جاء بعنوان «طفلات يحملن ويضعن

أطفالاً»، وتوجد جماعة ذات انتشار في الولايات الأمريكية تعبد الشيطان ومن طقوسها ذبح أحد البشر، فإن لم يتهيأ ذلك ذبحوا أحد الحيوانات بصورة بشعة، ومن المشاهدات شعار جامعتي «تنبي» على شكل شيطان، وفي بعض الإسكانات الجامعية توجد حمامات مشتركة بين الجنسين ومفتوحة على بعضها بحيث يُرى من يغتسل ومن يتغوط، ومن المشاهد المألوفة عند الإشارات ومداخل الفنادق فئة «الهوملس» الذين لا منازل لهم، يبحثون عن أي مأوى أو أي قوت، وبعضهم يضيف أنا ممن قاتل في فيتنام، وفي محلات بيع أدوات الإجرام والتجسس ترى صواعق كهربائية لشل قدرة الخصم وبخاخات تفعل ذلك أو تدمع العين، وأجهزة تجسس صغيرة تباع لعامة الناس، وأصابع تفجير وسكاكين مخفاة في أقلام وساعات، وثياب واقية ضد الرصاص، وكتب تعلم الإجرام مثل: كيف تقتل الآخرين؟، كيف تنتقم؟، تقنية الاختطاف، القتل بالخنق، كيف تتخلص من المطاردة، كيف تتغلب على مطاردة البوليس، كيف تخفي شخصيتك، وهناك محلات لبيع أدوات الجنس، وفيها من القذارة ما لا يخطر على بال.

وذهبت إلى مدينة سان فرانسيسكو، ومررت مع أحد المسلمين من شارع هناك اسمه «شارع كاسترو» في وسط المدينة، فقال: سأريك نموذجاً للتقدم الأمريكي!!.

وكان هذا الشارع شارع الشاذين جنسياً... وهناك رأيت ما تقشعر له الأبدان، رجال وفتيان من كل الأعمار ونساء كذلك، كل اثنين متشابكين بالأذرع (يوجد عرف لدى الأمريكان أنه لايأخذ أحد بيد الثاني أثناء المشي إلاّ كان هذا دليلاً على عشق جنسي بينهما، سواء كانا رجلين أو امرأتين أو رجلاً وامرأة).

ورأيت في هذا الشارع مقاهي وخمارات يقف الرجل خلف الرجل في وضع جنسي قذر، ويجلس الرجل في حجر الآخر، ويقبل أحدهما الآخر على الشفاه وفي الوجنات.

وهناك المكتبات ومحلات الفيديو المليئة بالصور الجنسية للشاذين من

الجنسين وصور الأعضاء التناسلية وصور العورات بطريقة مكشوفة فاحشة قذرة خبيثة غاية الخبث، وأمام مطعم صغير في هذا الشارع مجسم للشطيرة المسماة عندهم «الهامبرجر» وبدلاً من أن يكون وسط الشطيرة لحماً أو غيره مما يؤكل كان الموجود في هذا المجسم ذكر رجل!!.

ويقال أن البرج العالي في هذه المدينة والذي يشرف على أكثر أجزائها صممه ونفذه هؤلاء الشواذ وجعلوه في شكل ذكر رجل!!.

وفي هذا الشارع وفي غيره ترى أشكالهم الملفتة، أقراط كثيرة في آذانهم وأنوفهم وأثدائهم ووجناتهم ورقابهم، معلقة في الجلد المخرم لهذا الغرض، أمّا الملابس وأشكال شعر الرأس والصور المنقوشة على الأجساد وعلى الملابس، والأصباغ على الوجوه، فشيء يفوق الوصف لكثرته وبشاعته وشذوذه.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾[1].

٢١ ـ جاء في جريدة أخبار اللوطيين في ٦ مارس سنة ١٩٨٠م/ ١٤٠٠هـ ما يلي: (لمدة ست سنوات كنا في مساعدة جماعة الشاذين جنسياً، إننا نعتبر هذه المساعدة لهم خدمة إنسانية نقوم بها مع سبعين من المتطوعين الذين نذروا أوقاتهم للرد على استفسارات مايقارب من ثلاثمائة ألف مكالمة هاتفية في كافة المواضيع، فنحن نمدك بمعلومات وبيانات عن النوادي والحانات والفنادق وتجمعات الشاذين من كافة الاتجاهات والميول، ونحن بالإضافة إلى ندردش مع الوحيدين وغير المحبوبين، وبابنا دائماً مفتوح لكم، فنحن نقدم هذه الخدمة المجانية خلال الأربع والعشرين ساعة في اليوم على مدار فصول السنة، إن المتطوعين لهذا العمل لايأخذون مقابلاً لهذا العمل ولكن حتى نستمر في هذه الخدمة الإنسانية فإن ذلك يكلفنا كثيراً. . .)[2].

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الحجر.

(٢) جولة في عالم التيه والضياع: ص ٤٧.

٢٢ ـ جاء في جريدة السياسة الكويتية في ٢٢/٨/١٩٧٧م/١٣٩٧هـ هذا الخبر: (قدم خمسمائة شخص يمثلون حوالي خمسين جمعية ورابطة من جمعيات الشذوذ الجنسي بمظاهرة أمام مبنى الأمم المتحدة في نيويورك للمطالبة بإلغاء أي تفرقة في المعاملة لأعضاء هذه الجمعيات تقوم على أساس السلوك الجنسي الشاذ وقد بعث المتظاهرون برسالة إلى سكرتير عام الأمم المتحدة يطالبونه فيها بإنهاء الوضع الحالي الخاص بسكوت الأمم المتحدة عن موضوع «الحريات الخاصة بالشواذ جنسياً»...)[١].

هذه قطرة صغيرة من بحار الانحرافات ومحيطات الانحلال الخلقي، وهي على قلتها ـ بالنسبة للواقع هناك ـ تدل دلالة واضحة على مقدار الانتكاس الذي وصلت إليه البشرية في تلك البلاد وعلى ضخامة الهبوط والسقوط الذي تردت إليه تلك الأمم التي تتحدث دعاياتها الإعلامية عن الإنسانية الرفيعة، والضمير وحقوق الإنسان.

(قالوا هم البشر الأرقى وما أكلوا شيئاً كما أكلوا الإنسان أو شربوا)[٢]

ومع كل ذلك ما زلنا نرى الدمى من أبناء البلاد الإسلامية ينادون بالسير على هذا الطريق النتن المظلم، المدمر المحطم لكل قيمة إنسانية!!.

لقد استطاع الغرب المتقدم في أمور التقنية والمكتشفات، والمسيطر بقوته العسكرية والاقتصادية والصناعية أن يبهر ضعفاء العقول من أبناء الشعوب الضعيفة المسماة ـ تلطفاً ـ دول العالم الثالث، أو الدول النامية، فأقبلوا على الغرب يأخذون ما لديه بلهف، ويتلقون ما عنده بشغف.

ومن هؤلاء الذين بهروا بالغرب وما فيه، أبناء البلاد الإسلامية، فقد تسابق كثير منهم، وخاصة أصحاب التأثير المعنوي والحسي في استجلاب ما في الغرب، بل أسوأ ما فيه، جلبوا الفكر والثقافة والفنون

---

(١) المصدر السابق: ص ٤٩.

(٢) لعيني أم بلقيس: ص ٦٩ لعبدالله البردوني.

القائمة على فلسفة مادية حيوانية، وسعوا في تعميم النمط الغربي، وتطبيع السلوك الغربي، وتكسير معاقد الأخلاق الإسلامية ومفاصل الروابط الاجتماعية، ولقد عرف أعداء الإسلام أن الأخلاق الإسلامية تمثل صلب الحياة الاجتماعية والنفسية، فجندوا لتحطيمها وتكسيرها جيوش الإفساد والفتنة.

وأول أمر بدأوا به أمر العقيدة والإيمان؛ لأنها تمثل المنبع العظيم للأخلاق، فاتجهوا إلى التشكيك الجاحد، والتدنيس الفاسد لكل قضايا الإيمان، ابتداءً بالإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

واتجهوا إلى مصادر الشريعة الإسلامية، فمكروا مكرهم، وتناولوا أصول الشريعة وقواعد الملة وكليات الدين تناول المتلاعب المشوه الحاقد، ولما علموا أن تفهم الإسلام تفهماً سليماً هو الذي يمد نبع الإيمان بالعلم الصحيح، ويمد تطبيقاته بالممدد الخالص عمدوا إلى العلوم الإسلامية فكرسوا حربهم عليها وركزوا جهدهم ضدها، وقد استخدموا في سبيل تهديم الأخلاق الإسلامية عدة وسائل منها:

١ ـ الغزو الفكري، الذي يستهدف زعزعة ركائز الأخلاق التي تمدها بالقوة والأصالة والثبات ومتى حصلت الهزيمة الفكرية والاعتقادية تبعتها هزائم أخرى، منها الهزيمة الأخلاقية، وهذا ما نراه ونشاهده في سائر طبقات المنهزمين.

٢ ـ إيجاد الأجواء الفاسدة المفسدة، وغمس الناس في الفساد الخلقي، وتهيئة البيئات المناسبة للإنحراف السلوكي والأخلاقي.

٣ ـ الإفساد من خلال النساء، فهم أولاً أفسدوا المرأة وأخرجوها من عرشها المكين، من عفافها وحجابها ومكانتها السامقة التي وضعها لها دين الله القويم، ثم أفسدوا بها.

ـ أفسدوا المرأة بالتعليم الفاسد، والتربية الجاهلية المنحرفة، حتى خرجت الفتيات وهن مثقلات بالمفاهيم الباطلة والعادات الفاسدة، وهي تظن أو تزعم أو يُزعم لها أن هذه هي الثقافة العصرية، وهذا هو التقدم، وهذا

هو التحرر، فها هي الفتاة تحمل الشهادة الجامعية أو الشهادة العليا!! أليست هذه هي علامة التقدم؟.

ومن هذا المجال انطلقت المرأة أمّا ومعلمة وعاملة تضع بصمات ما تأثرت به على الأجيال اللاحقة، فتوالى الفساد والإفساد وتكاثرت أسبابه.

ـ وأفسدوا المرأة بدعوتها إلى العمل وإخراجها من بيتها، بدعوى عدم تعطيل نصف المجتمع وقالوا: نضعها في العمل المناسب لأنوثتها أو لتقاليد المجتمع، ولما استقر الأمر وقبل به الناس جعلوها سكرتيرة للرجال ومضيفة في الطائرات والفنادق، وموظفة في الدوائر العامة والشركات، وعاملة في المحلات التجارية تجذب المشتري بأنوثتها ودلالها!!.

ـ وأفسدوا المرأة بالأزياء البعيدة عن الحشمة والعفاف والمليئة بالشذوذ والإغراء، وحركوا في داخل المرأة مرضى حب البروز، البروز بملابسها وفتنة جسدها، بل أوصلوها إلى مستنقع الاستعراض والإغراء.

ـ وأفسدوا المرأة بالفنون المختلفة، وسخروا الوسائل الجذابة والمؤثرة وذات الفاعلية السريعة مثل السينما والتلفاز والمسرح والمجلات والجرائد والقصص والروايات، والإذاعة، وسائر وسائل الإعلام، وقبض المنحرفون أو الضعفاء المنهزمون على أزمة هذه الوسائل فسخروها لهدم الأخلاق وتحطيم القيم، وغرس الرذائل والمفاسد والانحرافات، حتى لقد سمّوا تبرج المرأة واستعراضها بمفاتن جسدها وغنجها بكلامها وحركاتها سموه فنًا، وأطلقوا على العري والاختلاط أسماء التقدم والتحضر.

وكانت هذه الأمور ـ المتزايدة في شرها ـ سبباً عظيماً في تهديم أخلاق المسلمين، فانهار العفاف الذي عرفت به نساء المسلمين من عهد النبوة إلى عهد قريب وتمزق كيان كثير من الأسر المسلمة، وتبدل الاعتزاز بأخلاق الإسلام والاستمساك بسلوكياته، إلى سخرية به وتهاون ومضادة ومناقضة، واندفعت المرأة المسلمة إلى تقليد الكوافر الفواجر، وتسابقت الخطى في سرعة عمياء صماء حتى فقدت معظم بلدان المسلمين طابع

الاحتشام، وأضحى السفور والتبرج والاختلاط سمة عادية مقبولة عند كثير من الناس، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

وأمام هذا الطوفان الهائل من الفساد والإفساد إفساد المرأة والإفساد من خلالها، تحركت غرائز الشباب وتملكت عقولهم الشهوات، ومتى غرق العقل في الشهوة، وتدنست النفس في الغريزة أمكن أهل الشر وبغاة العلو بالباطل التلاعب بالعقائد والأفكار والسلوك وسائر الأخلاق الشخصية والاجتماعية، وأمكن سلب إخلاصهم لأمتهم ومجتمعهم وبلادهم.

وهذا ما حصل فعلاً في كثير من بلدان المسلمين، حيث استطاع الأعداء أن يسخروا فئات من أبناء هذه البلدان ليسعوا في الأرض فساداً وليكونوا كما قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾[1].

٤ ـ الإفساد بالخمر والمخدرات، لقد دخل الاستعمار بلاد المسلمين وما فيها من يجاهر ببيع الخمر أو صنعه، وما فيها من يفكر أن يتحاكم إلى غير الإسلام، وما في مجتمعاتهم من تخرج سافرة عارية أو شبه عارية، ولم يخرج الاستعمار من هذه البلدان إلاّ وشرع الله مستبعد، ومكانه القوانين الجاهلية، والمرأة متبرجة مختلطة مسترجلة، والخمر تصنع وتباع كأنها الماء الزلال!!.

عملوا على نشر المسكرات والمخدرات بين أبناء المسلمين لما فيها من إضرار على العقول والنفوس والأجساد والأخلاق، وهاهي بريطانيا أيام قوتها كانت تستعمر الصين وترضخه لسلطانها بوسائل عديدة منها «الأفيون والحشيش» وقد علم من استقراء أحوال المجتمعات والأفراد أن المفاسد يجر بعضها بعضاً، والخمر أم الخبائث تجر إلى المخالطة الفاسدة، ثم إلى جلسات الاستمتاع بالفاحشة وإلى القتل والمعاداة، بل تجر إلى خيانة الأمة «الخيانة العظمى» والتبرع بأسرارها، والتنازل عن مقومات قوتها، وتسليم

---

(١) الآية ٢٧ من سورة النساء.

مقاليد أمرها إلى الأعداء المبغضين الطامعين المخربين[1].

وقد شهدت بلاد المسلمين من أضرار هذه المفسدات دواهي عظيمة، في الدين والخلق والعلاقات، بل في كل أسباب القوة والتمكن.

٥ ـ الإفساد بوسائل اللهو، وأعظم قضية تسلطت عليها وسائل اللعب واللهو «خلق الجدية» الذي كان من سيما المسلمين، ومن أشهر صفاتهم، لقد تبدل ذلك من خلال هذه الوسائل التي جُعلت في أذهان الشباب وأعراف المجتمعات ضرورة لايُمكن الاستغناء عنها!! فأصبح الميل إلى اللعب والهزل وسفساف الأمور خلقاً بارزاً في كثير من شباب المسلمين، واستتبع ذلك ما استتبعه من محبة للدعة وتخلق بالباطلة وتبرم بالعمل وهروب من العمل الجاد النافع، والبحث عن أسباب المتعة، وقتل الأوقات باللهو واللعب، هذا إذا كانت هذه الوسائل مباحة أو غير محرمة.

أمَّا وسائل اللهو المحرمة كأندية القمار ودور اللهو المحرم ومسارح الاختلاط والرقص، وأفلام الخلاعة، وصور الفجور، ومجالس الموسيقى، وكتب القصص التافهة، ومسهرات الاختلاط، وأمسيات المجون، وغير ذلك من وسائل الإلهاء والتمتع بالحرام والفساد، فهذه فعلت وتفعل في الأخلاق والسلوك مثلما تفعله الخمر والمخدرات في القضاء على الأخلاق النبيلة والعادات الكريمة، وغرس النجاسات الفكرية والخلفية والاجتماعية مكانها.

إضافة إلى سرقة أعمار الشباب، والقضاء على حياتهم من خلال تبديد أوقاتهم، ومن تأمل ميادين الرياضة وما في بواطنها من إلهاء وإغراء وتلاعب

---

(١) يذكر في هذا الصدد قصة الطيارين المصريين الستمائة الذين أسكرهم عميل الموساد في ليلة الرابع من يونيو حزيران ١٩٦٧ م/١٣٨٦ هـ، والتي كان في صبيحتها أول يوم من هزيمة حزيران، وكانت تلك الليلة الحمراء المترعة بالخمر ورقصات سهير زكي، والموسيقى الصاخبة، ونجوم السينما وطالبات الجامعات المنطرحات في أحضان الطيارين المصريين، سبباً رئيساً للهزيمة. انظر تفصيل ذلك في كتاب تحطمت الطائرات عند الفجر لباروخ نادل وخاصة الصفحات: ص ١٦١ ـ ٢٦٢، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٦٦ ـ ٢٦٧، ٢٧٨ ـ ٢٩٩.

بالعواطف والقيم، وما في طياتها من إسراف وتشاحن وتباغض، وما في نتائجها من تخدير للعقول والقلوب، وتعطيل للطاقات، أيقن كم جرت هذه الملهيات على المسلمين من مصائب، أظهرها مايشاهد في كثير من الشباب من ولاء وبراء للكرة، وما فيهم من تعلق وشغف بالتفاهات، وانشغال بالترهات، وانصراف عن ما به عزّ الأمم والأوطان من علم نافع وصناعة مثمرة وزراعة تؤمن العيش المستقل، وسلاح يؤمن القوة الفاعلة.

ومن كان في قلبه أدنى غيرة على الإسلام والمسلمين لابد أنه سيتأثر كثيراً، ويحزن كثيراً على هذا الشباب الضائع بين وسائل اللهو واللعب، ووسائل المجون والإنحلال.

٦ ـ الإفساد بالمال، فالمال عنصر فعال في حياة الناس، تشترى به الذمم الضعيفة، وتستذل من خلاله أمم، وتغير به أحوال، وكم اشترى الأعداء بالمال نفوساً ضعيفة ووجهوها لتفسد الأخلاق، وتنشر الفساد، ومكنوا لها بالأموال لتفعل الأفاعيل في ذمم الناس وسلوكياتهم.

فالرشوة فساد خلقي يقع بالمال، ويستثمر المفسدون المرتشي بعد إهانته بالرشوة ليكون يداً لهم في تنفيذ مآربهم، فكم من خائن لأمته، وكم من متواطئ مع أعدائها، وكم من ساع في تنفيذ مخطط الأعداء، اشتريت ذمته بالمال.

ولقد أُفسد بالمال من أخلاق المسلمين التجارية ما لايخطر على بال، فحل الجشع والشح مكان العطاء والبذل وسهل للفاسدين أسباب الاحتكارات المحرمة، والمكاسب المحرمة، وانفتحت أبواب الكسب غير المشروع، وساغ عند الناس التعامل بالربا وبيع الخمر وقبول الرشوة، وبذل المال في المحرمات والأمور المفسدة، فأدى ذلك إلى موت الفضيلة عند كثيرين، والرضى بالخنوع والذل والهوان، ما دامت الأوضاع تهيء المكسب المالي، وماتت روح التضحية والفداء، وانقرضت معاني العزة الحضارية الإنسانية المؤمنة، وحل محل ذلك ذميم الأخلاق من أنانية ومحبة للذات وتتبع للمصلحة وقبول بالذلة، ورضى بالهزيمة، وتسويغ للرذيلة ودفاع عن الباطل، وركون إلى الهوان.

٧ ـ الإفساد بالترف وكثرة الرفاهية، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[1].

وبالنظر في التاريخ البشري وتتبع أحداث الحياة وجُد أنه إذا أغرقت أمة في الترف والبطر، وتمادت في حياة الرفاهية الباذخة سرت إليها عوامل الضعف والتمزق؛ ذلك أنها بالرفاه المفرط والترف الطاغي تنسى الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[2] وتنسي الموت واليوم الآخر، وتطمئن إلى الدنيا وزخارفها، وتركن إلى الترف وتجري وراء الملذات المتجددة، فتتحطم عندئذٍ القيم والأخلاق، ويتنافس المترفون في البحث عما يشتهون، ويفنون أعمارهم وطاقاتهم في ابتكار ما به يلتهون، ويتفننون في اصطياد المتع، وكلما شبعوا من متعة انتقلوا إلى غيرها في نهم، وبحثوا عن سواها بعد أن أملّهم السأم.

فإذا هم في حمأة الشهوات المحرمات، وفي مستنقع الملذات المهلكات، رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، وغفلوا عن كل أسباب العز والتمكين، والتقدم والرقي، واتبعوا أمر كل جبار عنيد، يحقق لهم أسباب الملذات، ويؤمن لهم طرق الشهوات، وقلوب المترفين قاسية غليظة فاقدة للرحمة والعطف الإنساني، بعيدة عن الشفقة على الضعفاء والفقراء، بل ربّما ارتكبت في حقهم الشناعات من أجل تحقيق مراداتهم الباذخة، وما أنباء الترف الروماني والفارسي ببعيدة عن الأذهان، فقد قص التاريخ من أنبائهم وأخبار بذخهم الشيء الكثير، وكيف أودى بهم ذلك، حين أوجد من الأدواء الخلقية والاجتماعية والأمراض السلوكية ما عجل بذهابهم واندراس آثارهم[3].

إن من طبيعة أهل الترف والبذخ ـ إضافة ما سلف ـ أنهم يعارضون

---

(١) الآية ١٦ من سورة الإسراء.

(٢) الآيتان ٦، ٧ من سورة العلق.

(٣) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ص ٥٦، ٧١ ـ ٧٤.

الإصلاح، ويتصدون للمصلحين بالحرب والإيذاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿... وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾[3].

وقد أدرك أعداء الإسلام والمسلمين أن الرفاهية والترف والانغماس في اللذات أمور تسبب البطر، وتوقف التفكير السليم والإنتاج والتقدم، وتعرقل أي طموح نحو الحضارة، وتصيب الأمة بانهيار خلقي وسلوكي يقودها إلى الهزال والضعف والاستكانة، والتعلق بالقشور من ظواهر الحياة، وترك موجبات القوة والمجد والعزة والسؤدد، فعملوا على إغراق الذين بسط الله لهم الرزق من أبناء المسلمين في أنواع الترف والرفاهية والمتع المحرمة، وزينوا لهم سبل اللهو والدعة والتلاعب بالأموال والأعراض، فاستعذب هؤلاء هذه الطرق الغاوية، واستسلموا لدواعي الإغراء وآثروا لذاتهم وشهواتهم، وتدافعوا نحو أسواق الترف وميادين البطر المعيشي، باذلين الأموال، مقتنصين الشهوات فكان من ذلك فساد الأخلاق والآداب، وكان منه الوقوع في حضيض التخلف والتبعية، ووهن العزيمة عن التطلع إلى مجد مؤثل.

---

(١) الآيات ٣٤ ـ ٣٧ من سورة سبأ.

(٢) الآيتان ١١٦، ١١٧ من سورة هود.

(٣) الآية ٥٨ من سورة القصص.

إضافة إلى أن الأعداء قد اتخذوا منهم جسوراً لتنفيذ المآرب الخبيثة، وابتزوا أموالهم واقتنصوا خيراتهم وامتصوا طاقاتهم المادية، واستخدموها ضدهم، وقووا بها مخططاتهم المستهدفة إذلال المسلمين وإبقاءهم في دائرة الهوان والتبعية.

٨ ـ الإفساد بالسلطة، تكاد تكون شهوة الحكم والسلطان في نفوس بعض الناس من أقوى الرغبات المتحكمة والشهوات الآسرة التي تهون على صاحبها ارتكاب الفضائع، واقتراف الرذائل والجرائم العظيمة.

ويعرف الأعداء هذه الحقيقة من حقائق النفوس فولجوا من خلالها إلى أصحاب النفوس الضعيفة الذين لايخشون الله ولايرجون الدار الآخرة، فاستخدموهم، وأفسدوا من خلالهم الأخلاق والعقائد بما لايعلم قدره وامتداده إلاّ الله تعالى.

عرفوا مواطن ضعفهم فرسخوها ونموها، وضمنوا استمرارهم بالحماية الدائمة لهم، وأغروهم بالاستمرار في تحكيم القوانين الجاهلية التي تدمر الأديان والأخلاق وتسوغ الرذائل وتحميها، وكان في هؤلاء الأرضية القابلة للإغراء والتحريش، بما تلبسوا به من شهوات مهلكة وشبهات قاتلة.

علموهم أخلاق السياسة المعاصرة القائمة على الذرائعية «البرغماتية» وعلى مبدأ الغاية تبرر الوسيلة «الميكيافيلية» أخلاق السياسة المعاصرة التي لاتؤمن بفضيلة من الفضائل، ولاتحترم قيمة من القيم الخلقية، حتى غدت رذائل الكذب والغدر والخداع والنفاق والوعود المزمع إخلافها ابتداءً ونقض العهود والمواثيق، والتعدي والظلم والفجور في الخصومة والادعاءات الباطلة، وسلب الحقوق وانتهاك الأعراض وغير ذلك من الفضائع من الأمور التي لايستنكرها العاملون في ميادين السياسة، بل يعدونها من الحذق والمهارة السياسية.

فنشأ من جراء هذه الرذائل السياسية انهيار خلقي وسلوكي عام، بما يراه الناس ويسمعونه، وبما تقذف به أجهزة الأعلام من تبريرات وتسويغات وتصريحات لاتزيد أمر الإنحراف إلاّ رسوخاً.

أضف إلى ذلك ما لديهم من أجهزة البحث والاستخبار التي تقوم على تصيد الأخبار والأشخاص من خلال النساء والخمور والمخدرات والرشاوى وشراء الذمم، وبيع الضمير والأخلاق في الحجرات المظلمة.

ومن اطلع على الكتب التي تحدثت عن أجهزة الاستخبارات وأشخاصها وفضائحها تيقن كم في حشو هذه الأجهزة من بلاء مدمر للدين والأخلاق والقيم والتقاليد.

٩ ـ التركيز على إفساد الفتيان والفتيات، من خلال إرسال الأشياء المفسدة إليهم تحت أسماء مختلفة، علمية وفنية وصناعية وتجارية وسياحية ورياضية، لتقوم بعمليات الإفساد عن طريق الاختلاط بالبنين والبنات، والتأثير عليهم ببهرج مظاهر الحياة وزينتها ولذاتها، وبالمبتكرات الضالة من النظريات والأفكار، ومن الأزياء والفنون التي تستهوي النفوس ويغريها بالمحكاة والتقليد.

فإذا أضيف إلى ذلك أن الأجيال الناشئة جاهلة بدينها، عديمة الحصانة في فكرها، عديمة المناعة النفسية ضد أي غزو فكري أو نفسي أو أخلاقي، تبين فضاعة مايُمكن أن يصل إليه الأعداء في التأثير على الفتيان والفتيات.

بيد أنهم لم يكتفوا بذلك ـ على فضاعته ـ بل استدرجوا أبناء المسلمين وبناتهم إلى معاقل الفساد والإفساد، وهم بحال من انعدام الحصانة الفكرية والنفسية، فأثر عليهم الأعداء أبلغ التأثير، ومسخوهم وغيروا نفوسهم وعقولهم وغرسوا فيهم الاستخفاف بالقيم والأخلاق، وصنعوهم على أعينهم أخبث صناعة، فعادوا مثقلين بالأمراض الخلقية والنفسية، يحملون بين المسلمين رسالة أعدائهم وبأسلوب أشد عنفاً وأكثر وقاحة وأعظم تأثيراً.

وماذا يتوقع من قوم تربوا في أكناف الشبهات الفكرية وتقلبوا بين أعطاف الشهوات التي امتصت منهم المروءة والدين والخلق، ورمتهم في زوايا دروب الحياة، حيث الفراغ والفساد والهوان والفتنة والفساد؟.

وهكذا استطاعت العلمانية في البلدان الإسلامية أن تجد مجالها

الأوسع في الوصول إلى صميم الحياة بهذه الوسائل المفسدة[1].

وماسلم من تأثيرها إلاّ من سلّمه الله، وهم قلة إزاء الأعداد الهائلة التي استجابت كلياً أو جزئياً لهذه المفسدات، وليس هذا من باب التشاؤم المبالغ فيه أو النظرة السوداوية كما يقول أرباب التبرير والتفاؤل الأخرق، بل الواقع في بلدان العالم الإسلامي يشهد بأعظم وأشنع مما وصفت، وخاصة بين قطاعات المثقفين والإداريين والإعلاميين، وبين فئات الشباب والشابات إلاّ من رحم الله، وقليل ما هم.

ولايعني ذلك أن الأمة انسلخت تماماً عن كل قيمها وأخلاقها، ولكن الكلام هنا عن آثار هذه الوسائل في حياة المسلمين وتأثرهم بها، سواء قل هذا التأثر أو كبر، عظم أو صغر، ومما لاريب فيه أن ذلك من أعظم طموحات ومشروعات أهل العلمنة والحداثة، وسوف أورد من أقوالهم مايدل على تبنيهم الحرب ضد أخلاق الإسلام وقيمه، وسعيهم في إيجاد قيم وأخلاق شهوانية أو مادية حيوانية مستوردة، وكلا الأمرين متداخلان، بل هما وجهان لعملة واحدة.

فأمّا محاربتهم للأخلاق الإسلامية والسخرية بها وبأهلها فإنه يتبين ذلك بالعودة إلى موقفهم من الإيمان بالله تعالى والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، حيث تبين بالشواهد في الفصول المختصة بهذه الأركان أن الحداثيين في شأنها بين جاحد ملحد مجاهر بجحده وإلحاده، وشاك مرتاب يصب ضلاله في نهاية الأمر في مستنقع الكفر، وهم بهذا الجحد والريب يكسرون معاقد الأخلاق الفاضلة ويحطمون صلب القيم الأخلاقية عند المسلمين.

ذلك أن الأخلاق في الإسلام ـ كغيرها ـ تنبع من العقيدة الإسلامية القويمة، التي تصون وتحمي وتعلي وترفع الإنسان في كل شؤون حياته وكل مناشط أعماله، وهي الجذر الحقيقي لكل الفضائل والأخلاق، وكل الآداب

---

(١) اقتبست الكلام السابق عن وسائل الإفساد الخلقي من كتاب أجنحة المكر الثلاثة لعبدالرحمن الميداني: ص ٣٤١ ـ ٣٨٤.

والسلوكيات التي يسير عليها المسلم، حتى التي جبل عليها يعملها بمقتضى إيمانه، محتسباً الأجر في ذلك، راجياً ثواب الله وجنته.

وإذا نظرنا إلى العداوة الشرسة التي تنضح بها ألسنتهم وأقلامهم ضد أصول العقيدة الإسلامية وأركان الملة الحنيفية تبين أنهم لايستهدفون بهذه العداوة عقيدة مجردة بل يستهدفون مع ذلك مقتضيات ولوازم هذه العقيدة، ومنها الأخلاق.

وليس هذا مأخوذاً من فحوى كلامهم أو لازم ضلالهم، بل من نصوصهم الصريحة.

فهذا هو أدونيس يعتبر هدم كل ما يعيق حرية الإنسان واجباً على المبدع!! ويذكر من ذلك الشريعة والمجتمع بل يذكر اسم الله تعالى وتقدس، يقول: (لايستطيع الإنسان، كما يرى جبران في «المجنون» وفي نتاجه كله، إن يصبح نفسه، إلاّ إذا هدّم كل ما يعادي حريته الكاملة وتفتحه المليء، ومايقف حاجزاً دون طاقته الخلاقة، وتتجسد هذه القوة المعادية، كما يرى جبران، فيما يسميه «الشريعة» بتنويعاتها وأشكالها السلطوية الماورائية، والاجتماعية: الله «بالمفهوم التقليدي»، الكاهن، الطاغية، الإقطاعي، الشرطي)[1].

ثم يضيف بعد أن ذكر طريقته في هدم الشريعة: (وتكشف هذه الطريقة في رفض الشريعة عن براءة الإنسان المطلقة، وعن تجاوز إنسانيته لكل شريعة، فالإنسان قبل الشريعة، وهو الأصل... الشريعة في نظر جبران ترتبط دائماً بمقتضيات المحافظة، وبما يغتصب السيادة الحقيقية، فالشريعة خداع واغتصاب، إنها مؤامرة الذين يريدون أن يظلوا أسياداً على عبيد، أو أن يكونوا ساحقين، فالشريعة هي الإرهاب الإنساني بامتياز، بل إن المجتمع لايكون طاغية، ولايكون عدواً للتقدم والحرية إلا بالشريعة واستناداً إليها)[2].

---

(١) (٢) الثابت والمتحول ٣ ـ صدمة الحداثة: ص ١٨١ ـ ١٨٢.

على هذا الأصل الذي أسسه أدونيس، وتبعه من تبعه من المقلدين له اتجهت سهامهم نحو كل ماله صفة مؤسسة ثابتة، وخاصة ما كان ينبع من عقيدة الإسلام ويتفرغ من شريعته.

ولاشك أن الأخلاق من أعظم الأمور التي لها سلطة معنوية على النفوس تمنعها من التردي والفساد، كما أن رقابة المجتمع المسلم على سلوك الناس له تأثير وفاعلية؛ ولذلك يطالب الحداثيون بتحطيم سلطة الأخلاق وتهديم سور المجتمع، وإبادة ضوابط السلوك والآداب؛ لأنها تشكل سداً أمام رغباتهم الضالة وشهواتهم الفاسدة، وتعيق تقدمهم وانتصارهم الذي يأملون.

وفي النص السابق من كلام أدونيس وجبران إشارة واضحة على تبنيهم رأي فرويد القائل بأن الدين والأخلاق والمجتمع عوامل كبت لابد من تخطيها وتجاوزها، وهذا يؤكد مقدار التبعية والمحاكاة في الأفكار والمشروعات التي يقدمها الحداثيون.

ومن هنا كانت أعمالهم وأقوالهم في شأن الأخلاق تستهدف هدم الأخلاق، وجحد وجودها واعتبارها نسبية اعتبارية ليست أصيلة ولا ثابتة، وتذم الأخلاق القوية والسلوكيات الفاضلة، وتعتبر الاستمساك بها علاقة تخلف وجمود، في الوقت الذي أغدقوا فيه مدائحهم على الأخلاق الرذيلة، ودعوا إليها واعترفوا بمقارفتهم لها مفاخرين!!.

وعودة إلى أدونيس وموقفه الحداثي التأصيلي الذي يرسمه لأتباعه في قضية الدين والأخلاق، يقول عن كتاب المجنون لجبران (قلت أن كتاب المجنون هدمي، وهو لذلك يضعنا في مناخ العدمية، نشعر أن الأخلاق والقيم الدينية تهدمت في العالم الذي يسكنه المجنون، لم تعد ثمة غاية ولا اتجاه، ولم يعد ثمة نور يضيء ولا طريق، بل لم يعد ثمة مكان... كل نقد جذري للدين والفلسفة والأخلاق يتضمن العدمية، ويؤدي إليها، وهذا ما عبر عنه نيتشه بعبارة «موت الله» وقد رأينا أن جبران قتل الله هو كذلك،

على طريقته، حين قتل النظرة الدينية التقليدية إليه...)[1].

تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً.

وليس هناك أصرح من هذا القول الذي يفوه به هذا الباطني النجس فيما يتعلق بالدين وأصوله والأخلاق ومنزلتها، وما من شك أن حرب الأخلاق تعود إلى الفوضى، وأن الفوضى مقصد أساسي من مقاصد الحداثة، وقد أشرت في مواضع من هذا البحث إلى دعوتهم إلى الفوضى وتبنيهم لها باعتبارها أصلاً من أصولهم وغاية من غاياتهم.

ثم يشرح أدونيس خطة تهديم الأخلاق عند جبران، وجبران مجرد قناة يخوض فيها أدونيس إلى بالوعة الحداثة، يقول أدونيس: (ومن الواضح أن جبران لايحلل تحليلاً فلسفياً أو علمياً القيم التي يهدمها، وإنّما يعرضها بشكل يجعلها مشبوهة فمتهمة، فمرفوضة، إنه يحاول بتعبير آخر، أن يظهر خطأ التفسيرات التي تقدمها الأديان والأخلاق التقليدية للعالم والإنسان، فيما يدعو إلى محو المذهبية القيمية، ويؤكد على فاعلية الحياة والإنسان الذي يبتكر القيم الجديدة، الأخلاق التقليدية هي التي تعيش الخوف من الله، وتنبع من هذا الخوف.

الأخلاق التي يدعو إليها جبران هي التي تعيش موت الله، وتنبع من إله جديد، إنه إذن يهدم الأخلاق التي تضعف الإنسان وتستعبده ويبشر بالأخلاق التي تنميه وتحرره، إنه يهدم الأخلاق السلبية، الانفعالية التي تتقبل الراهن الموروث من القيم، ويبشر بالأخلاق الإيجابية الفعالة التي تخلق هي نفسها القيم، إنه يريد بالتالي أن يحل محل الفكر المأخوذ بأخلاق المستقبل محل الفكر المأخوذ بأخلاق الماضي؛ ولهذا فإن كتاب «المجنون» دعوة لقلب نظام القيم)[2].

ثم يضيف واصفاً ماترتب على هذه الخطة الثورية الانقلابية المضادة

---

(١) المصدر السابق: ص ١٧٨.

(٢) المصدر السابق: ص ١٧٨ ـ ١٨٩.

للقيم والأخلاق، ويجعل هذا المترتب على مستويات منها: (أن القيم القديمة تتخلخل وتنهار، يرافق ذلك ضعف في الدين والأخلاق... ويتميز المستوى الثالث بهيام فوضوي، يمتزج فيه ازدراء كل شيء بهدم كل شيء، أمّا المستوى الرابع فهو مستوى الكارثة، حيث يموت القديم، ويتحول الإنسان، أي يولد من جديد بهدي مبادئ جديدة، وحياة جديدة، العدمية إذن مرحلة انتقال)[1].

هذا النص الأدونيسي يظهر الموقف الحداثي من الأخلاق ومن أساسها الديني.

وهو مليء بالتناقض والمغالطة، فهو يصف الأخلاق الجديدة التي تريد الملة الحداثية إيجادها مكان مايسميه الأخلاق القديمة؛ يصفها بأنها الأخلاق الإيجابية الفعالة، وهو الذي سبق أن وصف بأن كل نقد جذري للدين والفلسفة والأخلاق يتضمن العدمية، ويؤدي إليها، وهو الذي قال بعد ذكره للأخلاق الحداثية الإيجابية ـ حسب زعمه ـ بأن هذه الأخلاق تتسم بالهيام الفوضوي، والهدم والعدمية!!.

فهو إمّا أن يكون في حالة تناقض بين وصف أخلاق الحداثة والعلمنة والإلحاد بالإيجابية ووصفها بالعدمية والفوضية، وإمّا أنه يرى أن هذه العدمية والفوضوية هي الأخلاق الإيجابية التي يمتدحها ويشيد بها ويدعو إليها، والمتتبع لكلام أدونيس ومواقفه وجملة مبادئه يجد أن هذا الوجه الأخير هو المخصوص عند أدونيس بالإيجابية.

فهو في تأصيل الأصول من تلمود الحداثة، يبحث في زبالات الملاحدة القدامى مثل أبي بكر الرازي وابن الراوندي وأضرابهم ويأتي بكلامهم في جحد النبوة والوحي ويتهكم بالقرآن بل يجحد نزوله، ثم يورد مدح الوجودي الملحد «عبدالرحمن بدوي»[2] لصنوه الرازي الملحد الذي

---

(١) المصدر السابق: ١٧٨ ـ ١٨٩.

(٢) عبدالرحمن بدوي، مصري وجودي الاعتقاد، يتبنى الإلحاد ويدافع عنه، ألف في ذلك=

وصفه بأنه ينزع نزعة فكرية حرة، وأنه ينحو منحى تنويرياً[1]!!.

ثم يخلص أدونيس بعد ذلك إلى أن زنادقة الفلاسفة أصحاب عقل ونظر عميق وتأمل!! ومن ذلك جاء ردهم للوحي وجحدهم للنبوة، وهذا مديح يريد أن يستجلبه لنفسه ولزمرته، وبعد كل ذلك يقول: (من هنا لايعود العقل مقياساً للمعرفة وحسب، وإنّما يصبح كذلك مقياس الأخلاق، فالعقل هو مقياس التمييز بين الخير والشر... فالعقل أصل المعرفة والحرية أصل الأخلاق)[2].

ولايدري الناظر في هذا الكلام أي وجه للعقل والمعقول عند إنسان يرى أن القيم الجديدة والموصوفة بالإيجابية وهي الفوضوية والعديمة والهدم والتدمير، وهذه الأمور بطبيعتها مخالفة للعقل مناقضة له، وإلاّ أصبحت القرود والأفاعي والعقارب والذباب أكثر عقلانية وأوسع إيجابية من الإنسان!!.

يقول أدونيس: (من المستحيل الدخول في العالم الآخر، الكامن وراء العالم الذي تثور عليه، دون الهبوط في هاوية الفوضى والتصدع والنفي)[3].

هذه الفوضى هي التي تعبر عنها إحدى الناقدات الحداثيات بقولها: (العلمنة أو الدنيوية... أي نزع التقديس والأسطرة عن سطح العالم والتاريخ... العلمنة هي إحدى مكتسبات الحداثة الثانية، والدينامية الهائلة للحداثة تكمن في أنه لا شيء مقدس بالنسبة لها، لا شيء محرم...، كل

= كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام، احتفى فيه بالزنادقة والملاحدة، وأبرز شخصياتهم على اعتبار أنهم أهل تحرر وانطلاق، له جملة من المؤلفات يدور في مجملها على محور التغريب والمدافعة عن المستشرقين بشدة، والدعوة لإحياء تراث الفلاسفة مثل ابن سينا والفارابي والسهروردي المقتول، وترجمة الفلسفات الغربية وتسويقها. انظر: معهم حيث هم لسالم حميش: ص ١٢٠ ـ ١٣٩.

(١) انظر: الثابت والمتحول ٢ ـ تأصيل الأصول: ص ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) المصدر السابق: ص ٨٦.

(٣) زمن الشعر: ص ٤٦.

شيء مباح، لا شيء ينجو من دراسة العلم الذي اخترق سر الطبيعة... أصبح الإنسان مع نزع هالة التقديس والألوهة عن الكون ومدبره، أصبح يقع في مركز الكون، ويشكل مبدأ القيم والغايات، وعندئذٍ ترسخت الحركة الإنسانوية، توقف الإنسان عن الدوران حول المقدس، وحلت مشروعية إنسانية جديدة محل المشروعية الدينية السابقة، ونتج عن ذلك أخلاق جديدة وقوانين جديدة تنطبق على البشر دون استثناء ودون اعتبار اللون والعرق أو المذهب والدين)[1].

إذن فتهديم القيم والأخلاق مطلب حداثي لايختص به أدونيس دون غيره، ولا مذهب حداثي دون آخر، طالما أن الحداثة مبنية على مبدأ العلمنة الجاحدة لألوهية الله تعالى كلياً أو جزئياً، وطالما أن الحداثة والعلمانية تنادي بإيجاد قيم جديدة تقوم على الفوضى ونزع القداسة والاحترام عن كل شيء، وتنادي بأنه لاشيء محرم ولا شيء ممنوع، أي أنهم - في مجال الأخلاق - لايمانعون تأصيلاً أو تطبيقاً من الزنى بالمحرمات ولاتعاطي المخدرات ولا ممارسة الظلم والفتك والخيانة، ولا مزاولة الكذب والغدر والسرقة والنشل واللوطية واحتراف الدعارة والعربدة وكل أنواع القذارات الخلقية؛ لأنه لا شيء محرم عند أهل الحداثة والعلمانية، حسب ما ورد في النص السابق، بل حسب ما صرحت به بعد ذلك في قولها: (كانت خطوة إخراج الجنس والجسد من ظلمات المحرم إلى علنية اللغة وعلنية الممارسة مفصلاً جوهرياً في سقوط المقدس)[2].

ومثل ذلك قول ناقد حداثي: (النص الحديث أياً كان جنسه أو نوعه، جسدي، فشاعريته هي شاعرية الرغبة والحاجة والشهوة والعطش إلى جسد الآخر، إنه تمتمات الجسد)[3].

من هنا يُمكن فهم الشاعرية الحداثية!! وآفاق الحداثة!! وما يترتب

---

(١) قضايا وشهادات ٢/ ١٠٢، والقول لأنيسة الأمين.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٠٥.

(٣) المصدر السابق ٢/ ٢٨٥. والقول لعبدالرزاق عيد.

على ذلك من أخلاق بهيمية حيوانية، وسلوكيات شهوانية جنسية، وحتى في التعبيرات النقدية والشعرية البحتة لايذرون التعبير الجنسي، فالشاعر يلد القصيدة، والمقطوعة الفلانية في طور المخاض، والمبدع بتزاوج مع بيئته ومجتمعه، والقصيدة الجنينية تصل إلى دور التكون، والولوج إلى رحم القصيدة، والشبق الإبداعي، والكلمة النطفة، وافتضاض النص، وغير ذلك من الألفاظ والعبارات ذات الدلالات الجسدية الشهوانية التي هي حاجتهم الملحة، ومشروعهم الأساسي، وطموحهم العالي، حسب ما عبر عنه أنسي الحاج في قوله: (والحاجة اليوم أراها إلى كتابة تمزق حجابها بعدما تمزق وجدانها، إلى كتابة تقول المحرم والممنوع والمخيف والمهول والرائع والمدهش والمذهل والساحر والرهيب، ولو لعنت ورجمت واضطهد أصحابها حتى الموت.

تقول البسيط والمرعب، القريب والأقصى، ضمن نظامها الخاص الذي هو حتماً، مهما انحرفت، نظام الإغراء، أي الفتنة الإلهية.

الحاجة إلى كتابة العري، عري الذات والفكر والدخيلاء، والحلم والكابوس والنظر والبصيرة والشوق والاستيهام والنوايا، عري المنطق، عري الاقتناع، أي الشك، عري الإيمان، عري المحاكمة الذاتية والموضوعية، عري الخطايا، عري الضعف والانحلال، عري الجنون، عري السقوط، عري الصلاة العارية والهرطقة العارية، والعربدة العارية)[1].

ولم يتوقف الأمر بهم عند حد هذه العربدة العارية كمطلب أساسي من مطالبهم، بل تجاوزوا ذلك إلى حد اعتبروا فيها الإباحية الجنسية أساس كل تقدم وحرية!!، بل أساس الحضارة.

ها هو أنسي الحاج يقول: (العربي الذي يتكلم بسخرية عن حرية التصرف بالجسد ظناً منه أن الحرية السياسية أهم، يقصد أن الحرية السياسية «محترمة» بينما الأولى مخجلة، فضلاً عن كونها «بدعة غربية».

---

(١) مجلة الناقد، العدد ١ تموز ١٩٨٨ م/١٤٠٨ هـ: ص ٧.

الفصل بين الحريتين خرافة، استخفاف بجوهر الحرية، وهو أنها كل، وهو يتجاهل كون الحرية الشخصية، النفسية الحميمة، هي الأساس لكل حرية، وللحريات السياسية والاجتماعية)[1].

منطوق هذا الكلام أنه لايُمكن حصول التحرر السياسي والاجتماعي إلاّ بالتحرر الجنسي، أي أنه لايصبح الفرد أو المجتمع متصفاً بالحرية حتى يمارس الدعارة الجنسية كما يريد، حين تعاشر الزوجة على فراش زوجها من تريد، وحين يُلاط بالولد، ويُزنى بالبنت، وحين تقام بيوت الدعارة وبيوت الشذوذ الجنسي، حين تمارس العملية الجنسية على قارعة الطريق، بل حين يزني الرجل بأمه وأخته وابنته، هذه هي الحرية الجنسية التي يدعو إليها أنسي الحاج ويعتبرها أساس كل حرية.

وهي الدعوة نفسها التي فاه بها الداعر الحداثي الكبير نزار قباني في قوله: (الجنس هو صراعنا الأبدي، والكابوس الذي يفترسنا ليلاً ونهاراً، وإذا كنت تسألني عن حجم هذه المشكلة الجنسية فإنني أقول لك إنها بحجم جماجمنا تماماً، بحيث لايوجد تلفيف واحد من تلافيف النخاع العربي، غير مصاب بورم الجنس، أنا يائس من كل ثورية تجعل الجنس على هامش دعوتها، ويائس من كل نظام تقدمي، يترك جسد الإنسان العربي في بئر الكبت، ومضاجعة غلافات مجلات الجنس.

إن الأرض العربية حبلى بألوف المشاكل والعاهات التاريخية، لكن مشكلة الجنس هي رأس الأفعى، وما لم يقطع هذا الرأس فسيبقى جسد العربي، وفكره وسلوكه، وعلاقاته بالحياة والأشياء جسداً متقيحاً ومتورماً، وواقعاً تحت مورفين الرغبات والأحلام... إنني لا أؤمن أصلاً بإمكان قيام حضارة يكون فيها جسد الإنسان منفياً عنها، فالشعوب التي يفترسها هاجس الجنس في صحوها ونومها لايُمكن أن تكتب أو تفكر أو تقوم بأي إنجاز حضاري)[2].

---

(١) المصدر السابق، العدد ٩ مارس ١٩٨٩م: ص ٨.

(٢) أسئلة الشعر: ص ١٩٨ ـ ١٩٩.

وهكذا نرى كيف يلخص نزار قباني قضية التقدم والحضارة في الجزء السفلى من الإنسان.

إن القضية الجنسية هي التي استنزفت حياته أكثر من ربع قرن، وهو ينظر إلى العالم من خلال ثقب صغير أحمر، حسب قول مؤلف كتاب أسئلة الشعر[1] في أسئلته التي وجهها إليه، وكانت من إجاباته ما سبق نقله، ومنها قوله: (العالم العربي ثوب مليء بآلاف الثقوب، ولا أوافقك على أن مشكلة الجنس لدينا هي ثقب صغير لايُمكن تفسير الظواهر الاجتماعية والتاريخية من خلاله، إنها كما قلت بحجم حياتنا وحجم أيامنا، وإذا كان فرويد النمساوي المتحضر قد فسر العالم كله تفسيراً جنسياً، وربط الإنسان والحضارة بشجرة الجنس، فماذا تنتظر من عربي مثلي أن يفعل؟!.

إنني أتطلع من حولي إلى المجتمع العربي، فأرى فكرة العيب والشرف والعرض تقيم حصاراً طروادياً حول الجنس الثاني وتعزله عن ممارسة أي نشاط اقتصادي ذي قيمة.

إذاً فنظرتنا المتخلفة إلى الجنس هي وراء تخلفنا الاقتصادي ووراء انقسام المجتمع العربي جنسياً إلى قارتين منفصلتين، وهذا ما يدفعني إلى اعتبار الجنس مشكلتنا الأساسية، ومتى وجدت هذه المشكلة حلولها، فإن بقية المشاكل ستحل نفسها بنفسها)[2].

وللعاقل أن يتصور كيف يمكن أن تحل المشكلة مع اليهود جنسياً، وكيف يُمكن أن تحل مشكلة الغذاء ومشكلة التسليح، ومشكلة الهيمنة الغربية، والنفوذ اليهودي، ومشكلة الردة العلمانية، وغير ذلك من مشكلات الأمة الإسلامية، كيف تحل جنسياً حسب القول الداعر لنزار قباني؟!!.

لقد أفنى عمره في وصف الأعضاء الجنسية، والدغدغة الحسية للمراهقين والمراهقات، واستخدام المنبهات الجنسية الداعية إلى الإغراء

---

(١) انظر: المصدر السابق: ص ١٩٨، ١٩٩.

(٢) المصدر السابق: ص ١٩٩ ـ ٢٠٠.

والرذيلة، حتى لقد درس مؤلف كتاب «أسئلة الشعر» بعض قصائد قباني مقارنة مع صنوه سعيد عقل وعمل استبياناً إحصائياً، فخرج بهذه النتائج: (أثبت الأحصاء الذي أجريته لمفردات خمس قصائد لكل من الشاعرين «يقصد قباني وسعيد عقل»:

أ ـ أن مفرداتهما تتشابه إلى درجة تدعو إلى الدهشة.

ب ـ أن ترداد المفردة على اختلاف اشتقاقها في القصيدة الواحدة عند نزار أكثر منها عند سعيد)[1].

ويقول هذا الناقد بعد أن ذكر مجموعة ألفاظ ترد عند قباني وسعيد عقل، وأنها استحالت (في شعرهما إلى هرمونات أنثوية أدمنّا على تعاطيها، ودمى لغوية لا علاقة لها بالكون والحياة)[2].

ثم يقول بعد أن وصف شاعرية نزار الجنسية: (إن اعتماد الشعر على المنبهات الحسية الحادة لايشير إلى انعدام الذوق بقدر ما يشير إلى بدائيته وحاجته إلى التدريب)[3].

ويقول: (إن ملاحظة سريعة لجدول الاستجابات الآتي تؤكد لنا أن جمهور سعيد يتألف من عينات بدائية الثقافة أو متخلفة عنها، ومن صغار السن والمراهقين)[4].

وليس الأمر عند نزار قباني مجرد تنظر فرويدي جنسي، أو دعوة شهوانية مجردة، بل هي عنده ممارسة وعمل، فعندما سأله المؤلف المشار إليه قائلاً: (قبل أن يموت عمر بن أبي ربيعة أقسم أنه لم يحل تكته على حرام قط، هل هناك مثل هذه الغربة بين حياة نزار قباني وشعره؟)[5].

---

(١) المصدر السابق: ص ١٥.
(٢) المصدر السابق: ص ١٦.
(٣) المصدر السابق: ص ٢٠.
(٤) المصدر السابق: ص ٢١.
(٥) المصدر السابق: ص ١٩١.

ويُمكن هنا ملاحظة السؤال وما يتضمنه من تحريض وانتقاد العفة عن ممارسة فاحشة الزنى، وكانت إجابة قباني على السؤال استجابة فكرية وعملية لهذا التحريض، حيث أجاب على السؤال قائلاً: (لو كان هذا التصريح الخنفشاري لعمر صحيحاً، لكانت شاعريته موضع شكل كبير، ولكان شعره مسلسلاً جيمس بوندياً كاذباً، إنني أشك في الرواية والراوي، واعتبر هذه الوثيقة المزورة مؤامرة لفصل الشعر عن الشاعر.

بالنسبة لي لا انفصام بين التجربة والتعبير عنها، بين الفم والصوت، كل تفاصيل حياتي اليومية معجونة بالشعر... إن الشعر مشتبك بجزئيات حياتي اليومية، وبكل تفاصيلها الصغيرة، كما تشتبك كرة الصوف ببعضها في مخالب قطة المنزل، إن حياتي وشعري ملتحمان كما اللحم بالعظم، ولا يُمكن فصلهما إلاّ بالموت، حياتي كلها مصورة ومفرغة في هذا الإناء هو شعري، إنني لم أترك تجربة واحدة من تجاربي، مهما كانت صغيرة، في العتمة... شعري هو صورتي الفوتوغرافية الرسمية الموزعة على كل المدن وكل المخافر، وهي التي تحمل علاماتي المميزة وخطوط بصماتي كل الأشياء التي اصطدمت بها عيني وأحاسيسي خلال رحيلي الطويل في قارات العالم تتحرك وتتنفس في قصائدي)[1].

هذا الاعتراف الصريح الذي يؤكد فيه قباني أن شعره شعر الدعارة والجنس، والليالي الحمراء، والمغامرات النسوية والأعضاء الجنسية، هو شعر نابع عن تجربة وواقع معاش.

وكفى بهذا التنظير «القباني» والاعتراف الصريح شهادة على مقدار الانحلال الخلقي الذي انحدرت إليه الحداثة وغاصت في مستنقعه، إنها الكتابة والممارسة التخريبية القذرة التي يسعون في نشرها ونصرها، في مفاخرة متبجحة على نحو قول أنسي الحاج: (مهما سالم الكاتب التخريبي

---

(١) المصدر السابق: ص ١٩١ ـ ١٩٢.

سيظل يصيب، ومهما أحب سيظل يشعل الحرائق، ومهما انحط خلقياً سيظل أعلى من عصره)[1].

ليس هناك تبجح أصرح من هذا، المنحط القذر والهابط النجس يرى أنه أعلى وأطهر وأفضل من المستقيمين الفضلاء النبلاء، ولا غرو فالمجنون يرى أنه أعقل من كل العقلاء، والزانية النجسة الخبيثة ترى أنها أفضل من العفيفات الطاهرات!!.

ومن النص السابق يُمكن تصور النفسية والعقلية التي يفكر بها أهل الملة الحداثية.

التخريب عندهم بناء، والإفساد لديهم هو عين الإصلاح، والانحطاط في عرفهم علو وارتفاع، والتبعية هي الاستقلال، والعبودية للغرب هي التحرر، وهكذا إلى آخر القائمة، التي توضح غاية الوضوح عنوان ومضمون الحداثة.

وفي إحدى المقالات عن الرواية العربية يتحدث عبدالرحمن منيف عن هموم الروائي العربي، ويعد منها «المحرمات» ومنها السياسة والعربي والجنس، ويدعو إلى تجاوزها لأنها حسب قوله: (مصالح أشخاص أو فئات أو طبقات قبل أن تكون ضرورة أو قداسة أو حاجة تعني الجماهير)[2].

وفي الدراسة النقدية الدعائية التي أجراها إحسان عباس عن الشعر العربي المعاصر خصص فصلاً بعنوان «الموقف من الحب» بدأه بقوله: (نحن نعيش في عصر فرويد: جملة قد تحمل معاني عديدة وقد تكون فارغة من المعنى، ولكنها تشير إلى إنهيار الحواجز بين الحب والجنس)[3].

ثم يذكر نزار قباني ويذكر نماذج من أقواله الجنسية وعباراته التي يكثر من تداولها.

---

(١) مجلة الناقد، العدد العاشر إبريل ١٩٨٩ م/١٤٠٩ هـ: ص ١١.
(٢) الناقد، العدد ١٨ ديسمبر ١٩٨٩ م/١٤٠٩ هـ: ص ١٤.
(٣) اتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ١٣٥.

وأنقل هنا مجموعة من إشارته حول ذلك، يقول بعد أن أورد أبياتاً قال عنها: (. . . أرى فيها لحظة كشف، لحظة إضاءة كان نزار يومئ إليها إيماء سريعاً من قبل. . .)[1].

ويقول: (إنه اتخذ الجنس مسكناً، وأصبح الحب كله متشابهاً. . . على ضوء هذا الفهم يستطيع القارئ أن يقرأ قصائده «مصلوبة النهدين» و«طائشة الظفائر» و«همجية الشفتين» وغيرها مما يجرى هذا المجرى ليكتشف أن خوف الشاعر من ضياع الحيوية الشعرية ـ لا من ضياع العفة والفضيلة ـ هو الذي يحدد للحب «ومن ثم للجنس» أبعاده وقيمه، فنزار إذن لم يتحدث عن الحب، بمعناه العاطفي الذي يظنه الكثيرون، إنّما تحدث عنه بمعنى جديد حين جعله طرفاً في قوتي صراع كبيرتين)[2].

ورغم هذه الصيغة التبريرية لم يستطع إحسان عباس أن يتجاوز ما لايستطيع تجاوزه في وصفه لقباني وأقواله، كما في ثنايا قوله السابق، وكما في قوله الأشبه بالدعاء: (يُمكن أن نسمى نزار شاعر المرأة؛ لأنه ينصفها؛ لأنه ـ وهو يحاول أن ينصفها ـ يرى فيها محض امرأة، لا فنانة شاعرة، ذلك لأنها في أقصى حالات الشاعرية تتمنى الفناء ـ حباً وجنساً ـ في الرجل)[3].

وهذا كذب على قباني ومخالف لحقيقة أقواله وأفعاله التي سبق ذكر شيء منها، فهو لايرى المرأة إلاّ جسداً ومتعة ومستودعاً للشهوات والنزوات، ومختبراً لمغامرات أهل العهر والدعارة والزنى فأي إنصاف للمرأة في هذا؟.

أليس هو القائل:

(تعبت من السفر الطويل حقائبي ... وتعبت من خيلي ومن غزواتي
لم يبق نهد أسود أو أبيض ... إلاّ زرعت بأرضه راياتي

---

(١) المصدر السابق: ص ١٣٦.
(٢) المصدر السابق: ص ١٣٦ ـ ١٣٧.
(٣) المصدر السابق: ص ١٣٨.

لم تبق زاوية بجسم جميلة إلاّ ومرت فوقها عرباتي
فصلت من جلد النساء عباءة وبنيت أهراماً من الحلمات
وكتبت شعراً لا يشابه سحره إلاّ كلام الله في التوراة)[1]

وهو القائل عن المرأة:

(بدراهمي، لا بالحديث الناعم
حطمت عزتك المنيعة كلها بدراهمي
ربما حملتُ من النفائس والحرير الحالم
فأطعتني وتبعتني
كالقطة العمياء، مؤمنة بكل مزاعمي
فإذا بصدرك، ذلك المغرور، ضمن غنائمي
أين اعتدادك؟ أنت أطوع في يدي من خاتمي
قد كان ثغرك مرة ربي، فأصبح خادمي
آمنت بالحسن الأجير وطأته بدراهمي
وركلته وذللته، بدُمىً بأطواقٍ كوهم الواهم)[2].

وله مقطوعة طويلة يبرر فيها لإحدى عشيقاته ـ بعد أن فرغ منها جنسياً ـ تنقلاته بين داعرة وأخرى، جاعلاً المرأة مجرد متاع ونشوة وجنس[3].

ويخاطب أخرى قائلاً:

(كان عندي قبلك قبيلة من النساء
انتقي منها ما أريد، وأعتق ما أريد

---

(١) الأعمال الشعرية ١/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥.
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧.
(٣) انظر: المصدر السابق ٢/ ١٠٦ ـ ١٠٨.

كانت خيمتي بستاناً من الكحل والأساور

وضميري مقبرة للأثداء المطعونة

كنت أتصرف بنذالة ثري شرقي

وأمارس الحب، بعقلية رئيس عصابة

وحين ضربني حبك على غير انتظار

شبت النيران في خيمتي

وسقطت جميع أظافري

وأطلقت سراح محظياتي

واكتشفت وجه الله)[1].

فهذه مكانة المرأة عند نزار، وهذه نظرته إليها، بل هذا جزء يسير من كلام كثير مليء بالاستخفاف والتدنيس للمرأة، ومع ذلك يسمونه شاعر المرأة، ويقول إحسان عباس بأنه أنصف المرأة!!.

ويُمكن أن يلاحظ أنه في استخفافه وإهانته للمرأة بجعلها مجرد ساحة لغزواته الجنسية، يمزج ذلك بالاستخفاف بالله تعالى كما في المقطوعتين السابقين، وهذا آت من مقصد خبيث ومن عقيدة نجسة، تتجلى في أن قباني لشدة عداوته لله تعالى وبغضه لدينه وشريعته، لايدع فرصة إلاّ ولج منها إلى تنفيس هذه الضغائن الجاهلية، كما أنه في طرحه الدنس لقضية المرأة يواجه وضعاً اجتماعياً فيه بعض الاحترام والتقدير للمرأة، وذلك من آثار الدين القويم في النفوس، ولذلك توجه قباني إلى أصل الدين بالاستخفاف والتدنيس والسخرية ليحطم البقية الباقية في أفئدة الذين يتلقون كلامه، ويقرأون كتبه، أو على الأقل يخفف من نفوسهم الإجلال والتقدير الواجب لله تعالى، فإذا حصل على هذا أمكنه أن يمارس امتهانه للمرأة على أي طريقة شاء.

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥.

ثم سيجد بعد ذلك من الكذابين المنافقين من يقول بأن نزار شاعر المرأة، وأنه احترم المرأة وأنصفها وأقام لها ميزاناً في الحياة!!.

بيد أنه لايصح أن نستبعد من كلام إحسان عباس ما قاله عن قباني وشعره بأنه (فيه أصابع ثقافية فرويدية واضحة)[1]، وأنه يعيش الصراع بين الحب وعقدة أوديب[2]، وأنه يحاول وصف توق المرأة الممض إلى حرية الحب وحرية الجنس، وخوفها من أن تصل إلى مرحلة يكف فيها الجسد عن الاعتزاز بثماره[3].

وهي شهادة يطلقها هذا الناقد تناقض قوله السابق عن إنصاف قباني للمرأة، وشهادة تدل على مقدار الانحراف الخلقي عند الحداثيين شعراء ونقاداً، خاصة إذا أضفنا إلى ذلك ما سبق نقله عن قباني أنه لم يكتب قصيدة إلاّ ولها رصيد من ممارسة واقعية.

وعندما سئلت نازك الملائكة: (ماذا تقولين إذن في شعر نزار قباني وهو شاعر لايهتم بالأخلاق مطلقاً لا بل إنه يهاجمها ويسخر منها...؟)[4].

أجابتْ، وكان من إجابتها قولها: (... كنت دائماً أنفر من الوشاح الجنسي الذي يلف كثيراً من قصائده... الأقسام الأخيرة من كتبه فيها يلوح الشاعر وكأنه شرير قاس ممتليء قصائده بالبثور المشوهة، وهذا الشعر لا فن فيه، ولايشف عن شيء، وتولد القصائد مقتولة)[5].

غير أنه ينبغي التنبه إلى أن هذا المواقف الناقدة لنزار لاتعني أن الحداثة قد برئت من الدعوة إلى الانحطاط الأخلاقي أو أن الحيوانية الجنسية والدعارة الشهوانية خاصة بنزار قباني، نعم هو من أكثرهم غرقاً في هذا

---

(١) اتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ١٣٨.

(٢) انظر: المصدر السابق: ص ١٣٩.

(٣) انظر: المصدر السابق: ص ١٤٠.

(٤) (٥) قضايا الشعر الحديث: ص ٢٠٩.

الوحل، ولكن لكل واحد منهم نصيبه من هذا الوحل.

لاسيما أنهم يكادون يتفقون على أن الدين والأخلاق من العوائق التي يرون وجوب القضاء عليها، على نحو مما قاله الطاهر بن جلون في رواية ليلة القدر على لسان إحدى الشخصيات: (كنت أصارع الشعور بالذنب، والدين، والأخلاق، والأشياء التي كانت تهدد بالظهور ثانية، كما لو أنها تروم توريطي، تلطيخي، خيانتي، وتدمير القلة القليلة التي كنت أحاول الحفاظ عليها من كياني)[1].

ويلخص علاء حامد موقف الحداثة من الأخلاق وأسسها الدينية في قوله: (إن نهاية مطاف الأديان لو دققنا العقل في مغزاها ومضمونها نجد أنها تعريف للإنسان بمضمون الخطأ والصواب، هذا المضمون الذي يمر بمرحلة احتضار بعد أن هجرت القوانين الوضعية والعرف السائد أغلب ما فيه من أحكام، وبعد أن طرحت أرضاً كثيراً من المسلمات الدينية التي استحوذت على العقل فترة ليست بالقصيرة، واستطاعت أن تدفن تحت أرضها في عصور الظلام بسطوة وقوة الداعين لها، نور العقل وضياء المنطق وومضه العلم، لم يعد ملائماً العودة إلى هذا المضمون أو الدعوة إلى الارتماء في أحضانه، مثل هذه الدعوة إذا لم يواكبها فكر مستنير)[2].

فهم يرون أن مفهوم الصواب والخطاء قد انقرض، وأن قضية الخير والشر قد انتهت، وعلى ذلك يُمكن عمل أي شيء في مجال الأخلاق، والتصرف بأي شيء في مجال السلوك، وبعد ذلك لم يعد لهؤلاء من قضية يدافعون عنها إلاّ قضية الانحلال وتمجيد الرذائل، والدعوة إلى الشذوذ والشهوة، والحيوانية المطلقة من كل ضابط.

فعلاء حامد صاحب النص السابق يحارب فكرة الزواج والارتباط بين

---

(١) ليلة القدر: ص ٦٤.

(٢) مسافة في عقل رجل: ص ١٥٨.

الرجل والمرأة برباط النكاح، داعياً إلى حرية اختيار المرأة من تريد بأي شكل تريد[1].

وروائية حداثية تصف الشباب المتحضر ـ حسب رأيها ـ بأنهم (ما عادوا يتمنون الزواج باكراً وما عادوا بذلك الكبت، يسافرون ويتعرفون ويصاحبون أجمل جميلات العالم، صغيرات في السن أقرب إلى القاصرات)[2].

ثم تذكر قصة عن فتاة من صحراء الجزيرة العربية تترك العباءة وتتبرج وترتبط في علاقة جنسية مع مغني الروك الأوروبي وتتعرف على الرجال غير المختونين وتقول بأن جسمها هو مصب الشعور إلى آخر ما في أقوالها ووصفها من تحلل ودعوة ضمنية إلى السفاح والدعارة[3].

ومن ضمن انحدارات الحداثة في قضية الأخلاق نجد أنهم لايفتأون وهم يحاربون الأخلاق الإسلامية يشيدون ويمجدون الرذائل الخلقية، والتحليل الخلقي ويدعون إلى ذلك وينافحون عنه باعتباره قضية أصيلة من قضايا الحداثة، ولاتكاد تجد أحداً منهم يتصف بالعفة في نظره أو علاقاته مع النساء، أمَّا الرذائل الخلقية الأخرى من سرقة وانتحال فيكفي في الدلالة على ذلك أنهم سرقوا وانتحلوا فكرة الحداثة بحروفها ومعانيها ثم زعموا أنها من تأليفهم وإبداعهم[4].

إضافة إلى ما في هذه المسروقات من ضلالات وكفريات وشكوك

---

(١) انظر: المصدر السابق: ص ١٨٧.

(٢) مسك الغزال لحنان الشيخ: ص ٩٤.

(٣) انظر: المصدر السابق: ص ١٠٥ ـ ١٠٩.

(٤) يُمكن أن يذكر في هذا الصدد انتحالات أدونيس كما ذكرها مؤلفوا الحداثة مثل كتاب «أدونيس منتحلاً» وكتاب «أفق الحداثة وحداثة النمط»، وانتحالات وسرقات غيره مثلما ذكر حامد أبو أحمد في نقد الحداثة، وما ذكره الأستاذ أحمد الشيباني ـ رحمه الله ـ عن انتحالات عبد الله الغذامي في كتابه «الخطيئة والتكفير»، وقد نشر ذلك في ملحق الأربعاء التابع لجريدة المدينة.

وجاهليات تدل على بغضهم للحق ومحبتهم للباطل، وكفى بهذا الخلق ذماً وإثما، فإذا علم كم في عقائدهم وأعمالهم من خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين وللأمة تبين مقدار استحكام الشر في قلوبهم، يقول أدونيس في معرض تفاخرة واستعلائه على اتباعه:

(وأنا ذلك الإله

الإله الذي سيبارك أرض الجريمة

إني خائن أبيع حياتي

للطريق الرجيمة

إنني سيد الخيانة)[1].

ويقول شارحاً أسس أخلاقه الحداثية:

(جئتكم فلبست الجريمة

وحملت إليكم رياح الجنون)[2].

ويتطاول في فحولة جنسية موجهة إلى أتباعه ومحببه والمدافعين عنه فيقول:

(أبحث عما يعطي للكلمة عضواً جنسياً، وعما يثقب السماء)[3].

وإذا أزحنا العبارة الأخيرة التي يدنس فيها السماء لخبث إلحادي مستبطن في قلبه، وقلنا للمحاكين له والمناضلين عنه والذائبين في حبه أو حب شعره هاهو مقداركم عند أدونيس، بل ها هي نظرته إليكم!!، ولست أدري على الخصوص ماذا ستقول مؤلفة الكتاب التبجيلي «مسار التحولات قراءة في شعر أدونيس»؟، خاصة وهو القائل عن المرأة:

(ثقب في جيبي اهترأ العالم، حواء حامل في سراويلي

---

(١) الأعمال الشعرية ١/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٥١.

(٣) المصدر السابق ١/ ٣٨٤.

أمشي على جليد ملذاتي، أمشي بين المحير والمعجز أمشي في وردة)[1].

ومن دعواته إلى الرذيلة والتحلل الخلقي قوله:

(خذيني إليك

يا بيت الفتنة، وبيت الرغبة، وبيت النشوة

ناغيني بغيبك

ادمجيني فيك، أدرجيني معك)[2].

ومن عقيدته الفرويدية قوله:

(نجمّل قشرة الأرض

نجنسن الكون)[3].

وقوله:

(حيث أعلّم حياتي أن تكون طريقاً واحداً: الجسد...)[4].

ومن جراء عقيدته الإباحية، تجده يستشهد بكلام سلفه الزنديق الشلمغاني فيقول في إحدى المقاطع:

(ويقول الشلمغاني:

اتركوا الصلاة والصيام وبقية العبادات

لا تناكحوا بعقد

أبيحوا الفروج

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٧٦.
(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٧٦ ـ ٣٧٧.
(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٧٩.
(٤) المصدر السابق ٢/ ٣٨٠.

للإنسان أن يجامع من يشاء)[1].

ويعود ويستند إلى خلفيته الباطنية فينادي القرمطي قائلاً:

(استغونا أيها السيد استدرجنا

قل لنا من كذب ومخرق

مَنِ البلية

من خدع الجسد بنواميسه؟

استغونا استدرجنا

نتوافق نتناصر

ننصب الدعوة

وندخل في تميمة الإباحية

رقعة من شمس البهلول ←

يبيح الأموال والفروج

يجمع النساء ويخلطهن بالرجال

حتى يتراكبوا، هذا من صحة

الود والإلف اطفئوا المصابيح

تناهبوا النساء اطفئن المصابيح

تناهبن الرجال)[2].

واضح أن هذه النصوص صريحة الدلالة على التوجه الأخلاقي الإباحي، بحيث لاتحتاج إلى تعليق أو توضيح.

---

(١) المصدر السابق ٢/٥٤٨.

(٢) المصدر السابق ٢/٥٦٥ ـ ٥٦٦.

وفي المقطع نفسه يستعير الخطاب القرمطي وينادي النساء، بالنداء الباطني نفسه فيقول:

(اعصرن يا نساء السواد شقاءكن لينهمر عنباً وحنطة وتمراً
املأن القرى بمزق التيجان والعروش
انكسرن مرايا مرايا وادخلن في النثار وليكن ذلك احتفاء بزواج آخر
ثقبن الآفاق بأظافركن ولتكن صدوركن حلبات
ولتكن حناجركن مزامير للمعسكرات ودناناً للعطشى
وفي الليل، حين يطرح التعب مهاميزه
قلن لأجسادكن أن تنتج على أجسادنا دراريع ديباج
وغلائل حرير
ليزدهر أيضاً وأيضاً خشخاش الشهوة
لتتوهج أيضاً وأيضاً قوس الموت
نعقد حلفاً مع الصعاليك
ننشيء سلطة الرغبات)[1].

ويعترف بالرذيلة واللواطة قائلاً:

(١٩٣٠[2] الشمس قدم طفل
◣[3] عرفت أقل من امرأة
لأنني تزوجت بأكثر من امرأة
(ـ عرفت أقل من رجل

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠.

(٢) (٣) هكذا في كتابه، وهي من الإبداعات الحداثية التي لايفهمها إلاّ سدنة الحداثة، وكهنة الباطنية!!.

لأنني تزوجت بأكثر من رجل)

أعلنا:

الزواج غبار)[1].

وهذه الإعلان الشيوعي الإباحي، يتوافق مع عقيدته الإلحادية، والتحرر الذي يدعو إليه، والذي ـ من خلاله ـ نظر إلى جبران خليل جبران كأحد المبدعين، وطليعة من طلائع الحداثة، يقول أدونيس في الثابت والمتحول (ولعل التحرر كما ينظر إليه جبران يتمثل أكثر ما يتمثل في التحرر الجنسي، وفي آرائه حول هذه المسألة مايتيح لنا أن نقول إن جبران من رواد الثورة الجنسية المعاصرة.

يعتبر جبران أنه مدين بكل شيء «بكل ما هو أنا» كما يعبر، للمرأة، فهي فاتحة النوافذ في بصره، والأبواب في روحه، وهو يرى أن الجنس طاقة خلاقة، وأنه موجود في كل شيء في الروح كما في الجسد، ويتنبأ بأن آفاق الحرية الجنسية ستتسع بحيث سيجيء يوم تترك فيه العلاقة بين الرجال والنساء حرة فعلاً، ويكون بوسع الرجل فيه أن يقول للمرأة هل لك أن تعرفيني جنسياً لمدة ثلاث ساعات ومن بعدها لايتعرف واحدنا على الآخر من جديد؟، ثم له أن يقدم لها لقاء ذلك ما تريد كما يقدم لقاء الأشياء الأخرى، ومن أجل تعميق هذه العلاقة الحرة بين الرجل والمرأة، يقف جبران ضد الزواج، فعلاقة الزواج ليست خلاقة إلاّ في حالات استثنائية نادرة)[2].

ويُمكن لمن أراد تفصيلات حياة جبران في هذه القضية أن يعود إلى كتاب أضواء جديدة على جبران لتوفيق صائغ[3].

وفي كتاب أحاديث عن جبران ذكر أحدهم أن مشاهير «نساء جبران»

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٦٦٢.

(٢) الثابت والمتحول ٣ ـ صدمة الحداثة: ص ١٨٨.

(٣) انظر: أضواء جديدة على جبران: ص ٢٣ ـ ٤٦، ١٠٥ ـ ١١٤، ١١٧ ـ ١٣٦.

ثماني عشرة امرأة وذكر أسماءهن[1]، ولما سئل لماذا في نظرك لم يتزوج جبران أجاب (ليس بالضرورة أن يتزوج كل رجل وأين الغرابة إذا ظل جبران في عداد العازبين ورافقت حياته علائق نسائية متعددة سواء أكانت هذه العلائق إعجاباً متبادلاً فقط، أم كان في بعضها علائق جسدية.

ثم إن جبران أوضح رأيه في الزواج مرتين منفصلتين وبفكرتين مختلفتين:

مرة لما سألته شقيقته مريانا لماذا لايتزوج أجابها: ما دمت أستطيع أن أُفرح عدداً من النساء فلماذا تريدينني أن أفرح امرأة واحدة...)[2].

ثم يطرح المؤلف سؤالاً عن الشذوذ الجنسي عند جبران، حسب مايشاع عنه[3].

وحسبك من مذهب وعقيدة هؤلاء هم روادها ودعاتها، بكل ما فيهم من انحرافات وضلالات وخبث، يبغضون الطيب الذي فطر الإنسان عليه وهو النكاح، ويحبون الخبيث النجس المحرم وهو السفاح، ويدعون إليه ويمارسونه في حياتهم، بل يدعون إلى الإباحية المطلقة.

جاء في مجلة الدستور تحت عنوان «أسرار نجيب محفوظ في رسائله الخاصة» تفاصيل رسالته التي أرسلها إلى صديقه الدكتور أدهم رجب، والتي لما نشرت أثارت غضب نجيب محفوظ، لما فيها من كشف عن شخصيته وحياته الخاصة ونزواته وتأثير عالم الحشيش والحشاشين في أدبه.

يقول نجيب في هذه الرسالة: (... عرفت في هذا الصيف أديباً شاباً موهوباً ولطيفاً معاً، ولهذا الأديب عوامة، نقضي فيها نصف الليل الأول ما بين الحشيش والأوانس، وانقلب أخوك شيئاً آخر ـ لمدة الإجازة فقط طبعاً ـ بل علمني البوكر سامحه الله، فغدوت مقامراً، وليس بيني وبين دكتور

---

(١) انظر: أحاديث عن جبران: ص ٧٥ ـ ٧٦.

(٢) انظر: المصدر السابق: ص ٧٧.

(٣) انظر: المصدر السابق: ص ١٠٨.

الأمراض التناسلية إلاّ خطوة، فانظر كيف يتدهور الأديب على آخر الزمن، وقد وفيت أخبار السياسة حقها لعنها الله وكلامك فيها يقع من نفسي موقع الحق والهوى معاً... تصور أنه انفجرت من أسبوعين قنبلة في شارعنا، وعلى بعد عشرين متراً من بيتنا، وكان من نتائج ذلك أن بطلت حفظ الحشيش في البيت استعداداً للتفتيش...)[1].

وإذا أردنا المزيد فلنأخذ دراسة باروت عن ديوان «لن» لأنسي الحاج وفيها بيان لبعض أنواع الانحطاط الخلقي والفساد والرذائل، يقول باروت: (إن «لن» لأنسي الحاج... كتابة فضائحية، لقد كان ممكناً لأنسي الحاج أن يسمي قصيدته «فقاعة الأصل» بـ«الاستمناء» لكأن فضائحية ذلك تذكرنا بعنوان «السحاقيات» العنوان الأصلي الذي وضعه «بودلير» لـ «أزهار الشر» فلقد أراد أنسي الحاج في «لن» أن يكون شاعراً مارقاً ملعوناً منحطاً، أن يستوحي تلك الأخلاقية المخيفة عند «بودلير» و«الشعراء الملعونين» و«المنحطين» وأن يبحث عن الشعر في هول العيب، إذ أن توق أنسي الحاج ينصب على تحقيق «لذة اللعنة» ففي «فقاعة الأصل» أو «القصيدة المارقة» كما يسميها أنسي، يشخص فقاعات الأستمنائي «شارلوت» حيث يتبحر الملعون الخليقة، وهو يستمني، ويصل إلى لذة لعنته بالتحلل من القيم والمروق عليها)[2].

ثم يورد باروت مقاطع من ديوان «لن» مليئة بالقذارة حيث يصف أنسي الحاج عملية الاستمناء، ثم يقول باروت: (بل إن الانتهاك الفضائحي لـ «الملعون يصل إلى درجة انتهاك الخطاب الوطني في مرحلة اتساع الدور الاجتماعي والسياسي لهذا الخطاب، واستقطابه قوى اجتماعية واسعة، ففي «نشيد البلاد» يجابه أنسي لذة «الخيانة» بعد أن جابه في «شارلوت» لذة «اللعنة» وهما في الآن ذاته لذة المروق والكشف عن انحطاط القيم وتفككها وتحللها:

---

(١) مجلة الدستور تاريخ ٢١/٨/١٩٨٩ م/ ١٤١٠ هـ: ص ٤٧ ـ ٤٨. وانظر: أدب نجيب محفوظ: ص ٥٢.

(٢) الحداثة الأولى: ص ٩٠.

يا بلادي، في الموت إذا استرعيتك فلرحمك
أوسعه، أطرز ضفته بروثي، لأرفع علمك عضوي
أوهمك ذلك «مسيحي» أنام أشبعك بوهم عضوي
أنت، تصدقين وترتاح أعصابك، عضوي أنت
عضوي أنت؟
يا بلادي عضوي الليل، إنك تخذلين استهزائي
ماذا أعطيك؟
- خائن[1]

من هنا فـ «الملعون» في شعر الحاج، هو إنسان قلق مجنون يائس، متمرد، فضائحي منحط، معزول، مارق، لا قيمي، ومريض كبير، إن الأطروحة الجمالية الكبرى في «لن» هي التفكك الروحي والقيمي والجسدي لـ «الفرد» من كونه ملعوناً، أي ما يسميه أنسي بتشرش السرطان في الروح والجسد وفي العالم أيضاً، ولم ير أنسي في زمنه إلاّ «زمن السرطان» الذي يعيش فيه تفككه الروحي «الأزلي» ومجابهته العبثية للمستحيل، وفي هذا التفكك يعيش أنسي إشكالية في لعنة الجماعة له، واشمئزازه منها، ويقود اللعنة إلى أقصاها... وبذلك يندرج «لن» في انتهاك كل مقدس، إذ أن «لن» هو الرفض المارق، اللاعن الملعون، لكل ما هو سائد...)[2].

هذه الاعترافات الإبداعية!! والنقدية تمكن أي دارس لهذا التيار أن يطلع على حجم القذارة الخلقية، والإنحطاط الخلقي والسلوكي، المبُرر لها تحت لافتات الإبداع والحرية!! والمسوغة بالأساليب الدراسية، والمسوقة بالدراسات النقدية.

---

(١) هذه الكلمات أوردها باروت من ديوان «لن» لأنسي الحاج.

(٢) الحداثة الأولى: ص ٩٠ - ٩١.

يقول أدونيس في رسالة إلى يوسف الخال: (ربما يكمن جديد مجموعتك في نظرتك للمرأة، نحن هنا نقرع أبواباً توصلنا إلى الحياة والعيش في مدينة الجنس، أو قل مدينة الجسد، لهذه المدينة حضورها ولها محاريبها والبخور، المرأة هنا تنصهر في لهيب من الميتافيزياء الشعرية، تذوب في رؤيا الشاعر... إنّما هي جنس وميتافيزياء، جسد أبدي الحضور ساحر وأخاذ)[1].

فهذه هي موازينهم ونظرتهم إلى المرأة، ومع ذلك لايخجلون من التبجح الكاذب بأنهم يكرمون المرأة!!، فياله من إكرام يقوم على اعتبارها مجرد جنس وجسد، ومستودع نزوة وشهوة!!.

ويشرح إحسان عباس موقف صلاح عبدالصبور من المرأة فيقول عنه بأنه (يشترك مع نزار في الوقوف عند المظاهر الحسية من عالم المرأة)[2].

ثم يورد جملة من الكلمات والمقاطع الجنسية له ويعلق قائلاً: (في القديم كان الحب يخضع للترتيب والحسبان، كانوا يقولون نظرة فابتسامة فسلام... الخ، أمّا اليوم فإن العاشق العصري قد يلتقي بمحبوبته «من قبل أن يبتسما» وقد يذوق العاشقان مايذوقانه قبل أن يشتهياه، فالحب لحظة شبق تضيع قبل أن تتحدد أبعادها أو يعرف الممارسان لها أحدهما الآخر، وهذا ما حدث للشاعر ذات يوم في فينا، ومع ذلك فإنه أحب تلك اللحظة، ووجد فيها انفراج حزنه المقيم، وحمد الله «رغم نقمته على السماء» على ما قيض له من شعور ولو عابر بالحياة:

تبارك الله الذي قد أبدعك

وأحمد الله الذي ذات مساء

على جفوني وضعك[3]

---

(١) زمن الشعر: ص ٢٣٣.

(٢) اتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ١٤١.

(٣) انظر: ديوان صلاح عبدالصبور: ص ٢١٤.

وواضح أن الشاعر هنا يتحدث عن الحب وهو يعني الجنس. . .)[1].

والمقطوعة التي يشير إليها إحسان عباس من ديوان صلاح عبدالصبور هي التي سماها في ديوانه «أغنية من فيينا»، ومنها قوله:

(كانت تنام في سريري، والصباح
منسكب كأنه وشاح
من رأسها لردفها
وقطرة من مطر الخريف
والنفس المستعجل الخفيف
يشهق في حلمتها
وقفت قربها، أحسها، أرقبها، أشمها
النبض نبض وثني
والروح روح صوفي سليب البدن
أقول، يا نفسي، رآك الله عطشى حين بل غربتك
جائعة فقوتك
تائهة فمد خيط نجمة يضيء لك
يا جسمها الأبيض قل: أأنت صوت؟
فقد تحاورنا كثيراً في المساء
يا جسمها الأبيض قل: أأنت خضرة منوره؟
يا كم تجولت سعيداً في حدائقك
يا جسمها الأبيض قل: أأنت خمره؟

---

(١) اتجاهات الشعر العربي: ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

فقد نهلت من حواف مرمرك

سقايتي عن المدام والحباب والزبد

يا جسمها الأبيض مثل خاطر الملائكة

تبارك الله الذي قد أبدعك

وأحمد الله الذي ذات مساء

على جفوني وضعك...

تشابكت أكفاء واعتنقت

أصابع اليدين

تعانقت شفاهنا، واقترفت

في قبلة بليلة منهومة)[1].

هذا اعتراف صريح برذيلة الزنا وممارسة فاحشة باسم الحب، الذي تحول عندهم إلى مجرد مضاجعة شهوانية.

وعلى الرغم من وضوح المعنى في هذه المقطوعة بصورة قطعية، وإيضاح إحسان عباس لمضمونها الجنسي إلاّ أن هناك من يتمحل الأعذار الباردة، ويحاول أن يؤول هذا الكلام تأويلاً تعسفياً، وهو مع كل هذا التأول والتعسف لم ينف عن الشاعر الوقوع في الجريمة الأخلاقية، يقول مؤلف كتاب قضية الشعر الحديث بعد أن ذكر هذه المقطوعة: (إن المرأة التي يتحدث عنها الشاعر لم تكن مومساً رخيصة تعطي جسدها لكل من يريده ويدفع الثمن، بل كانت امرأة عادية من نساء الغرب ذات كرامة وتهذيب، وهذه أيضاً حقيقة لن يسلم بها الذين لايعرفون البيئة الغربية واختلاف تقاليدها ومقاييسها الأخلاقية، فهم لايستطيعون أن يصدقوا أن امرأة ليست من بائعات الهوى ولا من الساقطات المبتذلات ترضى بأن تحدث لها هذه

(١) ديوان صلاح عبدالصبور: ص ٢١٣ ـ ٢١٥.

التجربة، والتجربة العابرة، مع رجل غريب عنها لم ترتبط به برابطة الزواج الشرعي، أمّا الذين يعرفون اختلاف الأوضاع والقيم فسيدركون أن الشاعر لايكذب ولايبالغ حين يتأمل جسمها...

نعود إلى شكرانه لله فنقول: لو كان ذلك الشكران قاصراً على مجرد حاجة جسدية حققت عن طريق تعده تقاليدنا حراماً لكان فيه من التجديف ومن المفارقة غير المقصودة مما تجده في كلام لص يشكر الله أن مكنه من سرقة المنزل دون أن يقبض عليه، أو في دعاء لص يعتزم السرقة فيقول: ربنا يسترا! أمّا هذا الشعر فهو أعلى كثيراً من هذا المستوى؛ لأن النشوة لم تكن مجرد تلذذ حيواني...)[1].

ويُمكن هنا ملاحظة التعسف والادعاء الكاذب، فهو يزعم أن المرأة ليست مومساً، ولا دليل له على ذلك، بل المتبادر أن من تعرض نفسها على الراغبين هي من المومسات، ثم هو يزعم أنها امرأة ذات كرامة وتهذيب، بالمقاييس الغربية الجاهلية، ولم يذكر في كلامه قط أي مقياس شرعي لهذه الجريمة، بل قال بأن تقاليدنا تعد هذا الفعل حراماً، وفي هذا دلالة انسلاخ عن الدين ومعاييره وأحكامه، بل تدنيس له وتهوين من شأنه حين عد تحريم الزنا من التقاليد.

أمّا حديثه التبريري عن الأوضاع الاجتماعية والخلقية في الغرب، وحسبانه ذلك من المبررات التي تسوغ للشاعر أن يدخل تنور الزنى، دون أي اعتبار لدين أو خلق، فهذه التقاليد الجاهلية الغربية ليست مسوغاً إلاّ إذا اعتبرنا أن شرب البول في الهند ـ مثلاً ـ مسوغاً لشاعر حداثي أن يمتدح ذلك ويعده من التقدم والحضارة، أو القتل والعدوان وعصابات الإجرام والمخدرات الشائعة في الغرب، مسوغاً للإبداع الحداثي أن يمتدح ويجرب مثل هذه الأمور!!.

لقد ترسخ عند أهل الحداثة أن الإبداع لايأتي إلاّ من خلال ممارسة،

---

(١) قضية الشعر الجديد لمحمد التويهي: ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

فجربوا المخدرات والزنى والشذوذ وحكوا ذلك في كتبهم، ومن أجل ذلك تصدى الناقد محمد مندور لمواجهة هذا الفهم الحداثي القائم على شهوة تلبست بشبهة فقال: (والذي نلاحظ بوجه عام هو أن أدباءنا وخاصة شعراءنا المعاصرين قد فسروا عبارة التجربة البشرية بمعناها الضيق فقالوا إنها التجربة الشخصية التي يجب أن يصدر عنها الشاعر، وإلاّ كان شعراً كاذباً، وبذلك أدخلوا على الأدب وبخاصة الشعر مقاييس الصدق والكذب، وفسروا الصدق بأنه ما كان صادراً عن تجربة شخصية ومعاناة حقيقية للأديب أو الشاعر، وفسروا الكذب بالتصنع المفتعل الذي لايستند إلى تجربة...)[1].

(الوهم الخاطئ الذي يسيطر أحياناً على بعض الأدباء الناشئين، فيدفعهم إلى الانحلال والعربدة والتسكع في الحياة بحجة اكتساب التجارب الشخصية التي يظنون أن لا غنى لهم عنها لكتابة الأدب أو قرض الشعر)[2].

وإذا كان محمد مندور يتحدث عن بعض فئات الشباب في عصره فإن الحديث اليوم عن الحداثة يقتضي أن ننظر في حياتهم وشعرهم وتجاربهم بصورة أوسع، حسب ما في كتبهم من مجنون وخلاعة واعترافات بالفواحش والخبائث.

والذي يهمنا في كلام مندور أنه لاحظ هذه الظاهرة وسجلها في كتابه، وهو الذي لايتهم من قبل الحداثيين، بل هو من طلائعهم الأوائل، ولذلك تحدث عن بعضٍ، أمَّا اليوم وقد سيطرت المفاهيم الإنحلالية وأصبح الأصل عندهم التحلل من القيم وأضحى ذلك لديهم من أهم المعالم الثقافية والأدبية والعملية، على غرار ماجاء فيما سبق نقله، وأمثاله من الأقوال التي تثبت أنهم جعلوا الإنحراف الخلقي أحد ثوابتهم، كما جعلوا هدم الفضيلة والطهارة والنقاء والخير أصلاً من أصولهم.

يقول أحد نقاد الحداثة: (... تظهر الحداثة سواء في الغرب أو في

---

(١) الأدب ومذاهبه: ص ٩ ـ ١٠.

(٢) المصدر السابق: ص ١٢.

العالم الثالث، على أنها محل انبثاق عوامل القطيعة والحلول الوسطى، بجانب عوامل النظام وارتساء التقليد، فالحركية الملازمة لها على كل المستويات «الاجتماعية والمهنية والجغرافية والزواجية وفي الموضة والتحرر الجنسي... ليست الحداثة هي امتساخ كل القيم، بل إنها التفكيك العام لكل القيم القديمة دون تجاوزها، إنها التباس كل القيم تحت شعار نوع من الاختلاط المعمم، لن يعود هناك لا خير ولا شر، لكننا مع ذلك لم نعد خارج الخير والشر»[1].

وها هو طليعة الحداثة والعلمانية «نجيب محفوظ» الحاصل على جائزة نوبل من اليهود بعد مسيرة طويلة من التشكيك في الدين والإفساد في الأخلاق، يقود عصابات الروائيين العرب إلى ذات المخاضة التي خاض فيها، يقول الدكتور السيد أحمد فرج في كتابه «أدب نجيب محفوظ»: (كانت الرذيلة هي قاعدة أعمال نجيب محفوظ، أمَّا الفضيلة فهي استثناء، ومع هذا إن وجدت تكون من النوع السلبي الباهت، يصنع الكاتب كل ذلك عن إيمان به وقناعة وعمد وسبق إصرار، والدليل على أنه يبيت النية مسبقاً لصنع هذا المجتمع غير السوي أن شاباً سأله في ندوة مجلة الشباب: لماذا تركز في رواياتك على الشخصيات المنحرفة خاصة المرأة، ولماذا تركز على الانحرافات الجنسية فقال: «لاتوجد رواية من رواياتي خالية من شخصية واحدة على الأقل»، سوية وفاضلة، إذن فالفضيلة عنده استثناء لا قاعدة، ومع هذا فإن الشخصيات التي يزعم أنها سوية وفاضلة، فهي في العادة شخصيات باهتة لا دور لها في رواياته غير الفرجة ومشاهدة الأحداث، أو أنه جاء بها ليدلل على أن المتدينين سلبيون لأنهم متدينون.

ويعلل الأديب الكبير اندفاعه الجارف إلى تصوير الانحراف ـ خاصة انحراف المرأة والتركيز على الانحرافات الجنسية حتى لتصل إلى ما يُمكن أن نطلق عليه البغاء الوحشي ـ بأن الانحراف هو ملهمه الأساسي للإبداع، يقول في ذلك: «لولا الانحراف لم أكن لأكتب، أو على الأقل فلكل كاتب

---

(١) قضايا وشهادات ٣/ ٣٩١ ـ ٣٩٣.

دواعي إلهام، والكاتب المهتم بمجتمعه تدفعه إلى الكتابة مواطن النقص الموجودة به في محاولة لعلاجها وأنا حينما أكتب عن الانحراف، فالجنس شيء ضخم جداً في الحياة، بل هو الحياة ذاتها، ولكني حين أعالجه أفعل ذلك بجدية، وليس بالعبث أو بالإثارة»، وهو بطبيعة الحال لايقول الحق، ولكن كيف يبرر إشاعة الفاحشة بين الناس، إنه يقنع عبدالدايم الموظف الصغير في «القاهرة الجديدة» بأنه يقبل أن يقاسمه الوزير في زوجته فيوافق، وفي «خان الخليلي» في بيت من البيوت يقدم رجل البيت الحشيش وتقدم زوجته الجنس للزائرين، والجو العام «لزقاق المدق» مليء بالجنس وكل أنواع الشذوذ ورائحة البغايا التي تفوح في «بداية ونهاية» وكذلك في «الثلاثية» ثم يأخذ الخط البياني في الارتفاع من رواية لأخرى حتى يصل الذروة في «الحب تحت المطر، ورحلة ابن فطومة» «والباقي من الزمن ساعة» وغيرها)[1].

وقد ملأ الدكتور السيد أحمد فرج كتابه القيم بالشواهد الكثيرة والملخصات المهمة لانحرافات نجيب محفوظ.

ولو أخذنا رواية «الخبز الحافي» كمثال من الأمثلة التي يُمكن الاستدلال بها على الإنحطاط الخلقي والإنحلال السلوكي، لوجدنا أن صاحبها قد ملأها بالاعترافات الشخصية المنحرفة من زنا ولواط وحشيش وتشرد وقوادة ونشل وغير ذلك، وكتب عنه أحد نقاد مجلة الناقد قائلاً: (هو حقاً كاتب رجيم يرجمه المتطهرون... يرجمه كل التقليديين والمتوائمين والحريصين على التزام المعايير والقوانيين والكوابت والكوابح والسير داخل الخطوط المحدودة الممهدة، والأنماط المعدة الجاهزة.

وهو جدير بأن يرجمه كل هؤلاء ومن إليهم، ذلك أن عالمه يقع بعيداً جداً عن عوالمهم، بعيداً جداً لا إلى أعلى، ولا إلى يمين أو يسار، ولكن إلى أسفل، أصدق وصف أجده لشكري تمدني به العامية المصرية حين

---

(١) أدب نجيب محفوظ: ص ٥٣ ـ ٥٤.

تصف رجلاً بأنه «سفلي»... محمد إذن ـ كاتب سفلي بهذا المعنى، فأهم ما في عالمه، وما يثير اللفظ حوله وحول أعماله، إنّما هو صادر عن أسفل المجتمع وأسفل الجسم معاً... في السيرة الروائية والرواية كلتيهما هذا الذي يصدم القارئ التقليدي الآمن: المشاهد الجنسية المكتوبة بالكلمات «ذوات الحروف الأربعة» بلا محاولة للتغطية أو التورية أو الرمز أو التلميح، الأعضاء تتسمى بأسمائها، والممارسات بأسمائها، وكل خطر قد ارتفع، ولعل هذه المشاهد ـ بالذات ـ هي مصدر اللغط حول شكري وعمله، وهي ما تطرح السؤال الأساسي: هل يكتب محمد شكري أدباً «بورنوغرافيا»[1]، أو أدباً «أزرق» على غرار أفلام السينما الزرقاء؟...

ولأن الجنس هدفه اللذة ـ وليس الإنسان من أجل إعمار الكون! ـ فلاتسل عن الممارسة: سوية هي أم شاذة، والحقيقة أنه منذ انشغل الفتى «بعضوه وحده» وهو يمارس كافة الممارسات: مع النبات «المرأة ـ الشجرة» والحيوان، ومع ذات الجنس: يغري صبياً صغيراً ويغتصبه، ويسلم ذكورته لأجنبي «حساس» يلتقطه بسيارته من أحد شوارع المدينة...

أمّا إذا خلا العالم من هذا كله ـ وهل يخلو؟ ـ بقي له الاستمناء أي تحول الذات إلى موضوع طلباً للذة! إنه ينمو ويشب ويتفتح وعيه في عالم خلا من الكوابح والضوابط ومحددات السلوك... في طنجة[2]: ماذا يُمكنك أن تجد سوى المهربين والمجرمين والقوادين والبغايا واللصوص والشواذ وكل الخارجين على كل الأعراف والقوانين؟ خليط من نفايات الأجناس والجنسيات، تجذبهم إليها الميناء المفتوحة على البحر والمحيط، يتصارعون ويهربون ويقودون ويتقاتلون، ويدخلون السجون ويرحلون، وصاحبه «الخبز الحافي» ملقى في القاع، وعليه أن يشق لنفسه طريقاً وسط الشر بالشر: يتعارك ويسرق ويتسول ويطلب اللذة، يعرف الكيف والحشيش

---

(١) بورنوغرافيا: مصطلح يعني أفلام وصور الجنس المكشوف.

(٢) هي المدينة التي جعلها محمد شكري محور روايته، حيث عاش وترعرع في محاضن الفساد والرذيلة والانحلال، حسب ما ذكر عن نفسه في هذه الرواية.

وأقراص المعجون والخمر والمبغى، يبيت في الحدائق والأفران والسكك، في الحظيرة تبول فوقه فرس، ويتعرض - وهو اللص - للسرقة، وينام غير آمن من التعرض للاغتصاب...، وقد استطاع محمد شكري أن يرسم في «الخبز الحافي» صورة فنية منسقة لتكون وعي الصبي من خلال صدامه بعالم مدبب ذي أشواك وأنياب، عالم خارج عن الكتلة الرئيسية للمجتمع، واقف في مواجهتها، معادٍ لها، رافض لقوانينها وأعرافها ومواضعاتها وأنماط سلوكها، متخذ تجاهها سبل التسول منها أو سرقتها أو اغتصابها أو العدوان عليها، يستمد قوانينه من عالم المواخير والسجون وكل مؤسسات الخارجين على كل القوانين: المجرمين والشواذ والسكارى والبغايا واللصوص والمهربين...

إنه يلوك أفكاراً وجودية طوال الوقت، ولايجد له ملاذاً إلاّ في الجنس «الذي يمارسه في حفلات جماعية غالباً» والمخدر، وهو قادر على استبطان رؤيته والتعبير عنها وهو تحت تأثير المخدر...، لقد رفض كل ما هو «طبيعي ومقدور» رفض أن يكون مثل هذا أو ذاك من عقلاء الناس، رفض الزواج والاستقرار والعمل، لكن المشكلة لايقف عند حدود الرفض، بل يتجاوزها إلى ما يشبه كراهة الإنسان... من حيث هو كذلك... في لغة محمد شكري غنائية واضحة، خاصة حين يتوقف لينظر داخله، وهو تحت تأثير المخدر أو حرقة الشبق...)[1].

هذا تلخيص مختصر لما في الرواية القذرة من مضامين، تعمدت أن أنقله من قلم كاتب حداثي ومجلة حداثية بدلاً من استخراج هذه المضامين من الرواية نفسها، حتى لايقول قائل بأن هذا من التحامل أو تحميل الكلام مالايحتمل.

والعجيب في الأمر أن هذا الناقد الحداثي بعد أن ذكر كل هذه

---

(١) مجلة الناقد، العدد الثالث عشر، يوليو ١٩٨٩ م/١٤٠٩ هـ: ص ٦٦ - ٧٠، والمقال لفاروق عبدالقادر بعنوان محمد شكري هذا الكاتب الرجيم.

القذارات الخلقية والسفلية السلوكية، يختم كلامه بالثناء على محمد شكري وعلى طريقته[1]، ويصفه بأنه يضع أسساً أخلاقية مغايرة، وهو قول يدل على عمق السرطان الانحلالي في حياة وسلوك وأفكار هؤلاء الذين يفاخرون بالنجاسة، ويتمدحون بالنذالة، ويمجدون الخبث والقذارة والعفن، يقول هذا الناقد: (محمد شكري ظاهرة متفردة بين كتاب الأدب العربي المعاصر: يتفرد بتجربة حياته التي كان لها أكبر الأثر في طريقة تعبيره عنها، إنه لايتعمد أن يقص بطريقة معينة لكنه يحاول أن ينقل لقارئيه الخبرات التي وشمت جسده وروحه، ولعله من قاع ما يبدو أنه «لا أخلاقي» يضع أسس[2] «أخلاقية» مغايرة)[3].

لقد بلغ بهم التبجح بالرذيلة درجة لاتعقل ولاتستساغ، وإن قارئ هذه الرواية النجسة ليحس بتحول هذا الإنسان إلى حضيرة الحيوانية بل إلى أبشع من ذلك، ومع ذلك تجد المدائح والإطراءات، والتبريرات الهزيلة، والدفاع السخيف، والامتداح للرذيلة والسخف والفساد والهوان، ولنأخذ على ذلك مثالاً غير ما سبق، ففي كتاب «الكتابة خارج الأقواس» يخصص مؤلفه فصلاً بعنوان من «العبث إلى التمرد» يتحدث فيه عن محمد شكري وروايته «الخبز الحافي» وليس بالإمكان نقل كل ما في هذا الفصل ولكن أكتفي ببعض الشواهد.

يقول المؤلف: (... كانت رواية الكاتب المغربي محمد شكري «الخبز الحافي» حجراً ألقاه في بحيرة النقد العربي الراكدة فراحت دوائره المتلاحقة المتوالية تنكسر الواحدة تلو الأخرى على شاطيء القارئ العربي، لاتمنحه إلاّ فرصة مراقبتها وهي تركض نحو العدم، دون أن تمكنه من

---

(١) ونحو هذا الصنيع ما كتبه الحداثي عبده وزان في مجلة الناقد، العدد التاسع، مارس ١٩٨٩ م/١٤٠٩ هـ: ص ٦١ ـ ٦٣ تحت عنوان أول سيرة ذاتية عربية لاتهاب الجرأة الغامضة.

(٢) هكذا والصواب أسساً.

(٣) مجلة الناقد، العدد الثالث عشر، يوليو ١٩٨٩ م/١٤٠٩ هـ: ص ٧٠.

إدراك محنة ذلك الحجر الذي أحدث كل هذه الدوائر.

ثم يتناول قضية كون هذه الرواية سيرة ذاتية ـ علماً أن مؤلفها كتب تحت عنوانها عبارة «سيرة ذاتية روائية ١٩٣٥ ـ ١٩٥٦»[١] ـ وراح هذا المحامي الحداثي يتمحل في الكلام ويتقعر في العبارات حول واقعية أحداث هذه الرواية!! ثم ختم تقعره البنيوي الألسني بقوله: (من هنا لايصبح معنى للتساؤل عما إذا كان هذا الحدث قد وقع أو أنه لم يقع، وتتساوى عندها فرضية الحدث أو احتماله بل استحالته كذلك، فالحقيقة الوحيدة في النص الإبداعي هي هذه الحقيقة اللغوية[٢]...

لو فرضنا جدلاً أن هذه القصة تصويراً لسيرة ذاتية للمؤلف فإن مجرد كتابتها انطلاقاً من بداية محدودة للوصول إلى نهاية محدودة معناه وضعها بين قوسين هما البداية والنهاية اللتان اختارهما لها المؤلف على نحو قاصد، ومن شأن هذين القوسين أن يفصلاها عن جملة التراكمات اليومية التي يحياها الإنسان...، ولعل مما زاد إغراء التساؤل عما إذا كانت هذه السيرة ذاتية للمؤلف تلك العبارة التي جاءت تذييلاً للعنوان وهي «سيرة ذاتية روائية ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦»[٣] فأحالتها إلى ما يشبه المذكرات والاعتراف بأحداث محددة في سنوات محددة عن عمر كاتبها، ومع ما في هذه العبارة من احتمال التضليل إلاّ أن علينا أن ندرك محاولة المؤلف ربطها بنموذجية الضياع التي عاشها الجيل الذي ينتمي إليه، وكذلك محاولة غرسها في صميم وجدان المتلقي الذي يشاطره هموم المرحلة دون أن يعني هذا أنها صورة تسجيلية لواقع معين عاشه هو على نحو خاص...)[٤].

ماذا يريد أن يقول هذا المحامي الحداثي؟ إنه يحاول أن ينفي أن

---

(١) انظر: الخبز الحافي: ص ٥.

(٢) هذا وفق خرافة المذهب البنيوي والمنهج الألسني التي يتبنى الكاتب نشرها والدفاع عنها كعقيدة ومنهج.

(٣) الصواب ١٩٣٥ ـ ١٩٥٦ كما في الرواية: ص ٥.

(٤) الكتابة خارج الأقواس لسعيد السريحي: ص ٩٧ ـ ١٠٠.

تكون هذه الرواية الجنسية الداعرة الواصفة حياة التشرد والضياع، صورة واقعية لحياة أحد زملائه أو أساتذته في الحداثة؛ لأن الرواية تحتوي الإدانة السلوكية الكاملة للحداثيين الذين امتدحوا أو دافعوا عن هذه الرواية أو عن صاحبها.

ومع ذلك لم يتوقف عند هذا الحد في نفي كونها سيرة ذاتية رغم كتابة مؤلفها ذلك تحت عنوانها، بل تجاوز ذلك إلى الفصل الأخلاقي المتعمد ـ على الطريقة العلمانية بين الأخلاق والنقد، ثم التبرير الهابط لاستخدام الجنس في هذه الرواية، يقول الكاتب المشار إليه: (ومن تلك الدوائر الراكضة نحو العدم والتي أحدثتها رواية محمد شكري عندما ألقى بها في بحيرة النقد العربي الراكدة تلك النظرة إليها على أنها من الأعمال الإباحية التي كتبت لدغدغة الغرائز والشهوات، وهو حكم جزئي، إن وجد لدى المربين والقائمين على أمور المجتمع ما يبرره فإنه لايجد له ما يبرره عند النقاد، ذلك أنه حكم على صفحات أو أسطر محدودة من الرواية مبتورة عن سياقها الذي وردت فيه، وهو حكم ينطوي على تجاهل لذلك الجو المأساوي الكئيب الذي تم توظيف الجنس في ثناياه لكي يؤدي دوراً محدداً باعتباره فعالية من فعاليات النشاط الإنساني من ناحية، وباعتباره بعداً رمزياً يكشف من خلال توتر العلاقة بينه وبين الأبعاد الأخرى عن جملة من الحقائق الإنسانية من ناحية ثانية)[1].

ويتمدد في عباراته الاعتذارية الممزوجة بالمدائح المبطنة للرواية وكاتبها على مدار مايزيد عن عشر صفحات، لا هدف لها إلاّ نفي أن تكون الرواية سيرة ذاتية لمحمد شكري، ونفى أن تكون الرواية مجرد جنس وحشيش وخمر ولواط ونشل، ومحاولة إثبات أن لها أبعاداً إنسانية عميقة، ولها معايير خلقية حديثة تتفق والحياة خارج أقواس الضوابط الخلقية والسلوكية والدينية.

---

(١) المصدر السابق: ص ١٠٠ ـ ١٠١.

ويكفي القارئ العاقل أن ينظر في الدفاع الواهي عن كون هذه الرواية سيرة شخصية لمحمد شكري، مع إصرار المؤلف أنها سيرة ذاتية، ليقيس على ذلك بقية المقال، الذي يوصل إلى قارئه صورة من صور التضليل والمخادعة الحداثية، والدفاع الباهت الهابط عن رواية قال عنها نقاد الحداثة بأنها رواية سفلية، جنسية، عبثية، كما سبق ذكره ونقله عن نقاد حداثيين.

وبعيداً عن قول أي ناقد وتحليل أي كاتب، لايُمكن لقارئ هذه الرواية، إذا كان ممن يحترم عقله وعلمه وثقافته إلاّ أن يخرج بنتيجة واحدة مؤداها: أن هذه الرواية وصاحبها في أسفل دركات الانحطاط الخلقي وأردى درجات البهيمية الشهوانية.

وكما اتكأ أدونيس على خلفيته الباطنية وأخذ من الشلمغاني مضامينه الإباحية، نجد حسن حنفي، يتكيء على فلاسفة الصوفية ويثني عليهم لعدم تفريقهم بين النكاح والسفاح، والشذوذ الجنسي، يقول: (... والصوفي يتحدث بحرية تامة مع الله، ويتكلم عن علاقته العشقية مع الله وأنه لا فرق بين الذكر والأنثى، الله يعامله جنسياً وهو يعامل الله جنسياً، الشيخ الصوفي مع المريد والمريد مع الشيخ، ولا فرق بين الشذوذ الجنسي والنكاح الطبيعي...)[1].

وهكذا نجد أن الحداثيين يبحثون في أروقة النجاسة التاريخية وسراديب التحلل المعاصر لتبرير التحلل وتمجيد الرذائل وتسويغ الانحراف.

ومن تمجيد الرذائل الخلقية مدح أنسي الحاج للجريمة، وتبريره للإجرام، وذلك في قوله: (الجريمة سلك كالرهبنة، ولها عفتها وصوفيتها، وكلما أوغل المجرم في سلكه ازداد ترقياً في المقام، والمجرم الكبير زاهد بما ليس جريمة كما هو القديس زاهد بما ليس الله)[2].

وفي الوقت الذي يتهكم فيه بالدين ويسب الله رب العالمين يعتبر أن

---

(١) الإسلام والحداثة: ص ٣٨٩.

(٢) خواتم: ص ٦٣ ـ ٦٤.

الجنس من الأمور المقدسة، ولذلك لايجب أن يخدش هذا المقدس عنده بأي شيء ولو كان بالنكتة، ولعله في تقديسه للجنس يمثل عقيدة بعض الطوائف الهندية التي تعبد فرج الرجل والمرأة، يقول الحاج: (وأكره النكتة، كذلك، لأنها معلبة، موجهة لتوليد «ضحك السهرات» الأكثر سخافة، وأمّا النكتة الجنسية فلأنها، فوق ذلك تهرج في موضوع مقدس، مهيب ككل آية هو الجنس)[1].

ومن هذا الهيام بالجنس استطرد واصفاً الأدب قائلاً: (يحاول الأدب لا محاكاة الطبيعة بل تقليد العناق الجنسي)[2].

إن هذا الوصف ينطبق حقيقة على أدب الحداثة المغموس في بالوعات الجنس، كما أرادوا تنظرياً وتطبيقياً وممارسة؛ ولذلك لم يُخف إنسي الحاج إعجابه بنظرائه من ذوي الانحطاط الخلق، وذلك في قوله: (إعجابي بمفرغي عبقرياتهم في الضياع، في العقم، (بالكسل، الكحول، المخدرات، النساء، الهرب، فيه حب لهم، فهمٌ لهم، وفهمٌ عبرهم، وعبر نموذجهم التبذيري، لرسالة ما عن حقيقة العلاقة التي يجب أن تقوم بين المبدع وعمله)[3].

لايتوقع من منغمس في الضياع والفساد والشر والرذيلة أن يصدر منه أقل من هذا، بيد أن المهم أن نستدل بهذا القول وأشباهه الكثيرة على أسس التصور الأخلاقي لدى أصحاب هذا الاتجاه.

وليس هذا قولاً فذاً، بل لهم في تمجيد الرذائل الخلقية الباع الكبير، والكلام الكثير[4].

---

(١) المصدر السابق: ص ٩٩.

(٢) المصدر السابق: ص ١١٢.

(٣) المصدر السابق: ص ١٢٥، ونحو ذلك عند محمد الماغوط في الآثار الكاملة: ص ٥٩.

(٤) انظر أمثلة على ذلك في: الأعمال الشعرية لأدونيس ١/ ١٣٦، ١٤١، وزمن الشعر له: ص ٤٦، واتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ١٣٧، ١٣٨ ـ ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ومجلة الناقد عدد ٩: ص ٨، والعدد الثامن عشر: ص ٤ ـ ٥، ١٨، وديوان=

أمَّا الموقف العدائي ضد الأخلاق القويمة والسلوكيات الفاضلة فتشهد به أقوالهم السابقة، المتضمنة مدح الرذائل والانحرافات الخلقية، وهذا يلزم منه ذم أضدادها من الفضائل والمكرمات.

بيد أنه يلزم الحكم عليهم بالصريح دون اللازم، وقد سبق ذكر شيء من ذلك في معاداتهم للأخلاق الفاضلة، وسوف أذكر هنا بعض الشواهد مشيراً إليها إشارات سريعة.

فها هو أحدهم يصف القرآن العظيم كلام الله تعالى بأنه فاتح لشهية الجماع[1]، وفي هذا تدنيس قبيح، وتشويه مقصود للقرآن العظيم الدال على كل مكرمة، والناهي عن كل نقيصة ورذيلة، ونحو هذا القول، الكتاب الذي ألفه أحد الحداثيين بعنوان «الجنس في القرآن»، ومن فصوله «أصل الجنس في القرآن»، والدلالات المحيطة به، وثنائية الجنس في القرآن والعلاقات القائمة بينهما، والجنس بين بعديه الدنيوي والأخروي في القرآن»[2]، وقد ملأه بالألفاظ والمعاني الفرويدية، والتدنيس والاستخفاف بكلام الله وشريعته.

وعلى منواله جرى الكاذب المسمى بالصادق النيهوم، حين تعرض لأحكام الإسلام وأخلاقه، في كتاب «الإسلام في الأسر» خاصة في الفصل الرابع عشر «سر وراء الحجاب»[3] الذي ملأه بالتهكم بالعفاف والحجاب والفضيلة وأحكام الختان التي اعتبرها من اختراع سكان الصحراء ثم من

= صلاح عبدالصبور: ص ٨، ١١، ٢٢٢، ومظفر النواب: ص ٩٧، ٩٨، ١١٣، وديوان أمل دنقل، مقدمة المقالح له: ص ١٧، وامتداح نزار قباني للوجودية فكرة وممارسة في الأعمال الشعرية له: ١/ ٣٣٠، ٣٣٢، ودعوته للتمرد والدعارة ٢/ ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٩٧، وسقوط الإمام: ص ٧٥، ٨٢، ١٣٦، ١٤٢، وانظر الفصل المخصص عن الجنس عند نجيب محفوظ في أدب نجيب محفوظ وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب للدكتور سيد أحمد فرج: ص ٢٦٣ ـ ٣٠٨.

(١) انظر: مجلة الناقد، عدد ٨: ص ٦٩ والقول لعبود سليمان.

(٢) انظر: الجنس في القرآن لإبراهيم محمود، وهذه الفصول المشار إليها تقع في الصفحات: ص ٢٥ ـ ١٥٤.

(٣) انظر: الإسلام في الأسر: ص ١١١، وفي مجلة الناقد عدد ١٣: ص ٦ ـ ٧.

اختراعات اليهود، وأمَّا حسين أحمد أمين فإنه يمجد بهيام علماني مشروعات خلع الحجاب عن المرأة، وإخراجها إلى الشارع والعمل والاختلاط ويأسف أشد الأسف للدعوة الجديدة المنتشرة بين الشباب والشابات لعودة الحجاب[1].

وأمَّا حسن حنفي فإنه ينادي باختراق المحرمات الثلاث في ثقافتنا ـ حسب قوله ـ وهي الدين والجنس والسياسة[2].

وأمَّا محمد بنيس فإنه تناول هذا المضمون بصيغة أخرى حين تعرض له باعتباره من أعظم عوائق التقدم عندها، ثم عمم الحكم على الحجاب الذي يريد إزالته، وكأنه يريد المحرم أو الذي له اعتبار حكمي شرعي أو اعتباري عرفي، وقال بأن الحجاب في المرأة والبيت والله تعالى والجنس والسياسة، ثم نادى بوجوب تمزيق الحجاب عن هذه كلها[3].

وهي دعوة صريحة للكفر والرذيلة الخلقية والفوضى والانحلال ومعاداة فجة للاستقامة والفضائل وكل أصولها.

أمَّا نزار فإنه في دعوته إلى الجنس ينادي بتعاطيه علناً بالأسنان والأظافر، والتخلص من ميراث القبيلة وشريعة الجاهلية في الحسب والنسب، ويعتبر الجنس أساس كل تقدم وحضارة[4]، ويتصدى جبرا إبراهيم جبرا لكيل الشتائم ضد الحجاب والمتحجبات[5]، وكيل الثناء للفاجرات، وشتم العفيفات[6] وامتداح الفجور والإباحية النسائية والدعارة[7].

---

(١) انظر: رأيهم في الإسلام: ص ٨٢.
(٢) انظر: الإسلام والحداثة: ص ٣٨٧.
(٣) انظر: المصدر السابق: ص ٣٩٠.
(٤) انظر: أسئلة الشعر: ص ١٩٧ ـ ١٩٨.
(٥) انظر: المجموعات الشعرية لجبرا: ص ٤٠، ونحو ذلك في: الإسلام والحداثة: ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ كلام لمالك شبل.
(٦) انظر: المصدر السابق: ص ٥٠ ـ ٥٤.
(٧) انظر: المصدر السابق: ص ٩٢ ـ ٩٣، ١٠٧، ١٨٠.

أمَّا توفيق صايغ فإنه يعتبر المحافظة على عذرية البنت مجرد تزمت شرقي ينبيء عن حب لرؤية الدم[1]، وأبشع من هذا القول وأخبث ما سطرته نوال السعداوي بخبث إباحي علماني حداثي في كتابها «دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي»، حيث خصصت كلاماً طويلاً عن «مفهوم العذرية وحشدت قصصاً مأساوية تذكر أنها مرت بها في عيادتها لتخلص إلى أن مفهوم العذرية مشكلة شرقية تدل على التزمت في قضايا العيب والشرف»[2].

ثم تحدثت عن «الشرف والدم في عصرنا الحديث» وساقت في مطلعها ملخصاً «لدعاء الكروان» لطه حسين ثم أقوالاً أخرى لنجيب محفوظ وغيرهما، لتقول إن مفهوم الشرف وأخلاقيات الشرف الشائعة عند المسلمين ليست سوى علامة تخلف وظلم يمارسها المجتمع ضد المرأة[3].

وفي كتاب «المرأة العربية والمجتمع التقليدي المتخلف» أصرح العبارات المحاربة لمفاهيم الأخلاق والفضيلة والعفاف[4] إضافة إلى محاربة شرع الله تعالى ومناقضته والتهكم بأحكامه وقضاياه.

وفي كتاب «مباهج الحرية» ينقل المؤلف رأي حداثي كبير في قضية العيب والحرام، وهذا نصه: (الاستمتاع بالحياة ليس عيباً ولا حراماً، إن العيب هو التمتع على حساب الآخرين واحتياجاتهم، والمعاب أساساً هو سلطة القمع والنهب، أمَّا الحرام فهو تلك التابوهات المتجسدة في أوامر وموانع صارمة تحرم المتعة على الإنسان، وتثير الشعور بالخطيئة والندم، وتصدر عن سلطة قمعية، بطركية، لاهوتية)[5].

---

(١) انظر: المجموعات الشعرية: ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٢) انظر: دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي: ص ١٧ ـ ٣٠.

(٣) انظر: المصدر السابق: ص ٧٩٠ ـ ٧٩٦.

(٤) انظر: المرأة العربية والمجتمع التقليدي لسلوى الخماش.

(٥) مباهج الحرية في الرواية العربية لشاكر النابلسي: ص ١٢٧، والقول لغالب هلسا.

ويقول: (إن من مهام الأديب الدعوة إلى الاستمتاع بالحياة، ورفض مفهوم بؤس الحياة الفاشي، وتأكيد كل ما هو واقعي وصادق في إطار التجربة الحية)[١].

وفي الكتاب الذي خصصه مجموعة من العلمانيين للمرأة وسموه «هاجر» تحدث نصر أبو زيد تحت عنوان «المرأة البعد المفقود في الخطاب الديني» وكال فيه الشتائم الحداثية في صيغ «التماهي» و«البنيوية» والدراسات المغالطة، المستهدفة تقويض أحكام الإسلام القاضية بالعفة والحياء والتكريم للمرأة[٢].

وتحت عنوان «في القيم» خصصوا الحديث فيه عن «مفهوم الشرف» وتحدث فيه ثلاثة منهم، وأولهم امرأة اعتبرت أن الحديث عن الشرف دعارة في الرأي والكلمة تصيب بالغثيان واعتبروه ازدواجية في المعايير الأخلاقية، وأن الشرف في النهاية التزام بالذات وبالآخرين[٣].

واعتبر الثاني أن مفهوم الشرف مفروض من قبل الرجل ـ الأقوى اقتصادياً ـ على المرأة، وذلك لكي يحقق مصلحته[٤].

أمَّا ثالث المتحدثين فكانت نوال السعداوي التي كررت مقولاتها المناوئة لعفاف المرأة وحجابها والداعية إلى الاختلاط والتبرج والحرية الجنسية[٥].

أمَّا أمل دنقل فإنه يغني لكي تستعيد المرأة راية الفكر السليبة:

(ولكي يهوي حجاب الخوف عن روح ربات الحجال المستريبة)[٦]

---

(١) المصدر السابق: ص ١٢٩.

(٢) انظر: هاجر كتاب المرأة «١»: ص ٥١ ـ ٨٤.

(٣) انظر: المصدر السابق: ص ١٦٤ والقول للطيفة الزيات.

(٤) انظر: المصدر السابق: ص ١٦٦.

(٥) انظر: المصدر السابق: ص ١٦٨ ـ ١٧١.

(٦) ديوان أمل دنقل: ص ٤٣٠.

ونحوه قول نزار:

(قضينا العمر في المخدع

وجيش حريمنا معنا

وصك زواجنا معنا

وصك طلاقنا معنا

وقلنا الله قد شرع

لياليا موزعة

على زوجاتنا الأربع)[1].

ثم يضيف:

(تظل بكارة الأنثى

بهذا الشرق عقدتنا وهاجسنا

فعند جدارها الموهوم قدمنا ذبائحنا

وأولمنا ولائمنا

نحرنا عند هيكلها شقائقنا

قرابيناً... وصحنا «واكرامتنا»

صداع الجنس مفترس جماجمنا

صداع مزمن بشع من الصحراء رافقنا

فأنسانا بصيرتنا، وأنسانا ضمائرنا)[2].

لقد قلب نزار القضية رأساً على عقب، فحول العفاف والشرف إلى

---

(١) الأعمال الشعرية ١/ ٦٣٦.

(٢) المصدر السابق ١/ ٦٣٩.

عقدة وهاجس جنسي، في حين أن الصداع المزمن والهاجس المستمر المفترس للعقول والجماجم هو حال الذي لا يرى الحضارة إلاّ جسداً وجنساً، ولايرى التقدم للإنسان إلاّ من خلال الأعضاء التناسلية.

ولنأخذ مثالاً على مقدار ما وصل إليه من إباحيته، يقول:

(كنا ثمانية معاً

نتقاسم امرأة جميلة

كنا عليها كالقبيلة

كانت عصور الجاهلية كلها

تعوي بداخلنا

وأصوات القبيلة)[1].

ويقول:

(كنت أريد

أن أنهي عصر البربرية

وأقتل آخر الخلفاء

كان في نيتي ـ عندما أحببتك ـ

أن أكسر أبواب الحريم

وأنقذ أثداء النساء

من أسنان الرجال

وأجعل حلماتهن

ترقص في الهواء متهيجة

---

(١) المصدر السابق ٢/١٢٣.

كحبات الزعرور الأحمر)[1].

وهكذا ينصب أحابيل كلماته وتلاعباته اللفظية ليخدع السذج والمغفلين، يقلب المعاني قلباً كاملاً، فهو كمن يصف الظلام بالضياء، والنور بالعتمة، وليس هذا عجيباً على امرئ طمست الجاهلية والشهوانية بصيرته، ولكن العجب أن ترى أفواج المعجبين والمعجبات يحطون على إفرازاته الكلامية هذه.

وفي معرض ذمه لأخلاق العفاف عند المسلمات ودعوته إلى الإباحية يضع أمه رمزاً لذلك ويقول:

(فأمي «دقة قديمة» ولا تفهم كيف يكون للمرأة

حب أول وثان وثالث وخامس عشر

أمي تؤمن برب واحد وحبيب واحد وحب واحد)[2].

هذه «الدقة القديمة» التي يصف بها نزار عفاف المسلمات هي التي يسعى في أكثر كلامه إلى وأدها وإذهابها من الواقع جملة وتفصيلاً، ليقوم في مكانها سوق النخاسة الذي يصول فيه الشهوانيون ويجولون على كيان المرأة، بعد أن يخدعوها بأن هذه هي الحرية، وهذا هو التقدم.

وعلى كل حال فإنه قد أكثر من هذا الكلام وكرره تكراراً مملاً[3].

وعلى نحو من هذا الهجوم على العفاف قول محمود درويش:

(تقول شيئاً ما عن النهر

المخبأ في عباءات النساء القادمات من الخريف)[4].

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٣٩٨.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٧٢٨.

(٣) انظر: المصدر السابق ٢/ ٦٣٦، ٦٦٧، ٧٢٨، ٨٠٦ ـ ٨٠٧، ٨٧٥، ٩١٢ ـ ٩١٣ و ٣/ ٢٣.

(٤) ديوان محمود درويش: ص ٦٣٧.

وفي رواية الخبز الحافي دعوة صريحة للزنا ومحاربة للزواج وتبرير للدعارة وفرح بها وبأهلها[1].

وفي ختام هذا الفصل أذكر بعض الأمثلة على الانحراف الخلقي عند الحداثيين من خلال كلامهم الداعي إلى هذه الانحرافات، أو من خلال ممارساتهم التي اعترفوا فيها بالانحلال الخلقي، وهي شواهد قليلة من بحر هائل متلاطم لايُمكن حصر كل ما فيه، وهذه الشواهد مجرد قطرة من ذلك البحر، وسوف أشير إليها إشارات عابرة تتضمن ما قالوه في كتبهم وفق الترتيب المعجمي:

١ ـ الإباحية الجنسية:

من أخلاقيات الحداثة دعوتهم إلى الإباحية الجنسية من خلال استخراجهم لأقوال الزنادقة من الصوفيين والباطنيين، وإشادتهم بها، ودعوتهم إلى الأخذ بما فيها، ومن خلال تقريرهم أن الإباحية هي أصل التحرر والتحضر والإزدهار، وأن الحرية الجنسية أساس كل حرية، وأن خطوة إخراج الجنس والجسد من المحرم إلى علنية الممارسة واللغة من المفاصل الأساسية، مع اعترافات واضحة بالمعاشرة الجنسية الجماعية، ودعوة إلى تطبيع الجنس، واقتفاء آثار الغرب في ذلك، والإتيان بكلام على لسان امرأة لها عشاق يضاجعونها جميعاً وهي تفاخر بذلك، والدعوة إلى ممارسة الجنس في الطريق[2].

---

(١) انظر: الخبز الحافي: ص ٢٠٩، ٨٥، ١١٢، ١٦٥، ١٨٨، ٢٢١ ـ ٢٢٢، والشطار: ص ٤٤، ٤٩، ٥٢، ٩٨، ١٣١، ١٥٧.

(٢) انظر: الأعمال الشعرية لأدونيس ١/ ٥٤٨، ٥٦٦، ٥٦٩ ـ ٥٧٠، والثابت والمتحول ٣ ـ صدمة الحداثة: ص ١٨٨ ـ ١٨٩، وقضايا وشهادات ٢/ ١٠٥، ومجلة الناقد عدد: ٩ ص ٧، ٨ كلام أنسي الحاج، وأسئلة الشعر: ص ١٨٠، ١٨١ كلام نزار قباني، وديوان صلاح عبدالصبور: ص ٢٢٢، والآثار الكاملة للماغوط: ص ٩٢ ـ ٩٣، ١٠٧، ١٠٨، والمجموعات الشعرية لتوفيق صايغ: ص ١٣٣، ١٨٧، ٤٠٨، وخواتم لأنسي الحاج: ص ٢٥ ـ ٤١، ومظفر النواب شاعر المعارضة السياسية: ص ٤٩ وفيها أشاروا إلى القصيدة الإباحية، لعلاء الدين عبدالمولى المنشورة في مجلة ألف، العدد ١٤ ص ٣٦ ـ ٣٩، وديوان أمل دنقل: ص ١٧ من مقدمة المقالح للديوان، وديوان دنقل أيضاً=

٢ ـ احتراف الدعارة:

تضمن هجومهم على مبادئ الشرف والعيب والعرض، الإشادة والامتداح للدعارة، وبيوتها وأربابها، ووصف أحوال المومسات، وإظهار التعاطف معهن، وتصوير أحوالهن مع الزناة، والتمني على لسان أستاذ داعر أن يجد كل ذكر من طلابه مع أنثى من طالباته يواقعها، والإطناب في الثناء على البغايا واعتبارهن نموذج تحرر وانطلاق، مع تبرير للتلاعب بالمرأة والانتقال جنسياً بين امرأة وأخرى[١].

وقد رسم لهم سارتر زعيم الوجودية من ضمن من رسم طريق الدعارة من خلال حياته مع عشيقته يوفوار، ومن خلال الكتاب الذي ألفه سنة **١٩٤٦م/ ١٣٦٥هـ** بعنوان «المومس المحترمة»[٢]!!.

٣ ـ الاستمناء:

وصف لحالات استمناء وصفاً مفصلاً، وتبرير لهذه العملية، وجعل

= ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦، والأعمال الشعرية لنزار قباني ١/ ٤٣١، ٢/ ١٢٣ ـ ١٢٤، ٢٣٦، ٥٠٤، ٣/ ٢٣٦، وديوان محمود درويش: ص ٧١ ـ ٧٢، وديوان سميح القاسم: ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢، وذكريات الجيل الضائع: ص ٤٧ ـ ٥٠، ودراسات عن الرجل والمرأة لنوال السعداوي: ص ٨٨٣ ـ ٩٠٠، والدراسة التبريرية لشاكر النابلسي عما أسماه «الحرية الجنسية عند غادة السمان» في كتابه مباهج الحرية في الرواية العربية: ص ٤١٢ ـ ٤١٧، ففي هذه الدراسة كثير من ملامح الحداثة العربية وأصول نظرتهم إلى الجنس.

(١) انظر: ديوان السياب قصيدة المومس العمياء: ص ٥٠٩ ـ ٥٤٢، وديوان صلاح عبدالصبور: ص ٧٤٤ ـ ٧٤٥، ٧٩٥، ٧٦٧ ـ ٧٦٨، والمجموعات الشعرية لجبرا: ص ٩٢ ـ ٩٣، ١٠٧، ١٨٠، ١١٥ ـ ١١٦، ومظفر النواب: ص ٩٨، والأعمال الشعرية لنزار ١/ ٥٣٠، ٥٣٥، ٢/ ١٠٨، ١١٢، ١١٨، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٣، ١٢٣ ـ ١٢٤، ٢٣٦، والآثار الكاملة لمحمد الماغوط: ص ٩٦، ١٠٦، ومدن الملح ١/ ٢٣٤، ٢٣٦، ٢/ ٥٢ ـ ٥٣، ٤٩٩، والخبز الحافي: ص ٤٢ ـ ٤٤، ٤٥ ـ ٤٦، ٤٨، ٦٠، ٦٢، ١٣٤، ١٦٥، ١٨٨، وأقصى درجات العزلة لابن جلون: ص ١٠١ ـ ١٠٧، ودراسات عن المرأة والرجل لنوال السعداوي: ص ٢٨٤، ٨٨٣، ٧٩٧، وامرأة عند نقطة الصفر: ص ٩٥ ـ ٩٩، ١٠٤.

(٢) انظر: نهاية عمالقة في حضارة الغرب: ص ١٢٠.

السبب الرئيسي في حدوثها فقدان الاتصال المطلق بين الفتيات والفتيان، وعدم توفر المال اللازم لمعاشرة المومسات، وجعل الاستمناء ممارسة عادية طبيعية لا توجب المنع والتحريم، وصياغة هذه الأقوال في لهجة علمية مصطنعة تضفي هالة كاذبة على أقوالهم الفاسدة، وذكر بعضهم للصور الجنسية وصور أغلفة المجلات المصرية واستمناؤه على صور الفنانات، ووصف أحوال فتاة تتحسس أعضاءها وتكتسحها الرغبة[1].

٤ ـ الاعتراف بالعربدة والانحلال:

الاعتراف سيد الأدلة ـ كما يقال ـ وفي كتب أهل الحداثة من الاعترافات المشينة مايدل دلالة قاطعة على المستوى الأخلاقي الذي يعيشه أهل هذه الملة، حيث جعلوا العربدة وإغراق البشرية بطوفان النشوة والشهوة، والتباهي بالدخول في غرف الحب الضيقة وفتح أقفال الجنس، والاعتراف الصريح بأن ما يقال في الشعر من وصف للمارسات الجنسية قد وقع حقيقة، بل المفاخرة بذلك، والاعتراف بأن الشعر الجنسي هو مستودع ذكريات الشاعر وفضائحه وممارسته الواقعية، ووصف حالته مع الطفل الناتج عن الزنى بامرأة، واستبسالهم في الدفاع عن الرذيلة، والإقرار باحتراف الرذيلة والدعارة باسم الحب، وأحدهم يطالب الصحافة بالاعتراف به كواحد من أكبر فوضوي التاريخ، وكثير منهم يقر بممارسة الضياع وتعاطي الخمور والحشيش والتلصص من شقوق الأبواب، والتشرد وعشق الفضلات، ومعاشرة نساء عديدات من بلدان عديدة، وهناك من يعترف باللواط وممارسته داخل المسجد، وارتياد أماكن السكارى والبغايا والحشاشين، وتعاطي الحشيش في المسجد، وممارسة القوادة والسرقة والنشل[2].

---

(١) انظر: الخبز الحافي: ص ٣٥ ـ ٣٦، ١١٠، ١٦١، ١٦٣، ٢١٥، والشطار: ص ٢٨، ١٠١، ١٣٣، وأقصى درجات العزلة لطاهر بن جلون: ص ٩٧ ـ ١٠١، والذي يحاول أن يظهر فيه رداء طبيب نفساني فرويدي متخصص !!، ورواية ليلة القدر له: ص ٣٥.

(٢) انظر: قضايا وشهادات ٣/ ٣٩٢، وفيها أن من أصول حركة الحداثة الموضة والتحرر الجنسي وقضايا وشهادات ٢/ ٢٨٥، وفيه أن من سمات النص الحداثي: العودة إلى البدائية في الغريزة الجنسية وشاعرية الشهوة والجسد، ومجلة الناقد العدد الأول: ص ٧، =

٥ ـ أعضاء الجنس:

غرق الحداثيون إلى أذقانهم في ذكر الأعضاء الجنسية، ومواطن الإثارة في المرأة، واستخدموا ألفاظ الإغراء الجنسية بصورة مكشوفة أحياناً، وبصورة رمزية في أحيان أخرى بل وصفوا أعمالهم التأليفية والشعرية بأوصاف جنسية، فأحدهم يريد أن يعطي الكلمة عضواً جنسياً، والآخر يخرج من فرج الكلمة، والثالث يفتض القصيدة.

بل حتى المواطن والبلدان وصفوها بأوصاف الجنس فدمشق امرأة لها ثديان وصنعاء خصر ونحر وبيروت فرج مومسة.

ويصرون على تحويل الأشياء والأحداث إلى أنثى وأعضاء تناسل مثل قول أحدهم: افتض بكارة هذا الليل، وقول الآخر: كانت الجرائد تبيع للرماة أعضاءها التناسلية، وقول الآخر: يا وطني يا امرأة تفتح فخذيها للريح الغربية، ووصف الآخر لضوء القمر بقوله: منيّ القمر.

أمّا أوصاف العملية الجنسية، ووصف فرج المرأة وفرج الرجل وما حولهما وما فيهما، ووصف المؤخرة فقد أطنبوا فيه غاية الإطناب، وأبدأوا

= وأسئلة الشعر: ص ١٨٢، ١٩١، ١٩٦، والقول لنزار قباني، وقضايا الشعر الحديث: ص ٢٥٠، والقول لنزار أيضاً، والمجموعات الشعرية لتوفيق صايغ: ص ٩٦، وديوان أمل دنقل: ص ٨٥، ٢٤٨، والأعمال الشعرية لنزار ٢/١٠٨، ١١٢، ٢/١١٨، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٣، ٣٩٨، ٤٩٨، وديوان سميح القاسم: ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢، والآثار الكاملة لمحمد الماغوط: ص ٣٨، ٤٥، ٤٦، ٢١٤، ٩٩، والخبز الحافي: ص ١٦٧، ٣٠، ١١٢، ٢٢٧، ١٠ ـ ١٠، ١١٧، والشطار: ص ٣٨، ٤٢، ٥٢، ٨٥، ومسك الغزال: ص ٩١، وتوفيق صايغ سيرة شاعر ومنفي: ص ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٩٠، ٩١، وفيها اعترافات لتوفيق صايغ واعترافات عنه، وأضواء جديدة على جبران: ص ١٠٥ ـ ١٣١، وأحاديث عن جبران: ص ٧٥ ـ ٧٧، ١٠٢، ١٠٨، والجنوبي أمل دنقل لعبلة الرويني: ص ٤٧، ٥٧، ٦٤، ٦٥، وأقصى درجات العزلة لطاهر بن جلون مليء بالاعترافات الانحلالية، ولا استأذن أحداً: ص ٩٩، ونقل الدكتور السيد أحمد فرج في كتاب «أدب نجيب محفوظ»: ص ٥٢، اعتراف نجيب محفوظ في رسالة لأحد أصدقائه بالحشيش والزنى والقمار، ورواية الإنكار لرشيد بو جدرة: ص ١٣٣ ـ ١٥٠، ١٢٣، ١٢٥.

القول في ذلك وأعادوه وكرروه، ليحققوا غايتهم في تطبيع الجنس والنجاسة، وتحطيم الحشمة والفضيلة والعفة، وترويج الرذيلة والدعارة والانحلال[1].

---

(١) انظر شواهد ذلك في: الأعمال الشعرية لأدونيس ١/ ٣٨٤، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١٣ ـ ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢ ـ ٥٢٥، ٥٢٧، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٦، ٥٤٥ و ٢/ ٦٩، ٧٣، ١٠٠، ١٠٣، ١١١، ١٨١، ٣٩٨، ٤٦٩، ٤٧١، ٤٩٨، ٥٠٨، ٥٦٨، ٥٧٩، ٥٨٥، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٥٩٧ ـ ٦٠٣، ٦٠٥، ٦٠٦، ٦١٤، ٦١٥، ٦١٩، ٦٤٦، ٦٤٧، ٦٥٥ ـ ٦٥٨، ٦٦٢، واتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ٩٢ حيث قرر أن الشاعر الحديث يألف الصور الجنسية، وص ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ومجلة الناقد، العدد الأول ١٤ ـ ١٩ قصة بعنوان (من تاريخ مؤخرة) ليوسف الشاروني يتحدث فيها عن الإست وأحوالها وأوصافها، ومجلة الناقد، العدد التاسع: ص ٤٤، ٤٥ مقال لهادي محمد جواد، ومجلة الناقد، العدد العاشر: ص ٧، والعدد الثامن عشر: ص ٤ ـ ٥، وقضايا وشهادات ٢/ ٢٤٣، وديوان السياب: ص ٥٣٥، وديوان البياتي ٢/ ٣١٠، وديوان صلاح عبدالصبور: ص ١٤٨، ٣١٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤١٢، ٤١٥، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٨، ٤٤٠، ٧٩١، ٧٩٢، والأعمال الشعرية الكاملة ليوسف الخال: ص ١٣٠، ٢٧٣، والمجموعات الشعرية لجبرا: ص ١٨، ٢٧، ٨٥، ٩٢، ١٠٦، ١٠٨، ١١١، ١٢١، ١٢٥، ١٤٩، ١٥٤، ١٨٩، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢٣٢، ٢٤٣، ٢٤٢، ٢٤٣، والمجموعات الشعرية لتوفيق صايغ: ص ٢٢٨، والأعمال الشعرية لنزار قباني ١/ ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٦، ٢٤٥، ٣١٤، ٤٣٦، ٤٦٤، ٤٦٥، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٣٠، ٥٣٥، ٥٤١، ٥٤٨، ٦٥٦، ٦٦٢، ٧٦٨، ٢/ ٤٤، ٤٦، ٥٤، ٦٧، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩١، ٩٩، ١١٨، ١٢٣، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١٧، ٢٤٥، ٢٦٢، ٢٦٣، ٣١١، ٣٤٤، ٣٧٦، ٤٠١، ٤٤٥ ـ ٤٤٦، ٤٥٥، ٥٧٢، ٥٧٤، ٦٠٣، ٦٠٧، ٧٠٢، ٧٤٤، ٨٣٩، ٨٤٠، ٨٤٣، ٨٤٥، ٨٤٦، وديوان محمود درويش: ص ٢٧٦، ٢٩٤ ـ ٢٩٥، ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٧٥، ٣٧٩، ٥٣٦، ٥٥٣، ٥٦٤، ٦٢٢، وورد أقل: ص ٢٣، والأعمال الشعرية لمعين بسيسو: ص ٦٩١، وديوان سميح القاسم: ص ٦٢١، والأعمال الشعرية لممدوح عدوان ٢/ ٣٠ ـ ٤٧، ٤٨ ـ ٥٥، والخبز الحافي: ص ٣٥، ٣٧، ٤٢ ـ ٤٤، ٤٥ ـ ٤٦، ٤٨، ٦٠، ٦٢، ١٣٤، ٢٢٤، والشطار: ص ٥٧، ٨٣، وسقوط الإمام: ص ٧٦، ١٠٦، ومسك الغزال: ص ٤٩ ـ ٥٠، ٥٩، وألف وعام من الحنين: ص ٦، ١٩، ٢٧، ٣٢، ٣٥، ٣٨، ٥١ ـ ٥٢، ٥٩، ٦٠، ٦٧، والإنكار: ص ١٣٣ ـ ١٥٠، ١٢٣، ١٢٥، ومدن الملح ١/ ٤٨٢، ٣١٠، ٣٩٢، ٣٩٣، ومباهج الحرية في الرواية العربية: ص ٤١٣ ـ ٤١٦.

٦ ـ أعمال الجنس:

كما غرقوا في وصف أعضاء الجنس، فقد غرقوا أيضاً في وصف الأعمال الجنسية، وتفصيل ذلك تفصيلاً واسعاً قذراً، والتباهي بذكر أحوالهم الخسيسة مع المومسات، والشاذين، في وقاحة وجرأة وبذأة لا نظير لها إلاّ في مجلات وأفلام الجنس[1].

٧ ـ امتهان المرأة:

طالما ردد أهل الضلال والانحراف أنهم يسعون إلى تكريم المرأة وإعلاء شأنها، ورفع مكانتها، وهذه دعاوى عريضة يكذبها واقعهم المنظور، وكلامهم المنشور.

ويتجلى امتهانهم للمرأة أنهم سعوا في هدم أخلاقياتها المرتبطة

---

(١) انظر: الأعمال الشعرية لأدونيس ١/ ٢١٣ ـ ٢١٧، ٢١٨، ٢٣٦ ـ ٢٣٧، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١٣ ـ ٥١٤، ١٨١ و ٢/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧ ـ ٣٨٩، ٥٩٨، ٦٠٦، ٦٦٢، ٦٨٢ ـ ٦٨٣، ٧٠٦، ومجلة الناقد، العدد التاسع: ص ٤٤ ـ ٤٥، والعدد العاشر: ص ٧، وديوان السياب: ص ٥٥٦، ٦٧٩، ٦٨٠، وديوان صلاح عبدالصبور: ص ٢١٣ ـ ٢١٥، ٣٢٠ ـ ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٨، ٨٣٩، والأعمال الشعرية الكاملة ليوسف الخال: ص ٢٧٣، ٣٦٤، والمجموعات الشعرية لتوفيق صايغ: ص ١٣٣، ١٨٧، ٢٠٣، ٢٤٠، ٣٤٠، ٣٤١، وخواتم: ص ١١٢، ١١٥، وديوان سعدي يوسف: ص ٤٤، ١٤٦، وديوان أمل دنقل: ص ٩٠، ١٠٢، ١٦٣، ١٦٧، ٣٠٣، ٣٠٤، والأعمال الشعرية لنزار ١/ ٥٤١، ٥٤٨ و ٢/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦، ٥٧٤، وديوان محمود درويش: ص ٢٧٦، ٢٩٤ ـ ٢٩٥، ٣٣٧، ٣٣٩، والآثار الكاملة للماغوط: ص ١٦١ ـ ١٦٥، ١٨٦، ٢٠٤، ٢١٣، ٢١٩، ٢٣٠ ـ ٢٣١، ٣٠٢، وديوان الفيتوري ١/ ١٤٠، ٢٥٢، ١٢٣، والأعمال الشعرية لممدوح عدوان ٢/ ٣٠ ـ ٤٧، ٤٨ ـ ٥٥، ٩٤، ولا أستأذن أحداً لسميح القاسم: ص ٧٣، ٨١، ومدن الملح ٢/ ٥٢ ـ ٥٣، ٥٧، ٥٨، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٢٣٤، والخبز الحافي: ص ١٣٥، ١٦٠ ـ ١٦١، وليلة القدر: ص ٩٨، وأقصى درجات العزلة كل الكتاب مليء بوصف أعمال الجنس، ومباهج الحرية في الرواية العربية: ص ١٣٢ ـ ١٣٣ حيث بين دور الجنس عند الروائيين غالب هلسا ويوسف إدريس، ومدى الغرق في مستنقع الجنس كما بين في: ص ٢١٣ دور الجنس والخمر والحشيش في روايات مؤنس الرزاز ونجيب محفوظ وعبدالرحمن منيف، وتبريراته الباردة لذلك ٢١٥، وانظر: موسم الهجرة إلى الشمال: ص ٨٤.

بالإسلام عقيدة وشريعة، فحاربوا الحجاب والعفاف والفضيلة والاحتشام ودواعي الشرف وأسباب الكرامة، ونادوا ـ في المقابل ـ بالتبرج والاختلاط، ونبذ العفة، واطراح الحشمة، واقتراف الرذيلة، وقطع أسباب الشرف، ورميها في زبالات المهانة والإذلال.

رفعوا ـ كاذبين ـ شعارات حقوق المرأة، ولافتات حرية المرأة، وهم في الحقيقة لايرون فيها غير متنفس لشهواتهم الحيوانية، ومستودع لنزواتهم البهيمية.

يلتذون برؤيتها عارية لإشباع رغبة الزنى في عيونهم، ويلتذون بسماعها صارخة متأوهة لإشباع نزوة الزنى في أسماعهم، ويستمتعون بمخالطتها متبرجة، ثم منطرحة ذليلة تحت أقدام شهواتهم، فإذا ما استنفدوا شبابها وزهرة حياتها رموها رمي النعال الممزقة في سلة المهملات.

لا يرون في المرأة غير الجسد العاري، والرغبة الهائمة، والأعضاء الجنسية، ولايريدون منها غير ما يريد الذئب من الشاة، يريدون لحمها، فإذا ما شبعوا أو ملُّوا قذفوها في مقلب القمامة، فإذا هي بلا دين ولا خلق ولا عفة ولا احتشام، وبلا زوج أو أبناء، امتص المجرمون رحيق حياتها، واستخدموها استخدام الآلة، ثم طرحوها، وراحوا يبحثون عن غيرها.

صدقت المرأة دعاوى التحرر والكرامة، فماذا جنت؟.

جنت المهانة والإذلال والتشرد والشتات، وأكبر شهادة ذلك ما قالته النساء اللواتي كن يعملن في «الفن» وأقوال واعترافات «الفنانات التائبات» من أكبر البراهين على ما ذكرنا.

ومن ينظر إلى كلام الحداثيين الداعين إلى حرية المرأة ومكانة المرأة سيجد الدليل الصارخ على بشاعة الامتهان للمرأة.

ها هو أدونيس يخاطب صنوه يوسف الخال بعد أن قرأ «قصائد في الأربعين» للخال، فيقول: (ربما يكمن جديد مجموعتك في نظرتك للمرأة، نحن هنا نقرع أبواباً توصلنا إلى الحياة والعيش في مدينة الجنس أو قل مدينة الجسد. . .)[1].

---

(١) زمن الشعر: ص ٢٣٣.

ويشهد إحسان عباس بأن صلاح عبدالصبور: (يشترك مع نزار في الوقوف عند المظاهر الحسية من عالم المرأة)[1]، ويشهد أن الحب الذي يردده هؤلاء ليس إلاّ علاقة جسدية (. . . إن «ظاهرة الحب» نفسها قد أصابها التغير بفعل الزمن، فجفت، وأصبحت قاصرة على العلاقات الجسدية)[2].

وإذا جئنا إلى «شاعر المرأة» كما يسمون، إلى نزار قباني، فإننا نجده قد جرد المرأة من كل إنسانية حين تحدث عنها باعتبارها عشيقة أو داعرة، أو مطرودة من دوائر العشق الجنسي وبيوت الدعارة، أو عارضة جسد، وقد خاطبه أحد النقاد في سؤال موجه إليه قائلاً: (لكن شعر الحب لديك، إذا نظرنا إليه بعين المدرسة التحليلية في علم النفس، نجده صورة لتلك العقد الفرويدية. . .)[3].

وقال له في سؤال آخر بعد أن لخص مشاكل العرب كلها في الجنس: (هل تستأهل مشكلة العرب الجنسية أن تستنزف من حياتك الشعرية أكثر من ربع قرن؟)[4].

وقال أيضاً: (أنا أرى أنك تنظر إلى العالم من خلال ثقب أحمر صغير، وتضخم ما تراه إلى حد تصل به إلى تفسير الظواهر الاجتماعية والتاريخية من خلاله)[5].

هذا الشاعر الحداثي الكبير يتحدث عن المرأة بصورة مغالطة، ولايستحيي مطلقاً من مواصلة الحديث وهو يتناقض في السطر الواحد، فعندما سئل (أتصور أن المرأة في شعرك لم تكن قضية، بقدر ما كانت

---

(١) اتجاهات الشعر المعاصر: ص ١٤١.
(٢) المصدر السابق: ص ١٥١، وأورد شواهد على هذا من شعر فدوى طوقان وسلمى الخضرا الجيوسي.
(٣) أسئلة الشعر: ص ١٩٧، والسؤال موجه من منير العكش مؤلف هذا الكتاب.
(٤) المصدر السابق: ص ١٩٨.
(٥) المصدر السابق: ص ١٩٩.

بطاقة إلى الجماهير، أعني أن المرأة في شعرك «مضافة» تزوقها كل مرة بما يرضي أذواق الضيوف ويخدرهم ـ أجاب قائلاً ـ... المرأة هي الآن عندي أرض ثورية، ووسيلة من وسائل التحرر، إنني أربط قضيتها بحرب التحرر الاجتماعي التي يخوضها العالم العربي اليوم، إنني أكتب اليوم لأنقذها من أضراس الخليفة، وأظافر رجال القبيلة، إنني أريد أن أنهي حالة المرأة الوليمة، أو المرأة «المنسف» وأحررها من سيف عنترة وأبي زيد الهلالي.

ما لم نكف عن اعتبار جسد المرأة «منسفاً» تغوص فيه أصابعنا وشهواتنا، وما لم نكف عن اعتبار جسدها جداراً نجرب عليه شهامتنا، ورصاص مسدساتنا، فلاتحرير إطلاقاً، إن الجنس هو صداعنا الكبير في هذه المنطقة، وهو القياس البدائي لكل أخلاقياتنا التي حملناها معنا من الصحراء، يجب أن يعود للجنس حجمه الطبيعي، وأن لانضخمه بشكل يحوله إلى غول أو عنقاء، الكائنات كلها تلعب لعبة الجنس بمنتهى الطهارة، والأسماك والأرانب والأزاهير والعصافير وشرانق الحرير والأمواج والغيوم كلها تمارس طقوس الجنس بعفوية شفافة، إلاّ نحن فقد اعتبرناه طفلاً غير شرعي، وطردناه من مدننا، وجردناه من حقوقه المدنية)[1].

هذا النص لوحده يناقض أوله آخره تناقضاً صريحاً فهو يزعم بأنه لاينظر إلى المرأة باعتبارها مجرد جسد، ثم ينادي بتطبيع الجنس وجعل الممارسة الجنسية المفتوحة متاحة كما تحصل بين الأسماك والأرانب والطيور، وهو ينادي بإنقاذ المرأة ـ حسب زعمه ـ من أضراس الخليفة وأظافر رجال القبيلة، ولكن إلى أين؟ إلى الدعارة الفاضحة والنهش المتاح لكل ناب وسن، وهو القائل: (أنا رجل يرفض أن يلعب الحب خلف الكواليس، ولذلك نقلت سريري إلى الهواء الطلق)[2]، والقائل: (أرى أن فكرة العيب والشرف والعرض تقيم حصاراً طروادياً حول الجنس الثاني...)[3]، والقائل: (إن

(١) المصدر السابق: ص ١٨٠.
(٢) المصدر السابق: ص ١٨١.
(٣) المصدر السابق: ص ١٩٩.

الرجولة كما يفهمها مجتمع الرجال لدينا، هي القائمة على الكسر، والقمع وإلغاء إرادة الأنثى. . . فمن النظام الأبوي إلى النظام الزوجي، تنتقل المرأة من معتقل إلى معتقل. . . من رجل مباحث إلى رجل مباحث)[1].

أي أن التحرر الذي يريده للمرأة أن تنتقل من يد داعر إلى يد داعر آخر، ومن سرير زانٍ إلى سرير زان آخر.

والناظر في شعر هذا الداعر يجد فيه أوضح شاهد على مراده من تحرير المرأة، بل هو يعترف بأن ما كتبه من شعر جنسي وأوصاف جسدية، وعبارات شهوانية، لم يأت من خيال تأليفي بل من واقع عملي (بالنسبة لي لا انفصام بين التجربة والتعبير عنها بين الفم والصوت، كل تفاصيل حياتي اليومية معجونة بالشعر)[2].

(ما كتبته عن المرأة لم يكن اختراعاً أو تأليفاً. . . وإنّما هو معاناة «ميدانية» حسب الاصطلاح العسكري)[3].

قال أحد الكتاب عن نزار وموقفه من المرأة بعد أن أورد قوله:

(اجلسي خمس دقائق. . .

لايريد الشعر كي يثقب الورق العاري

سوى خمس دقائق

فاعشقيني لدقائق

واختفي عن ناظري بعد دقائق)[4]:

(المرأة إذن لاستدرار اللذة، كما هي أداة لاستدرار القصيدة مجرد عود كبريت يشتعل فيشعل الحرائق. . . أي أن المرأة عنده إثارة أو استثارة، ولها

---

(١) المرأة في شعري وفي حياتي: ص ٢٥.
(٢) أسئلة الشعر: ص ١٩١.
(٣) المرأة في شعري وفي حياتي: ص ٢٧.
(٤) فتافيت شاعر: ص ١٣٣ ـ ١٣٤.

وظيفتان: وظيفة بيولوجية بحتة تمتد سحابة خمس دقائق، ووظيفة أخرى مرتبطة بالأولى من شأنها توليد القصيدة في نفس الشاعر)[1].

وقال كاتبان معجبان بنزار وأشعاره الجنسية: (عرفنا المرأة في شعر قباني وكان نوفوتيه ودار أزياء وجارية بصيغة جديدة تنعم ـ بعد تحطيم العلاقات الاجتماعية البائدة ـ بنعمة التحرر من ثيابها)[2].

إن قصائد قباني يُمكن تلخيصها في أنها تدور حول الأوصاف الحسية للمرأة لجسدها ولملابسها الداخلية ولأدوات الزينة وأشياء غرفة النوم في لغة نرجسية، وعبارات جنسية مكرورة مملة.

كل هذا معجون بلهجة جزار لا ينظر إلى المرأة إلاّ باعتبارها لحماً، بعضه يصلح الآن، وبعضه من كثرة الاستعمال فسد، وبعضه قد تعفن من زمن، أي أنه لايمتهن المرأة فقط بل يهينها ويذلها ويعجن كرامتها بالطين والقاذورات[3].

وأطلت الحديث عن هذه القضية لكونها من أهم محاور الفساد الأخلاقي الذي يتسلل من خلاله دعاة الرذيلة، وأطلت في الكلام عن نزار قباني لكونه زعيم من زعماء هذا الاتجاه الإنحلالي النجس، مع أن الاستهانة بالمرأة ليس خاصاً بقباني، بل لكل حداثي نصيبه من هذه الاستهانة صراحة أو ضمناً[4]، ويكفي في ذلك أن مذاهب الحداثة والعلمانية في جملتها تحتوي على استهانة عظمى بالمرأة، وبالإنسانية جمعاء.

---

(١) فتافيت شاعر: ١٣٣ ـ ١٣٤.

(٢) مظفر النواب شاعر المعارضة السياسة لعبدالقادر الحصيني وهاني الخير: ص ٤٨.

(٣) انظر: مصداق ذلك في الأعمال الشعرية له ١/ ٣٠٩، ٣٤٦، ٤٦٤، ٦٨٢ و ٢/ ١٠٦ ـ ١٠٧، ١٠٨، ١١٢، ١١٨، ١٤٧، ١٥٠، ١٥٣، ٥٠٤.

(٤) انظر: اتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ١٣٧، ١٣٨ ـ ١٣٩، وقضايا وشهادات ٢/ ١٠٥، وديوان المقالح: ص ٥٧١، والآثار الكاملة للماغوط: ص ٢٠٤، ٢١٣، ٢١٨، ٢١٩، ٢٣٠ ـ ٢٣١، ٣٠٢، والشطار: ص ٥٢، ٩٨، وألف وعام من الحنين: ص ٥٢، وفتافيت شاعر: ص ١٣٢، ١٣٤ ـ ١٤٥.

يقول أنسي الحاج: (امرأة لاتتوقف عند حدود الجرأتين الكتابية والاجتماعية فهما أقل الجرآت شأناً، بل تتعداها إلى الجرأة الوجدانية والنفسية، فتصور لنا أكثر وأعمق مما اعتدناه من مشاعر وتجارب مللناها...)[1].

٨ ـ الإنسان مجرد جسد:

هذه قاعدة فرويد التي بنى عليها مذهبه الجنسي المظلم وتبعه في ذلك المقلدون من أبناء البلاد الإسلامية، فاعتبروا الإنسان جسداً بلا روح، ولحماً ودماً بلا آفاق ولا أشواق ولا قيم، ولذلك انحدروا مع هذا المفهوم الطيني إلى وحول نتنة من الأخلاقيات والسلوكيات المنحرفة، واعتبروا وجودهم في الدنيا فرصة وحيدة يجب أن تستغل استغلالاً كاملاً في كل ما من شأنه تحقيق الرغبة الجسدية، وتحصيل الشهوة الحيوانية، وحتى الحب الذي هو عاطفة إنسانية راقية، جذبوها من علوها وأنزلوها إلى مستنقع الجنس أمّا آفاق النفس وأشواق الروح وأبعاد الغيب فهم أبعد الناس عن هذه الأمور؛ لأن جسديتهم وطينتهم تحتم عليهم أن يكونوا في دائرة الجثمان[2].

٩ ـ بغض الوالدين:

إذا كان بر الوالدين عبادة عند المسلم، فإن بغض الوالدين وكراهية سلطة الأب أصل من أصول الانطلاق الحداثي كما يحلو لهم أن يقولوا، أمّا التعبير السلوكي والعملي عن هذا البغض فقد سطره محمد شكري في روايته الخبز الحافي[3]، فهو يصف كيف كان يتجسس على والديه ويسمعها وهما في حالة الجماع، ثم يطنب في شرح مقدار بغضه لوالده، ويكيل له الشتائم

---

(١) خواتم: ص ٣٠ ـ ٣١.

(٢) انظر: اتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ١٢٤، ١٤٧ ـ ١٤٨، ١٥١ ـ ١٥٢، وقضايا وشهادات ٢/ ١٠٥، ٢٨٥، وأسئلة الشعر: ص ١٨٠، ١٩٨ ـ ٢٠٠، وخواتم: ص ٢٥ ـ ٤٠، وديوان محمود درويش: ص ٢٧٦، ومسافة في عقل رجل: ص ١٥٨ ـ ١٥٩، ومباهج الحرية: ص ٤١٤.

(٣) انظر: الخبز الحافي: ص ٢٦ ـ ٢٧، ٣٦، ٩١، ٩٣، ٩٧، ٧١، ٧٨، ٩٥، ٩٨.

القذرة بل يذكر أمنيته في قتل والده، ثم لما مات والده فرح بذلك وذهب ليبول على قبره.

أمَّا ابن جلون فإنه يسجل هذه الظاهرة في رواية ليلة القدر حيث يجعل الفتاة التي هي محور الرواية تذهب إلى قبر والدها فتنبشه وتلقي فيه كلما كان قد أعطاها في حياته باعتبارها ولداً ذكراً[1].

أمَّا نوال السعداوي فتتناول مسألة الوالدين تحت عناوين: البنت، الأسرة والكبت، الأسرة والمدينة، سيكولوجية الأب، وكلها تصب في إناء الدعوة إلى التمرد على الأب والخروج عن طاعته[2].

١٠ ـ بيوت الدعارة:

سبق عند ذكر احتراف الدعارة بيان إشادتهم وامتداحهم للمومسات، وبائعات الهوى، وهنا نشير إلى شغفهم ببيوت الدعارة ومحبتهم لها، وذكرها في كتاباتهم ذكر تبجيل وثناء؛ ذلك أنهم قد ألفوا هذه البيئات، والإنسان يحب ما ألف.

تجد في شعرهم وكتاباتهم الأخرى مدح الحانة وبيوت العري، ومنازل البغايا، أو ذكر أحداثها على أنها من الأمور العادية والممارسات الطبيعية[3]، ومن المعلوم كم في هذه البيوت من مدمرات للأخلاق ومحطمات للقيم ومهلكات للسلوك القويم، وكم فيها من قيح وصديد ينشيء الرذائل الخلقية، ويربي الانحراف والجريمة.

١١ ـ التشرد:

يعدون التشرد والضياع نوعاً من الإبداع والانطلاق من عوامل الكبت،

---

(١) انظر: ليلة القدر: ص ٤٣.

(٢) انظر: دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي: ص ٣١، ٣٧، ٩٦، ١٧٦ ـ ١٨٣.

(٣) انظر: ديوان السياب: ص ٦، ٧، ٢١٣، وديوان صلاح عبدالصبور: ص ٣٢٠ ـ ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٨، والخبز الحافي: ص ١٣٥، ١٦٧، ٤٩، ١١٢، ٢٢١ ـ ٢٢٢، والشطار: ص ١٣١، ١٥٧، وليلة القدر: ص ٨٥، ٩٦، ودار المتعة لوليد إخلاصي: ص ٣١ ـ ٣٨، ٢٢٦، ٢٤٣، وغيرها من الصفحات.

ولذلك وصفوه وأعجبوا بأصحابه الذين يمارسونه[1].

١٢ ـ الجنس أساس كل شيء:

قاعدة من قواعدهم التي ينطلقون منها على آثار أستاذهم اليهودي فرويد، وقد سبق نقل كلام نزار في أن الجنس أساس الحضارة والتقدم، وكلام أنسي الحاج في أن الحرية الجنسية أساس كل حرية وأن الإبداع شهوة جنسية قبل كل شيء، أمَّا محمد شكري فإنه ينادي أغرق نفسك في الجنس تنسى الهموم[2]، وأمَّا أنسي الحاج فيقول: (الجنس يأتي معه بحبه التعري لا العري، تعرٍ لا نهاية له... في التهتك حسابات دقيقة جداً لا غنىً عنها وإلاَّ انحرف وتشوه... عندما يرميك شبقك بين أحضان جسدك يستنير محياك كملاك...، وهل يكون أن من ألذ ما في المرأة أن يملكها سواك، فتبرز قيمتها لك كمشهد، وكملك لآخر، أشهى ما فيه متعة سرقتها؟، لماذا أتوب عن هذياني الجنسي وهو أكثر ما يعيدني إلى الفردوس؟)[3].

١٣ ـ الجنس مع الحيوانات:

يعترف محمد شكري بأنه مارس الجنس مع الحيوانات: الدجاجة، العنزة، الكلبة، العجلة، ثم يصف بعض هذه الممارسات[4].

١٤ ـ الحانات:

مدحوها ووصفوها وصف المحب المعجب أو ذكروها على أن

---

(١) انظر: الآثار الكاملة للماغوط: ص ٢١٤، والخبز الحافي: ص ٤٠، ٧٢، وقد سبق ذكر المقالات والكتب التي أشادت برواية الخبز الحافي وبصاحبها، وهذه الإشادة تتضمن الإعجاب بالتشرد والفوضوية التي عاشها محمد شكري.

(٢) انظر: مجلة الناقد، العدد التاسع: ص ٨، وأسئلة الشعر: ص ١٩٨ ـ ٢٠٠، وقضايا الشعر الحديث: ص ٣١٨، والشطار: ص ٤٤، ٤٩، وشقة الحرية: ص ٣١٦.

(٣) خواتم لأنسي الحاج: ص ٢٥ ـ ٢٨.

(٤) انظر: الخبز الحافي: ص ٣٣.

وجودها وانتشارها في بلاد المسلمين من الأمور الطبيعية[1].

١٥ ـ الحب هو الجنس:

الحب تلك العاطفة الإنسانية النبيلة تحولت عند الحداثيين والعلمانيين إلى جنس، فقد كثر في كلامهم الإشارة إلى الحب بهذا المعنى، يقول إحسان عباس: (نحن نعيش في عصر فرويد: جملة قد تحمل معاني عديدة، وقد تكون فارغة من المعنى، ولكنها تشير إلى انهيار الحواجز بين الحب والجنس)[2].

وهذه النظرة الفرويدة التي شاعت في الغرب، فكان من ثمارها ما سبق شرحه، حتى إن الرجل ليقول للمرأة تعالي نمارس الحب لمدة كذا دقيقة، أو يصف بأنه مارس الحب مع فلانة لمدة كذا، وكذلك فعل المقلدون من أبناء المشرق:

(الجنس كان مسكناً جربته لَمْ ينه أحزاني ولا أزماتي

والحب أصبح كله متشابهاً كتشابه الأوراق في الغابات

أنا عاجز عن عشق أية نملة أو غيمة عن عشق أي حصاة

مارست ألف عبادة وعبادة فوجدت أفضلها عبادة ذاتي)[3]

(. . . إنه اتخذ الجنس مسكناً وأصبح الحب كله متشابهاً. . . إن خوف الشاعر من ضياع الحيوية الشعرية ـ لا من ضياع العفة والفضيلة ـ هو الذي يحدد للحب «ومن ثم للجنس» أبعاده وقيمه، فنزار إذن لم يتحدث عن الحب بمعناه العاطفي الذي يظنه الكثيرون، إنّما تحدث عنه بمعنى جديد. . .)[4].

---

(١) انظر: ديوان السياب: ص ٦، ٧، وديوان صلاح عبدالصبور: ص ٣٢٠ ـ ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٨، والخبز الحافي: ص ١١٢، والشطار: ص ١٣١.

(٢) اتجاهات الشعر العربي: ص ١٣٥.

(٣) الأعمال الشعرية لنزار ١/٤٦٦.

(٤) اتجاهات الشعر العربي: ص ١٣٦ ـ ١٣٧، ونحو ذلك: ص ١٤١، ١٤٤، ١٤٧.

(وهو في ثقافته وفكره يريد للمرأة أن تتحرر، رغم أنه يراها بسبب وضعه الأول مقيدة بأغلال الحب والجنس، وقد رآها متحررة، وأعجب بتحررها)[1].

ويورد هذا الناقد جملة من أقوال الشعراء الحداثيين ويخلص بنتائج منها قوله بعد إيراد كلام لصلاح عبدالصبور: (في القديم كان الحب يخضع للترتيب والحسبان، كانوا يقولون نظرة فابتسامة فسلام... الخ، أمّا اليوم فإن العاشق العصري قد يلتقي بمحبوبته «من قبل أن يبتسما» وقد يذوق العاشقان مايذوقان قبل أن يشتهياه، فالحب لحظة شبق تضيع قبل أن تتحد أبعادها أو يعرف الممارسان لها أحدهما الآخر)[2].

أمَّا عند أدونيس الذي يرى العلاقة بالمرأة تتم (عن طريق الحب الجسد كما تعبر عن ذلك قصيدته تحولات العاشق)[3]. (يجب أن تتذكر أنه في خلال الثلاثين سنة الماضية، قد تم تطوران كبيران ـ إلى جانب تطورات أخرى ـ وهما تطور وضع المرأة، وتطور فكرة الحب)[4]. («ظاهرة الحب» أصابها التغير بفعل الزمن فجفت وأصبحت قاصرة على العلاقات الجسدية)[5].

وقد صرح نزار قباني بأنه يحارب ألوان الحب الشرقي[6]، وهي دعوة للدعارة على الطريقة الغربية، ويصرح بأنه يتعاطى الحب بالأسنان والأظافر[7]، ويقصد الجنس، وهو كلام شائع ذائع عندهم، مألوف في

---

(١) انظر: المصدر السابق: ص ١٤٠.
(٢) اتجاهات الشعر العربي: ص ١٤٣ ـ ١٤٤.
(٣) المصدر السابق: ص ١٤٧.
(٤) المصدر السابق: ص ١٤٩.
(٥) المصدر السابق: ص ١٥١.
(٦) أسئلة الشعر: ص ١٩٧.
(٧) المصدر السابق: ص ١٩٨.

كتبهم ودواوينهم ورواياتهم[1].

أمّا نوال السعداوي فتطلق تصريحاً انحلالياً تقول فيه: (المرأة الواعية الذكية لا تفصل بين الحب والجنس)[2].

١٦ ـ الحشيش والمخدرات:

تجد ذكر الحشيش والمخدرات في كتاباتهم، بين وصف لتعاطيهم لها، أو وصف للحشاشين وأصحاب المخدرات باعتبارهم من الأسوياء، واعتبار وجودهم وجوداً طبيعياً، بل أحياناً يشيرون إلى ذلك إشارة إعجاب وتبجيل وثناء كما قال أنسي الحاج: (إعجابي بمفرغي عبقرياتهم في الضياع، في العقم «بالكسل، الكحول، المخدرات، النساء، الهرب» فيه فهمٌ لهم، فهمٌ عبرهم، وعبر نموذجهم التبذيري، لرسالة ما عن حقيقة العلاقة التي يجب أن تقوم بين المبدع وعمله)[3].

وإذا كان أمل دنقل من أصرح النماذج على الارتباط الإبداعي!! بين الشعر الحديث والمخدرات والخمور، كما جاء في كتاب «الجنوبي»[4] لزوجته، وكما جاء في اعتذارية المقالح وتبريراته لهذا السلوك الشائن عند أمل دنقل[5]، ويشبهه في هذا السلوك محمد شكري الذي وصف أحوال تسكعه وعربدته مع الحشاشين وفي المواخير بل وحتى التحشيش في المسجد[6]، وليست خاصة تعاطي الحشيش أو مدحه أو التهوين من شأنه

---

(١) انظر: ديوان السياب: ص ٢١٣، وديوان صلاح عبدالصبور: ص ٢١٣ ـ ٢١٥، ٧٢٤، ٧٤٥، وأحد عشر كوكباً لمحمود درويش: ص ٧٨، ٧٩، والشطار: ص ٤٩.

(٢) دراسات عن المرأة والرجل: ص ٢٠١.

(٣) خواتم: ص ١٢٥.

(٤) انظر: الجنوبي أمل دنقل: ص ٥٧، ٦٤، ١٠٦، ١١٥.

(٥) ديوان أمل دنقل: ص ٢٥ ـ ٣٠.

(٦) انظر: الخبز الحافي: ص ٣٠، ٤٠، ٤١، ١١٢، ١٣١، ٢٢٧، والشطار: ص ٣٨، ١٣٢، ١٥٩.

مقتصرة على هذين فقد شاعت هذه الظاهرة عندهم حتى أصبحت أمراً عادياً[1].

١٧ ـ الخمر:

أكثروا من ذكر أم الخبائث وامتداحها بل إن تعاطيها عندهم من أبسط الأمور وأهونها، وليست قصة موت صلاح عبدالصبور في ليلة غناء ورقص وخمر ببعيدة عن أذهان الحداثيين[2].

أمّا أقوالهم الواصفة للخمر وأحوالهم معها فكثيرة[3].

١٨ ـ الزنى:

سبق عند الكلام من احتراف الدعارة بيان موقفهم من هذه الفاحشة المقيتة، وكيف أنهم نظروا إليها على أنها من أبسط الأشياء، بل دعوا إلى انتشارها من خلال تهوينها، ووصف أحوال الزناة والزواني بتمجيد وثناء، واعترافاتهم بالزنى، وهذا وحده كافٍ في الدلالة على درجة الأخلاق عندهم[4].

---

(١) انظر: السباحة في بحيرة الشيطان لغادة السمان، حيث حكت فيه تجربتها مع المخدرات، والمجموعات الشعرية لجبرا: ص ١١٥ ـ ١١٦، وشقة الحرية: ص ١٦٧، ومباهج الحرية في الرواية العربية: ص ٢١٣ ـ ٢١٥ حديثه عما أسماه مثلث الجنس والحشيش والخمر في روايات مؤنس الرزاز وإحسان عبدالقدوس ويوسف إدريس ونجيب محفوظ وعبدالرحمن منيف وغالب هلسا.

(٢) انظر: هذه القصة التي حدثت في منزل أحمد عبدالمعطي حجازي، وقد حكاها حجازي مفصلة في قضايا الشعر الحديث: ص ٢٥٧، وحكتها عبلة الرويني في كتابها الجنوبي: ص ١٠٦، وكان من الحاضرين تلك الليلة جابر عصفور والرسام بهجت عثمان وأمل دنقل.

(٣) انظر ـ مثلاً ـ: خواتم: ص ١٢٥، ومظفر النواب شاعر المقاومة: ص ٤٥، ٥٢ ـ ٥٣، وديوان سميح القاسم: ص ٢٣٠ ـ ٢٣٢، ٥٦١، والآثار الكاملة للماغوط: ص ٣٨، ٤٥، ٤٦، ٦٧، ٢١٧، والخبز الحافي: ص ٤٠، ٤٩، ٧٧، ١٣١، ٢٢٧، والشطار: ص ٣٨، ومسك الغزال: ص ١١٠، ١١٣، ١٢٤، ١٣٧، ١٥٥، وشقة الحرية: ص ٣١٦، ٤٠٨، ومباهج الحرية: ص ٢١٣ ـ ٢١٥، وموسم الهجرة إلى الشمال: ص ١٠٣، ١١٠، ١١٦، ١٢٥، ١٢٦، ١٤٥ ـ ١٤٧، ١٦٠.

(٤) انظر: أمثلة على ذلك في ديوان أمل دنقل: ص ٨٥، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٨، والأعمال=

١٩ ـ الزنى بالمحارم:

لم يقتصر شرهم على ذكر الزنى بالأجنبيات، بل تعدى ذلك إلى الزنا بالمحارم، ففي رواية ليلة القدر قصة زنى رجل بأخته ورجل كان يجامع ذريته[١]، وفي دراسة نقدية لها اعتبرت هذه القصة وخاصة زنا المحارم من الانتهاك الحداثي المرغوب ومن كسر الممنوع والمحرم والانتقام من الماضي، وهي مشروعات حداثية معروفة[٢]، وفي رواية الشطار لمحمد شكري ذكر فتاة واقعها والدها وتبريره لهذه الشناعة[٣].

٢١ ـ السحاق:

يذكرونه كأمر طبيعي وممارسة عادية، ويدرسه بعضهم على أساس أنه نتيجة كبت الوالدين للفتاة، وعدم إعطائها حريتها ومحاصرتها بمفاهيم الشرف والعذرية، ومنعها من اختيار صديقها وعشيقها[٤].

= الشعرية لنزار ١/ ٣٤٠ ـ ٣٤٢، ٣٤٦ ـ ٣٤٨ و ٢/ ٤٢٩، وديوان محمود درويش: ص ٣٥، وديوان المقالح: ص ١٣٥ ـ ١٣٨، ٢٥٦ ـ ٢٥٧، والخبز الحافي: ص ٣٥، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٨، ٦٠، ٦٢، ١٣٤، ١٤٧، ١٦٥، ١٨١، ١٨٨، ٢٠٩، ٢٢١ ـ ٢٢٢، والشطار: ص ٨٦، ١٣١، وليلة القدر: ص ٨٤، ٨٥، ومسك الغزال: ص ٤٩ ـ ٥٠، ٧٨، ٩٤، ١٤٠، ١٨٤، رواية سلطانة لغالب هلسا: ص ٣٧١ ـ ٣٩٧، وألف وعام من الحنين لبوجدرة: ص ٦، وتوفيق صايغ سيرة شاعر ومنفى: ص ٨٤، ٨٨، وأحاديث عن جبران: ص ٧٥ ـ ٧٧، ١٠٢، وأقصى درجات العزلة أكثر الكتاب، ومدن الملح ١/ ٢٣٤ و ٢/ ٥٢ ـ ٥٣، ٥٧، ٥٨، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٢٣٤، ٤٠٥، ٤٣٢، ٤٩٩، ٥٠٠، وشقة الحرية: ص ٣٢٢، ٤٠٩، وعرس بغل: ص ٤٤، امرأة عند نقطة الصفر: ص ٩٢، ومباهج الحرية: ص ١٢٦ عن غالب هلسا، وموسم الهجرة: ص ١٥٨ ـ ١٦٥.

(١) انظر: ليلة القدر: ص ٥٢، ٦٨، ٦٩.

(٢) انظر: مجلة الناقد، العدد التاسع: ص ٨.

(٣) انظر: الشطار: ص ٤٩، ٥٠، ورواية الإنكار لبوجدرة: ص ١٣٣ ـ ١٥٠، واللاز لوطار: ص ١٨٨ ـ ١٩٢.

(٤) انظر: مسك الغزال: ص ٤٧، ٥٣، ٥٤، ٦٥، ٨٤، ودراسات عن المرأة والرجل لنوال السعدي: ص ٢٥٥، ٢٨٦، وديوان أمل دنقل: ص ٢٢٥.

٢٢ ـ العبارات القذرة:

إن التعفف عن ذكر الأشياء القذرة بأسمائها أو الإشارة إليها بالكناية والتعريض، دليل على رفعة الذوق، وسلامة السلوك، وفي الإسلام تسميات من هذا القبيل مثل قضاء الحاجة، والغائط، والجماع، والنكاح، والمقارفة والبضع، والعذرة، وغير ذلك.

أمَّا عديمو الذوق ومنتكسو الفطر فلا يأبهون بترديد أحقر وأقذر العبارات، وهذا منتشر في كتبهم ويُمكن العودة إليها حسب الإحالات؛ لأن نقلها هنا مما يتنافى مع الاحتشام والتعفف[١].

٢٣ ـ العري:

يُمكن تسمية أدب الحداثة أدب العري، فهم عراة من العقل والدين والأخلاق، ودعاة إلى التعري، وخاصة تعري المرأة، تعرياً كاملاً، أو تعرياً تصبح فيه كاسية عارية.

يقول أنسي الحاج: (الجنس يأتي معه بحبه، التعري لا العري تعرٍ لا نهاية له... لا أحب عري المرأة وهي غافية، أريدها حاضرة لتعيه، لتؤهله، ليجرفها، لتشرف على دواره ودواري، النوم يحيدها، يلغي «الموقف» ويجعل مفاتنها حرفاً ميتاً، فائحاً برائحة الإهمال والحقيقة)[٢].

---

(١) انظر: الحداثة الأولى: ص ٢١٧ حيث ذكر بذاءة أنسي الحاج في ألفاظه ودافع عنه، ومجلة الناقد، العدد الثالث عشر: ص ٦٦ ـ ٧٠ قصيدة لنزار بعنوان سيكولوجية قطة، والمجموعات الشعرية لجبرا: ص ١٠٦، والمجموعات الشعرية لتوفيق صايغ: ص ١٦٠، ٢٢٨، ٤٠٨، ومظفر النواب شاعر المعارضة: ص ٣٨ ـ ٤٠، ٧٤، ٨٩ حيث ذكر المؤلفان بذاءة النواب الشهيرة وبررا ذلك ودافعا عنه، وذكرا نماذج من هذا الألفاظ، والأعمال الشعرية لمعين بسيسو: ص ١٣، والخبز الحافي: ص ١٢، ٣١، ٥٣، ٥٤، ٦٥، ٧٨، ٩٠، ١٠١، ١٠٣، ١٠٧، ١٢١، ١٢٢، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٢، والشطار: ص ١٣، ٣٣، ٥٥، ٥٧، ٨٥، ٤٣، ٧٠، وألف وعام من الحنين: ص ٢٦، ٣٥، وتوفيق صايغ سيرة شاعر: ص ٩٠، ٩١.

(٢) خواتم ص: ٢٥ ـ ٢٦.

هذه هي المرأة في ميزانهم، وهذه هي الردة الحيوانية التي يريدون قذف الإنسانية فيها.

وليس دعوتهم للعري مختصة بالمرأة، بل فيهم من ينادي بحرية التعري وإنشاء نوادي للعراة، وما يحدث على الشواطيء والمسارح والسينما وأفلام الدعارة إلاّ نماذج من التطبيق الحداثي العلماني لهذه الدعوة الحيوانية دعوة العري والدعارة، ومع ذلك يطالبون بإيجاد نوادٍ للعراة على غرار ما عند أسيادهم الغربيين[1].

٢٤ ـ القوادة:

من لوازم احتراف الدعارة، ومحبتها، وجود القوادين الذين يجلبون الزناة إلى الزواني، وقد اعترف بعضهم بممارسة ذلك[2]، ووصف بعضم بتفصيل ابتهاجي حالته مع قواد وزانية[3]، وهناك من وصف القوادة وأعمالها بشكل تهويني[4].

٢٥ ـ اللوطية:

هذه الرذيلة الخلقية الشاذة، شاعت في الغرب واستسيغت وأخذها تلامذة الغرب يريدون نشرها بين المسلمين وإشاعتها على أساس أنها حرية شخصية وممارسة للتحرر والانطلاق.

---

(١) انظر: ديوان السياب: ص ٦، ٧، والأعمال الشعرية لنزار ١/ ١٤٣، والآثار الكاملة للماغوط: ص ٢٣٥، والأعمال الشعرية لممدوح عدوان ٢/ ٣٠ ـ ٤٧، ٤٨ ـ ٥٥، وهو ممن يعتقد عقيدة داروين وفرويد، وقد كتب على غلاف كتاب القرد العاري: (إن هذا الذي اسمه الإنسان ليس سوى قرد تساقط عنه الشعر، وهو يعيش في تجمعات بشرية ليست سوى حظائر أو حدائق حيوان بشرية...، وقراءة هذا الكتاب ضرورية مهما كانت النتائج قاسية، إنها ضرورية مثل النظر إلى المرأة لإدراك مقدار الاتساخ والتشوه في الوجوه). وانظر: الشطار: ص ١٤٧، ١٢٨، وليلة القدر: ص ٦٨، ومسك الغزال: ص ١٣٩، ١٥٣، ١٦٣، وقصة حب مجوسية: ص ٦٦.

(٢) انظر: الشطار: ص ٨٥.

(٣) انظر: سلطانة لغالب هلسا: ص ٣٧١ ـ ٣٩٧.

(٤) امرأة عند نقطة الصفر: ص ١٠٤.

يقول رشيد بو جدرة: (أي أديب عربي تعرض للواط في كتاباته؟ لا أحد، فأنا أول من تجرأ على ذلك في كتابي «التطليق»)[1].

ويعترف محمد شكري باللواط ويصف حالات لواط منها ما ذكره ـ تدنيساً ـ من لواط في المسجد.

أمَّا ابن جلون فإنه يذكر من يتهيج جنسياً برؤية مؤخرات الساجدين في الصلاة، وغير ذلك من العبارات الرمزية والصريحة التي تشير إلى اللوطية وكأنها من الأمور المعتادة الخفيفة التي لا ضير فيها[2].

هذه بعض الأمثلة السريعة التي يُمكن من خلالها أن تعطي صورة عن الانحرافات المتعلقة بالسلوك والأخلاق عند أصحاب الحداثة، وتبين إلى مدى ما وصلت بهم المحاربة للأخلاق الإسلامية والدعوة إلى الانحلال والفوضى الخلقية، ويكفيك من شر سماعه!!.

بيد أنه سيقال عند هذه الأمثلة بأن الشاعر أو الروائي يحكي الواقع ويصور الحال كما هو، ولا تثريب عليه في ذلك.

والحقيقة أن الفن والأدب في العصر الحديث يتدهور كل يوم بدعوى «الواقعية» واقعية المادة وواقعية الحيوان، ومن ثم فقد الآفاق السامية والمقاصد السامقة، فقد الجمال ومعاني الفضيلة والخير بهبوطه السحيق في مستنقعات الرذائل، وتحول باسم الواقعية أو التحررية أو المعاصرة إلى ناقل للأمراض الخلقية، ومروج للفساد والباطل، فما أعظم الخرافة التي يعيش فيها هؤلاء ومن تابعهم، وما أفضع الهوة التي ينحدرون إليها!!.

الواقع حقيقة ما في ذلك ريب، ولكن الارتفاع فوق الواقع إلى آفاق

---

(١) رأيهم في الإسلام: ص ١٧٢.

(٢) انظر: ديوان صلاح عبدالصبور: ص ٥٢٠، ٥٢١، والخبز الحافي: ص ٦٥، ٦٧، ١١٢، ٢١٦، والشطار: ص ١٠ ـ ١١، ١١٧، وليلة القدر: ص ٢٨، ومسك الغزال: ص ٩٣، ٩٤، ١٦٨، والإنكار لرشيد بوجدرة: ص ١٢٣، وأحاديث عن جبران: ص ١٠٨، وشقة الحرية: ص ١٦٥، وعرس بغل: ص ١٢٤.

القيم وآفاق الإصلاح حقيقة كذلك، بل هي الحقيقة الإنسانية الراقية، أمّا الواقعية البليدة التي تنكر قدرة الإنسان على السمو، وتسعى إلى تمريغ النفس الإنسانية في تراب القذارة، فهي من إفرازات دارون وماركس وفرويد والبراجماتزم، واقعية رعناء جثمانية شهوانية؛ ذلك أن النفس الإنسانية لاتنحصر في الطعام والكساء والجنس والرغبات المادية.

(والفنون الحديثة تنحو هذا المنحى الأحمق، لكي تكون فنوناً واقعية، الفنانون والنقاد المحدثون يسخرون من الفنون القديمة التي كانت تبرز الجانب الأبيض من الإنسان كأنما كله فضيلة!، ويدعون في مقابل ذلك إلى تسجيل الإنسان بحسب واقعه، يعني تسجيل الجانب الأسود من طبيعته وكأنما كله رذيلة! أستغفر الله! إن الحديث عن الفضيلة والرذيلة من تراث الماضي البائد الذي يجعل للفنون وللحياة كلها هدفاً أخلاقياً، وتلك أفكار رجعية، نحن اليوم معنيون بدراسة «الواقع» وتسجيله صافياً من الخرافات والأوهام!.

وفي ظل هذه العقيدة راح الفنانون الغربيون يمزقون الإنسان مزقاً ويمرغونه في الوحل، نزوات الجسد، نوازع الفطرة، صراع الحيوان، خسة الطبع، التواء المشاعر، هذه هي الدراسة الحديثة للإنسان كما ينعكس من كثير من ألوان الفن الحديث.

وما أريد أن أقول إن البشر ملائكة، ولا إن الفن ينبغي أن يصورهم ملائكة، ولكن الواقعية الحقة ينبغي أن تشمل الواقع الكبير، وأن تكون أكثر إشادة باللحظات الشفافة الرائعة منها باللحظات المعتمة الغليظة؛ لأن الواقع الأكبر يقول: إن هدف الحياة ليس مجرد استمرار الحياة على سطح الأرض، وإنّما هو الوصول بها إلى مرتبة الجمال والكمال.

صراع الجسد حقيقة، غلبة التوازن الفطرية على المبادئ والمثل حقيقة، ضعف الإنسان ورضوخه لنزواته حقيقة، ولكن ارتفاعه فوق الواقع حقيقة كذلك يلمسها كل إنسان في نفسه حين يحقق كيانه كإنسان. والفن ينبغي أن يشمل الواقع كله بلا تمييز، الواقع الأكبر والأصدق في التصوير.

ومانعني حين ندعو إلى «تطهير» الفن من واقعيته السخيفة أن نغفل لحظات الضعف والهبوط، أو نلغي تصوير المشاعر الخسيسة من الحساب، أو تصور الإنسان ملاكاً بلا خطايا ولا أخطاء. كلا! وإنّما نعني أن يكون الضوء مركزاً على لحظات الارتفاع فوق الواقع لا على اللحظات الهابطة إلى عالم الضرورة)[1].

هذا كله يقال لمن كان يؤمن بالقيم وقيمة الإنسان ويعتذر بالواقعية ونقل الواقع، وإن كان أكثرهم لايؤمنون بقيم ولا أخلاق، ولايعتذرون بمثل هذه الأعذار، بل يعتبرون كل ذلك من التخلف الذي لابد من تحطيمه وتجاوزه.

❁ ❁ ❁

(١) في النفس والمجتمع لمحمد قطب: ص ١١٢ ـ ١١٣.

الفصل الرابع

الانحرافات في القضايا الاجتماعية والنفسية

يعتبر هذا الفصل تكملة للفصل السابق وتتمة له، فقد سبق أن ذكرت فيه أصول السلوك والأخلاق، والتي تنطبق على الجماعة كما تنطبق على الفرد، وتصح في الذات الواحدة منفردة كما تصح في الذوات مجتمعة.

فالسلوك الاجتماعي الظاهر يدل على الخلق المستقر في نفوس أفراد ذلك المجتمع.

كما أن ضبط السلوك الاجتماعي وتوجيهه نحو الأحسن والأجمل والدعوة إلى التزام مكارم الأخلاق وفضائل الآداب واجتناب الأخلاق الذميمة كل ذلك من مقتضيات العقل والدين والفطرة، وهو من الأمور التي يجب العناية بها والرعاية لها والمحافظة عليها، من خلال بث الإيمان وحفظه وتقوية أسباب رسوخه؛ لأن الأخلاق والسلوك الاجتماعي والفردي مرتبط بالإيمان، ومتداخل مع العبادات.

وما أحدثته الجاهلية المعاصرة في الأخلاق الشخصية من انحرافات وصل تأثيره إلى الأخلاق الاجتماعية.

فالمجتمعات التي اهتز إيمانها بالله تعالى، وجوداً أو ألوهية، أو التي لم تقم بواجب العبادة له سبحانه، تكون بذلك قد وضعت أكبر مدمر لصرحها الاجتماعي، بمقارفة أعظم الرذائل الخلقية ومجانبة أعظم الفضائل

الخلقية، ذلك أن أسمى وأبرز مظاهر الكمال الخلقي الإيمان بالله تعالى وعبادته الذي توجبه فضائل الأخلاق الفكرية؛ لأن اعتناق الحق والاعتراف به والتزامه فضيلة خلقية تستند على العقل السليم والفطرة القويمة.

وشكر الخالق المالك المتصرف المنعم بسائر النعم واجب أخلاقي، وعدم شكره انحطاط خلقي شنيع، يتضمن الكبر والكذب والتكذيب والظلم وكراهة الحق.

أضف إلى ذلك مايترتب علي ضعف الإيمان أو اهتزازه أو انعدامه من فساد كبير في الأخلاق والسلوك والعمل.

فالمجتمع المؤمن يسعى في إيجاد الفضائل وتكميلها، وإلغاء الرذائل وتقليلها، والمجتمع الكافر عكس ذلك، وشواهد ذلك من التاريخ الإنساني كثيرة جداً، كلها تنطق بأن المجتمع كلما اقترب من الله إيماناً وعبادة كانت فضائله الاجتماعية أكثر ودرجات السلوكية أرقى، وارتفاعه في سلم الأخلاق والآداب أسرع وأقوى وأمكن.

وكلما نسي الله نسيه الله، فتردى في دركات الرذائل، وتعثرت خطاه، وانتكس وارتكس.

ومن تأمل قصص الأمم السالفة، وكيف كانت حياة المؤمنين وأخلاقهم وأعمالهم، وحياة الكافرين وأخلاقهم وأعمالهم وجد الفرق الهائل في مسيرة حياة المجتمع وفي مصيره.

ومن تأمل الحياة الاجتماعية المعاصرة للغرب، وما وصلت إليهم حياتهم من جراء النظرة المادية التي قادتهم إلى اعتبار الإنسان مادة مجردة من الروح معزولة عن الوجدان، مفصولة عن القيم والآفاق العالية، وهنا ماج المجتمع في بعضه كما تموج القطعان، حيث بطل تميزه الإنساني واختصاصه وانتظم في سلك الحيوانية الهابطة، بناء على اعتقادهم أن الإنسان ليس له إلاّ طبيعة واحدة محدودة بحدود المادة والجسد، وموجه بغرائزه، وخاصة، غريزة الجنس.

وهنا حصل الإلغاء الكامل والصريح لإنسانية المجتمعات، والجحد الصريح للحقيقة الروحية، والآفاق والأشواق الإنسانية والقيم العليا، قيم الحق والخير والجمال والإخاء والمودة، وتحويلها إلى وسائل يُحتال بها للوصول إلى المآرب والرغبات المادية والشهوانية.

وبناء على هذه النظرات المادية الحيوانية أقام الغرب سياسته وقوانينه، وحياته الاجتماعية والنفسية، بمعزل عن القيم الروحية، والأخلاق، وقبل ذلك كله بمعزل عن الدين.

وكانت نتيجة ذلك التخبط المروع لهذه المجتمعات، والصراع الوحشي، والتمزق العنيف، وحياة التشاكس والضيق، وتلف المشاعر ومرض الأعصاب ودمار النفوس، وسحق الإنسان، حتى وصلت حوادث الجنون والانتحار والتفكك الأسري إلى أرقام قياسية لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية.

ولولا غلالة رقيقة من الأداء الإداري، والتفوق التقني، والغلبة العسكرية، والمساواة القانونية لكانت هذه المجتمعات قد انهارت وتآكلت من داخلها.

وقد شهد بذلك بعض مفكريهم وحذروا من الدمار القادم[1].

وكل ذلك يعود إلى استبعاد الدين وإلغاء الإيمان بالله تعالى من الحياة، وعزل الحياة عن ذلك تمام العزل، وإلى التصور الأعور للكيان الإنساني، والتفسير الناقص، قصير النظر، محدود الرؤية، الذي جعلوه الأصل الكلي لمنطلقاتهم الفكرية والعملية.

وإذا عدنا إلى أظهر الفلسفات التي أثرت في الحياة الاجتماعية وجدناها:

---

(١) انظر: على سبيل المثال سقوط الحضارة لكولن ولسن، والإنسان ذلك المجهول لأكسيس كاريل، وإنسانية الإنسان لرينيه دوبو.

أولاً: التفسير المادي الذي يقول أن نشاط الإنسان وحركة المجتمع هي في اللهاث خلف الظواهر الاقتصادية والخنوع للمال والتأليه الأعمى للمادة.

وهذا التفسير المادي الاقتصادي الطبقي الذي نادى به كارل ماركس، والذي عرف «بالمادية التاريخية» التي تحولت إلى دولة ومذهب اجتماعي وتيار فكري وسياسي واقتصادي، بسط نفوذه على رقاع في العالم، وطبق نظامه السياسي والاجتماعي على شعوب ودول.

وتحولت الفلسفة المادية التاريخية من فلسفة ونظرية ونمط تفكير محض إلى ميدان الواقع والتجربة والتطبيق، وأخذت طريقها إلى أجهزة دول وحياة مجتمعات، مستخدمة كل وسائل الدعاية والسياسة والقمع والإرهاب الفكري والمادي وكل طرائق الفتنة والتدمير والخراب.

على الرغم من أن المادية الجديلة لم تقم على أساس علمي باعتراف أصحاب النظرية أنفسهم، وكذلك كان شأن المادية التاريخية وكل ما تفرع عن ذلك من ضروب السياسة والاقتصاد الذي يسمى الاشتراكية العلمية وغير ذلك.

ومن أهم مبادئ الفلسفة الماركسية أن الفرد لا قيمة له إزاء الجماعة، ولذلك كانت هذه النظرية لاتتصل بالأفراد؛ لأنهم ـ عند ماركس ـ أضعف في نظره من أن يؤثروا في التغيير الاجتماعي، المحصور في الجماعات والطبقات، حيث الصراع الاقتصادي المسيطر والمحرك الأول الذي يوجه حركة المجتمع وحركة التاريخ.

فليس التاريخ البشري في التفسير الماركسي سوى صراع الطبقات الذي سوف ينتهي بفوز الطبقة التي تنسجم مع تطور وسائل الانتاج، والعلاقات الاقتصادية الناشئة عنها، ويتواصل الصراع حتى تنجح الطبقة العاملة «البلوريتاريا» في الوصول إلى الحكم فتسقط الملكية الخاصة، وتعم العدالة التامة والمساواة الحقيقية، حيث يتحول البشر جميعاً ـ حسب زعمهم ـ إلى طبقة واحدة تنتهي مع وجودها الحروب ويحل العدل والرخاء والسلام.

ويزعم الماركسيون أن فلسفتهم هذه مبادئ حتمية مرتكزة على أسس علمية، لاتقبل النقاش فضلاً عن الرد، كما أنهم يزعمون شمولية مذهبهم وعدم جواز تجزئته، كما أنهم يصرون ـ بشدة وعنف ـ على تفسير كل جوانب الحياة وفق هذه المبادئ التي يقدمونها كمزيج من عناصر فلسفية واجتمعاية وسياسية واقتصادية.

ومع إصرار شديد وعنيف أن ما عداهم من مذاهب وأنظمة لاتستحق الوجود، بل سوف تجتاحها حتمية المادية التاريخية الجدلية وتقضي عليها[1].

هذا المبدأ الإلحادي احتوى من أسباب الهدم والتخريب مالم يحدث في كثير من المبادئ المادية، ففيه التدمير لمقومات الحياة الإنسانية الكريمة، والتشويه المروع لتاريخ البشرية، وقيم الأخلاق، فتاريخ البشرية في نظر الماركسية ليس سوى العامل الاقتصادي وليس سوى البحث الدائب عن الطعام.

فليست هناك أية قيمة ـ عندهم ـ للمجتمعات سوى القيمة المادية الاقتصادية، وليست هناك أي قيم إلاّ ما ينبثق عن هذه المادية، فلا مساواة اجتماعية حقيقية إلاّ المساواة الاقتصادية، ولا سبيل إلى ذلك إلاّ بالصراع الطبقي الحتمي الوقوع.

فالعلاقات البشرية لاتحددها ـ حسب فلسفتهم ـ الأخلاق أو العقائد الدينية أو القيم الإنسانية أو التقاليد الاجتماعية، بل يحددها العامل الاقتصادي وحده دون سواه، فليست الإنسانية في تاريخها الطويل سوى آلات صماء عمياء رعناء في دولاب العامل الاقتصادي الجبري الذي لايُمكن أن تتخلف نتائجه.

---

(١) انظر: أسس الفلسفة الماركسية لـ: ق. أفانا سييف ترجمة عبدالرزاق الصافي ٨ ـ ١٦٤، ودفاعاً عن الماركسية رداً على مختلف منتقديها لموريس كورنفورث، والشيوعية خلاصة كل ضروب الكفر والموبقات والشرور والعاهات لأحمد عبدالغفور عطار، ومذهب ذوي العاهات للعقاد والشيوعية والإسلام لعباس العقاد وأحمد عبدالغفور عطار، وحوار مع الشيوعيين في أقبية السجون لعبدالحليم خفاجي، نقض أوهام المادية الجدلية للبوطي، الشيوعية والإنسانية للعقاد.

وبناء على الصراع الطبقي فالمجتمعات عندهم في صراع دائم بين الطبقة المستغلة والطبقة الفقيرة بين الرأسمالية الامبريالية والطبقة الكادحة، وسوف تنتهي الحرب ـ كما يقولون ـ إلى فوز الطبقة الفقيرة الكادحة، وبذلك يتطور المجتمع تطوراً ثورياً يقضي تماماً على الطبقة المستغلة.

فإذا أضيف إلى ذلك موقفهم من القيم والأخلاق وزعمهم أنها نسبية إضافية ليس لها حقيقة ذاتية، ولا فطرية، تبين مقدار ما جنته هذه النظرية الهدامة على المجتمعات التي ابتليت بها.

فقد انحط الإنسان عندهم إلى كائن حيواني يبحث عن الطعام ويصارع من أجله، كفعل حيوانات الغابة ولا غرو أن تكون هذه نظرتهم للإنسان فقد أخذت الماركسية فكرة حيوانية الإنسان وحتمية التطور من الداروينية.

فما دام الإنسان ـ كما يزعمون ـ حيواناً نشأ من الخلية الوحيدة وتطور من ذاته، ولا قيم له ولا أخلاق ولا دين، وليست لحياته الفردية أية قيمة إزاء الحياة الاجتماعية، وليست حياته الاجتماعية إلاّ الصراع والتنازع من أجل المعيشة، فماذا يُمكن أن يكون هذا الإنسان وهذا المجتمع؟.

لاشك أن في ضوء التفسير المادي الحيواني للإنسان وللمجتمع لابد أن تهبط الأفكار والمشاعر والأخلاق والنظم وسائر سلوكيات الأفراد والمجتمع، حتى تصير في مستوى الحيوان في نظر الماركسية التي ترى العلاقات في دنيا الناس لاتختلف عنها في دنيا الحيوان إلا اختلافاً شكلياً، لا علاقة له بالضمائر والأخلاق والعقيدة والقيم العليا والآفاق المشرقة.

وقد رأى الناس من سيئات النظم الماركسية، وبليات الممارسات الشيوعية ما عجل بزوالها واندثارها على أيدي أبنائها الذين ترعرعوا في أحضانها، وقد سجل بعض ذلك مفكرين وكتاب من أوروبا كانوا شيوعيين أو متعاطفين مع دول الكتلة الشيوعية[1]، بل قد سعى العمال في بولندا ـ

---

(١) انظر على سبيل المثال المثال: الأديب ومفوض الشرطة لجورج بالوشي هورفات، والخمور الفكرية لأرثر كوستلر، والاشتراكية الوافدة من الصقيع لجان بول سارتر، =

وهم محور الفكرة الشيوعية ـ إلى إسقاط الحكم الشيوعي، وبدأت الشعوب المضطهدة تحت الحكم الماركسي تتململ، ولما أحس رئيس ما كان يعرف بـ«الاتحاد السوفيتي» أن الكارثة توشك أن تقع سعى لإدخال تعديلات جذرية في النظام الاقتصادي وأسلوب الحكم بل في أساس الفلسفة الماركسية، والذي عرف بإعادة البناء، ولكن ذلك لم يمنع من الكارثة بل عجل بوقوعها، فإعادة البناء «البيروسترويكا» كانت في عام ١٩٨٥م/ ١٤٠٥هـ، وفي عام ١٩٩١م/ ١٤١١هـ تفكك الاتحاد السوفيتي وسقط النظام الشيوعي وتهاوت الدول التابعة له في شرق أوروبا ودول العالم الثالث، وتحول معظمها إلى الجانب المادي الآخر، الجانب الليبرالي الغربي[١].

ثانياً: الفلسفة النفعية الذرائعية، وهي المسماة بـ«البرجماتية» وهي الشائعة اليوم في أمريكا والدول الأوروبية ويسعون في نشرها في العالم وخاصة في المجال السياسي، وقد سبق في الفصل السابق الحديث عنها، وعن آثارها النفسية والأخلاقية والاجتماعية، وهي التي تتمدد اليوم فوق قطاع كبير من الحياة الاجتماعية والسياسية في أمريكا وأوروبا.

ثالثاً: فلاسفة كان لهم أثر في المسألة الاجتماعية في الغرب:

١ ـ توماس هوبز[٢] ٩٩٧هـ ـ ١٠٩٠هـ/ ١٥٨٨ ـ ١٦٧٩م:

أبو الفلسفة التحليلية، إنجليزي، كان والده قسيساً، بدأ بنقد الفكر الأرسطي، مستفيداً من كشوفات وفلسفات سابقة، وخاصة بيكون الذي التقى به في باريس، وزار جاليلو في إيطاليا وأوحت له فلسفته تعميم علم الحركة على الإنسان والمجتمع.

= والطبقة الجديدة لميلوفان دجيلاس، والثورة والثقافة لأندره جيد، ولويس فيشر، وريتشارد رايت، والاعتراف لأرتورلوندون.

(١) انظر: كتاب المعلومات ١٩٩٤ ـ ١٩٩٥ م، إصدار الآفاق المتحدة: ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥.

(٢) سبق ذكره.

وله أفكار وفلسفات متشعبة في أمور الحياة والكون والإنسان والذي يهم في موضوع الاجتماعي أن هوبز عالج موضوع المجتمع على أساس نظرية التعاقد الاجتماعي، حيث يرى خلافاً لأرسطو أن الإنسان ليس اجتماعياً بطبعه، ويرى هوبز أن البشر في حالتهم الفطرية الأولى لاينفكون يتنازعون ويتقاتلون، وينظر كل فرد منهم إلى الآخر نظرة ملؤها الخوف والشك، وكان من نتيجة ذلك ـ حسب نظرته ـ هذا العراك المتصل والحروب الدائمة، وشأن المجتمع في هذا عنده شأن الكون الطبيعي، الذي يعتمد على الحركة بين أجزائه وما فيها من جذب ومقاومة، فهو في نظرته هذه مادي، يرى أن الكون يسير سيراً آلياً، وكل مايقع فيه مسير ـ حسب فلسفته ـ بقوة مادية، وبناء على هذه التسوية بين المجتمع والطبيعة في الصراع الاجتماعي الذي قاسه على الحركة الكونية، رأى أن كل فرد يسعى لتحقيق ذاته والمحافظة عليها، ولايحصل ذلك إلاّ بزوال الخوف، والخوف لايزول إلاّ بالتعاهد والتعاقد، بحيث يتفق الجميع على أن يتناول كل فرد عن جزء من حقوقه وحريته المطلقة فيحد من مطالبه ولايحاول الظفر بكل ما يشتهي، فيصبح مقيداً لصالح المجموع الذين ثم بينهم هذا التعاقد، وبهذا يقوم المجتمع وتنشأ الدولة، في مجتمع مدني له حكومة معينة تحمي من الفوضى وعدوان الأفراد على بعضهم وينشط في المجتمع الإنتاج والنشاط الصناعي والزراعي والتجاري وأي نشاط إنساني آخر.

ويغالي هوبز مغالاة شديدة حين جعل الدولة كل شيء، فلا حقيقة إلاّ ما تنادى به، ولا حق إلاّ ما ترضاه، ويجب أن تقاس قيم أي عمل من الأعمال بما تفرضه من قانون، فهي عنده كما وصفها في بعض كتبه «التنين الجبار» الذي يبتلع في جوفه كل الأفراد، فالدولة تبتلع الأفراد وتنمحي شخصياتهم وإرادتهم أمام شخصيتها وإرادتها، وأفضل أنواع الحكومات عنده حكومة الفرد المتفوق في عقله وحكمته؛ لأنه يرى أنه إن كانت له مطامع ومصالح شخصية فإنها تقتصر عليه وحده، وهذا وضع أفضل ـ حسب رأيه ـ من الوضع الآخر الذي تتعدد فيه المصالح الشخصية.

فهو من دعاة الحكم المطلق باعتباره يغني عن المنازعات الحزبية

وفوضى الديمقراطية التي تكرس التنابذ والتخاصم، ومن المؤثرين للملكية باعتبار أن من مزاياها أن واحداً فقط قد يجاوز العدل ويسيء الحكم، وكان من أنصار الملك الإنجليزي شارل الأول، ولما انتصر عليه البرلمان خشي هوبز على حياته ففر إلى فرنسا، ونشر آنذاك كتابه «المواطن» الذي عني فيه ببيان الصلة بين الدولة والكنيسة، وذهب فيه إلى حد أن أعطى الدولة سلطة تقرير المعتقدات الدينية والقواعد الأخلاقية، وفرض الطاعة للدين الذي ترتضيه؛ لأنه طالما أن ظاهرة الدين ـ حسب رأيه ـ ظاهرة طبيعية، فالدولة هي التي تحتويه وتحسم الخلاف فيه لإقرار النظام، وتعتبر فلسفته مبنية على قضية اللذة والألم والخوف، وهو فيلسوف مادي، يتضح ذلك بجلاء من خلال كتابه «الجسم» الذي قال فيه بأن الوجود مادي، وهو وجود أجسام، وأن القول بوجود موجودات غير جسمية قول متناقض، ووصف الأجسام بخاصيتين فقط هما الامتداد والحركة، وما سوى ذلك طالما أنه مغاير للحركة فهو ليس من الأجسام، فهو يرد الحياة النفسية للإنسان والوحش إلى الحركة والجهد قياساً على المادة، والأرواح عنده لا وجود لها كجواهر خاصة، ويرفض هوبز ـ في مذهبه ـ في القانون والدولة نظريات الأصل الإلهي للمجتمع، ويرى الماركسيون أن نظرية هوبز ـ رغم كونها ديكتاتورية برجوازية لمصالح الطبقة المستغلة ـ إلاّ أنها أوجدت بذور تقدير مادي للظواهر الاجتماعية، خاصة أنه أقام فلسفته على أساس نزعة مادية حسية، وكشف عن عداء متصلب للدين ورجاله، حتى أصبح نعت «هوبزي» يستخدم في وصف الماديين والملحدين[1].

٢ ـ سبينوزا[2] ١٠٤٢ ـ ١٠٨٨هـ/ ١٦٣٢ ـ ١٦٧٧م:

الحاخام اليهودي الذي تأثر بفلسفة ديكارت، وشكك في الدين والوحي، وقال بخلود المادة، وأنكر خلق الخلق من عدم، متأثراً أيضاً

---

(١) انظر: المسألة الاجتماعية بين الإسلام والنظم البشرية لعمر عودة الخطيب: ص ١٠٧ ـ ١٠٨، والموسوعة الفلسفية للحفني: ص ٥٠٥ ـ ٥٠٧، والموسوعة الفلسفية لأكاديميين سوفييت ص ٥٦٣، ومعجم الفلاسفة: ص ٦٥٣ ـ ٦٥٥، وموسوعة أعلام الفلسفة ٢/ ٥٤٩ ـ ٥٥٢.

(٢) سبقت ترجمته: ص ١٠٥٨.

بأحد فلاسفة اليهود اسمه «ابن عزرا» وكتاب متصوفة اليهود الذين يقولون بأن المادة حية، وآمن بمذهب وحدة الوجود بمفهومه الغربي الأكاديمي كما سبق بيانه عند ترجمته، وكانت لآرائه المادية أبلغ التأثير على مادية القرنين السابع عشر والثامن عشر، وأثر تفكيره على تطور الإلحاد، وقد أثنى إنجلز على آراء سبينوزا الفلسفية ثناءاً كبيراً، ويعتبر خليفة لتوماس هوبز.

وعلى الرغم من مادية وإلحاد سبينوزا إلاّ أنه لم يتخل عن يهوديته ولم يتخلص منها، مما حدا بمؤلف كتاب الموسوعة الفلسفية أن يقول: (لاشك أن سبينوزا كان يهودياً حتى النخاع، وأن مذهبه كان رؤيا فلسفية للتلمود، وجاء على خطى التراث اليهودي...)[1]، أمّا الحرمان اليهودي الذي حصل ضد سبينوزا من قبل الكهنة اليهود، والذي يدافع به المعجبون بسبينوزا، فإنه كما قال المؤلف المشار إليه: (لم يكن يقوم بسبينوزا إلاّ اليهود، وفي ألمانيا جرت مشادة ربما كانت تمثيلية يهودية، بين المفكرين اليهود، روجت لها وسائل الإعلام اليهودية)[2].

ثم أضاف: (وظهر الطابع اليهودي في فلسفته بشكل جلي في روسيا القيصرية، حيث كان يشرف على ترجمته وطبعه دور نشر يهودية، وكان شباب اليهود في المنظمات التقدمية والثورية يعرضون فكر سبينوزا بتفسيرات مادية، وإنه لأمر يدعو إلى الشك أن تجد المذهب الفلسفي يحتمل كل التفسيرات، وينفذ إلى كل البلاد والفلسفات من خلال اليهود وحدهم، وإنه لامر يدعو إلى الشك أكثر تكون دراسة سبينوزا في مجتمعات خاصة مغلقة، تشبه الجمعيات اليهودية القبلانية السرية، وأن يطلقوا عليه اسم «ماركس بدون اللحية» أضف إلى ذلك امتلاء المذهب بالألفاظ التي توهم بالدلالات وهي لاتدل على شيء، وانطماس الغائية فيه حتى انتهى إلى الآلية المطلقة، وتناقضه بين نفي العقل عن الجوهر وصدور العقل عنه مع ذلك، وترديه إلى

---

(١) الموسوعة الفلسفية للحفني: ص ٢٤١.

(٢) الموسوعة الفلسفية لعبدالمنعم الحفني: ص ٢٤١.

القول بأن الشر فكرة ناقصة يحسبها الشرير كاملة فأقام مذهباً لا أخلاقياً بالرغم من دعواه بغير ذلك)[1].

هذا مايتعلق ببعض جوانب الحياة والنشأة والفكر لديه، أمَّا ما يتعلق بالجانب الاجتماعي فإن سبينوزا يتفق مع هوبز في أن الناس كانوا قبل نشأة المجتمع يعيشون في حالة فوضى لاينظمهم قانون ولايسودهم نظام، فكانت القوة عندهم هي «الحق» فمن استطاع أن يصل إلى شيء فهو حق له، ولم تكن لدى الناس قبل تكون المجتمعات أي فكرة عن الصواب والخطأ أو العدل والظلم، فكل إنسان في تلك الحالة لاينظر إلاَّ إلى مصلحته، مما أدى إلى وجود مخاطر بسبب هذه الفوضى التي تؤثر على المصلحة نفسها، مما دفع الناس إلى التعاون والتآزر لدرء الخطر، فتكون نتيجة هذا الشعور المجتمع الإنساني الذي قام أصلاً ـ في رأيه ـ على أساس نفعي، يتمثل في التعاقد بين الأفراد والدولة التي تتمتع بقدر من السلطان.

ويرى ـ خلافاً لهوبز ـ أن غاية الدولة أن تكفل الحرية وتعمل على الرقي والنمو والكمال، وأي نظام يحقق ذلك فلابأس به، وإن كان يفضل هو شخصياً النظام الديموقراطي، مع انتقاده له؛ لأنه لايخلو من عيب فادح، وهو أنه يهيء للسوقة والرعاع أن يصلوا إلى مراكز القوة، ولذلك اقترح أن يخصص الحكم لذوي الكفاية الممتازة والدراية الواسعة.

وتعتبر الفلسفة المادية الحديثة مدينة لسبنوزا في أصلها ومفاصلها الأساسية، وقد أثر تأثيراً قوياً على المادية الإلحادية ودفع إلى تطوير الإلحاد ونشره في سائر الفروع الإنسانية[2].

ومن ذلك المسألة الاجتماعية كما سبق بيانه في نظرته إلى أصل الاجتماع الإنساني وفي كيفية إدارته بعد ذلك.

---

(١) الموسوعة الفلسفية لعبدالمنعم الحفني: ص ٢٤١.

(٢) انظر: المسألة الاجتماعية: ص ١٠٩ ـ ١١٠، والموسوعة الفلسفية للحفني: ص ٢٣٧ ـ ٢٤١، وموسوعة أعلام الفلسفة ١/ ٥٤٥ ـ ٥٤٧، ومعجم الفلاسفة: ص ٣٢٩ ـ ٣٣٢، والموسوعة الفلسفية لأكاديميين سوفييت: ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

٣ ـ جان جاك روسو ١١٢٤ ـ ١١٩٢هـ/ ١٧١٢ ـ ١٧٧٨م:

ولد في جنيف ومات في باريس، كان برتوستنتاً ثم تحول إلى الكاثوليكية، وجاب المدن والأقطار، وتعرف على فلاسفة وعلماء عصره وكتب كثيراً، ويبدو أن حياته القاسية أصابته بعقدة اضطهاد فكان سيء الظن بالناس، دائم التشهير بهم وبنفسه، وكان شديد الكبرياء، كثير الخجل والكسل، وكانت شخصيته بالغة التعقيد وصعبة للغاية ومضطربة عقلاً، مقرونة حياته بالفشل في أكثر أعماله مليء بالإحباط وخيبة الأمل والبؤس والمرارة، وخاصة بعد أن عومل من قبل صالونات الأدباء والفلاسفة في باريس معاملة لم يكن يرجوها، وكانت هذه الصالونات يشرف عليها ويرعاها نساء باريسيات مسرفات في الرذائل والعشق والغزل، ويتسترن تحت رعاية الفن، وكان يحضر هذه المجتمعات رجال البلاط وعلية القوم في فرنسا، في جو متألق بالأحاديث والمحادثات الممزوجة بالدسائس الاجتماعية والفضائح الجنسية، والإغراق في جو المرح والهزل والمزاح والضياع، فنفر روسو من هذا الجو ووجده أشبه ما يكون بمدينة لوط «سادوم» بملاهيها الفاسقة المترفة وبفلاسفتها المزورين.

ومن هنا رد روسو أسباب سقوط حضارات مصر واليونان وروما إلى آثار الترف، وعبودية مترفيها للذائذ والشهوات[١]، كان روسو قارئاً نهماً وحالماً واسع الخيال، ولكن لم يكن بالشخص الكفؤ للمجتمع وللحياة الاجتماعية.

ويعتبر روسو فيلسوف الثورة الفرنسية التي حدثت بعده، ويشاركه في ذلك فولتير[٢]، وقد كانا متعاصرين متناقضين في كل شيء، بل لقد حارب

---

(١) وهذا استنتاج صحيح، وفي القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الآية ١٦ من سورة الإسراء].

(٢) هو: فرانسو ماري أرويه دي فولتير، فرنسي ولد سنة ١١٠٥ هـ/ ١٦٩٤ م، صنم من أصنام الحداثة والعلمنة، ومؤلفاته قبلتهم الفكرية، يقول بأن دينه هو الإنسانية، =

فولتير وجماعة الفلاسفة العقلانيين روسو محاربة شديدة، وساعدوا السلطة في العمل على نفيه ونجحوا في ذلك، ولكنهم فشلوا في إزالة الآثار التي خلفتها مؤلفاته في نفوس القراء.

وكانت خصومته شديدة مع جميع فلاسفة باريس الذين اعتادوا الاجتماع في صالون الملحد الشهير هولباخ[1].

وأهم أفكار «روسو» التي ذكرها مؤلف كتاب «تاريخ الفكر الأوروبي الحديث» وغيره من المعتنين بالفلسفة والفلاسفة ما يلي:

١ ـ يرى أن الفنون كانت دائماً مفسدة للحضارة الأمر الذي جعله عرضة للهجوم والنقد.

٢ ـ عرف «روسو» بتناقض أقواله، ولذلك اختلف الناس من بعده في أقواله، فمنهم من قال إنه ينادي بالديموقراطية، ومنهم من قال بل نادى بالديكتاتورية الاستبدادية، كما أن البعض يعود بأصول الاشتراكية إلى فلسفة روسو، وكذلك بالفاشستية المعاصرة، ويتحدث الدارسون الاجتماعيون عن روسو باعتباره يرجح المجتمع على حساب الفرد، وآخرون يرون أن روسو كان إلى جانب الفرد.

٣ ـ عرف «روسو» بنظرية «العقد الاجتماعي» عمدة الثورة الفرنسية، وملخصها ما يلي:

يرى أن الإنسان صالح في طبيعته وأن الشر هو من عمل المجتمع، ومن هذا المنطلق يستطيع المرء السير في أي واحد من الاتجاهين اللذين نراهما واضحين لدى روسو، فقد يقرر أحدهم أنه نظراً لأن الإنسان صالح

= وأنه يؤمن بإله غير الذي جاءت به الأديان، ولذلك حاربها وأنكر النبوة والوحي، سجن في الباستيل ثم نفي لمدة ثلاثين عاماً ثم عاد فخرجت باريس لاستقباله وذلك قبل وفاته بشهور سنة ١١٩٢ هـ/١٧٧٨ م. انظر: الموسوعة الفلسفية ٣٤٩، وموسوعة أعلام الفلسفية ٢/ ١٧٠، معجم الفلاسفة: ص ٤٣٤.

(١) سبقت ترجمته.

في طبيعته فعندئذ ليست ثمة ضرورة للمجتمع كلياً، وهذه هي النظرية الفوضوية التي تبناها بعض أتباع روسو، وكان روسو أحياناً يعظ بهذه النظرية، ولكني تبنى في الواقع نظرية مخالفة لها ـ وهذا من تناقضه ـ فالمجتمع، كما يرى روسو، بعيد كل البعد عن كونه غير ضروري، إذ أنه الضروري الضرورة المطلقة بالنسبة للفرد، وإن مهمتنا ـ حسب قول روسو ـ أن نعيد بناءه وتحويله من قوة مفسدة إلى قوة نبيلة ترتفع بالإنسان، وهكذا انطلق روسو عارضاً في كتابه «العقد الاجتماعي» مواصفات دولة طوباوية[1] ديمقراطية اشتراكية.

ويرى أن الدولة لاتنشأ من العائلة، ويقول: إن الحب والزواج هما بدعتان مشؤومتان من بدع الحضارة وتمثلان مؤامرة حبكتها النساء، وأن الملكية الخاصة هي اختراع مشؤوم أيضاً، جاءت نتيجة للاغتصاب وهي مجلبة للظلم والطمع واللامساواة والحروب، ولذلك فالدولة عنده ليست طبيعية ولا عضوية، وهو على خلاف فلسفة هوبز لايرى أن البشر قد سلموا مختارين وأحراراً بالخضوع لدولة هوبز الاستبدادية، فالدولة تنشأ عن عقد، ولكن حتى اليوم لم يشترع العقد السليم المطلوب، فبعض البشر الأقوى من غيرهم الأقل أخلاقاً، قد فرضوا إرادتهم مستخدمين قوة مخاتلة وغدارة، والأكثرية الساحقة من الناس ساذجة سهلة الانخداع، لكنها لابد أن تستيقظ، ويقظتها ليست بعيدة، وينبغي للبشر أن يتخذوا عقداً اجتماعياً يرتكز إلى المساواة بغية تأمين حرياتهم العامة وممارستها، وهم لن ينصبوا ملكاً عليهم، بل سينصبون أنفسهم حكاماً، فالملك إنما هو «الإرادة العامة» وهذه هي إرادة الجميع «الشعب» كله جماعياً وسياسياً، ويرى النقاد أن روسو في هذه النظرية، ماكاد يحرر البشر حتى استبعدهم لهذا التجريد أي «الإرادة العامة»، زد على ذلك أن الفرد يدين بجميع حقوقه للدولة، فعقد روسو لايحتفظ

---

(١) الطوباوية لفظ مشتق من الكلمة اليونانية طوبا، وتدل على ما لايوجد في أي مكان، ويراد بها كل فكرة أو نظرية لاتتصل بالواقع أو لايُمكن تحقيقها. انظر: المعجم الفلسفي: ص ١١٣.

للفرد بأية حقوق طبيعية؛ لأنه يعتقد عدم وجود أي حق للفرد خارج المجتمع، فالمرء لا حق له في حال الطبيعة، بل له فقط سلطة القوة.

وقد رأى الناس كيف أساء الدكتاتوريون استعمال «إرادته العامة» خلال الثورة الفرنسية التي انفجرت بعد سنوات قليلة من وفاته.

كما أن روسو جعل من أصول نظريته وجود «دين مدني» «دين ربوبي رسمي» يتوجب على كل مواطن أن يدين به يعاقب الخارج عليه بالإعدام[1]، ومن هنا اعتبر روسو النموذج الأول للفاشية، من حيث أنه يدعو إلى دين تفرضه الدولة على مواطنيها بالقوة والإرغام.

وقد ارتبط اسم روسو بالإلحاد والزندقة المعروفين في القرن الثامن عشر، على الرغم من أن مقاومته للملاحدة والزنادقة كانت السبب الكبير وراء خلافه مع فولتير، وحقيقة الأمر أن روسو كان جريئاً في تحديه للدين، وخروجه على أخلاق وتقاليد عصره، ومن أهم آرائه الاجتماعية والأخلاقية، إنه نفى العنصر الإيماني من الأخلاق، وجعل مدار ذلك كله المصلحة الدنيوية المجردة، الملخصة في تحقيق أحسن طرائق التعاون مع المجتمع في الحدود الدنيوية فقط، ومن أجل الوصول إلى المنفعة الخاصة أو العامة إذا أمكن ذلك، ومن أجل تعويض النقص الخطير في فصل الدين عن الأخلاق جعل للمجتمع ديناً مدنياً لايدع للفرد ناحية من نواحي الحياة مستقلة عن الحياة المدنية.

وهذا الدين الذي يوجبه روسو ليس ديناً سماوياً، ولكن يقول ينبغي أن يكون للإنسان والمجتمع دين وفي الوقت نفسه لن يخضع لأي إله، وهذا أيضاً من تناقضه.

والمتجردون من تلامذته يرون أن الدولة التي يريدها روسو هي الدولة التي بلغت الكمال المطلق، حيث تنتفي فيها كلياً المصالح الأنانية وتصبح هذه المصالح مندمجة تماماً في الإرادة العامة، حيث يبلغ التضامن

---

(١) المعجم الفلسفي للحفني: ص ٢١٧.

الاجتماعي ذروة الكمال، وحيث يجب أن يدين الفرد بالولاء المطلق للمجتمع الكامل.

والحكومة المثالية في نظره هي الحكومة الديمقراطية المحضة، ويتبع هذا أن الوحدة الحكومية ينبغي أن تكون وحدة صغيرة، ويطالب بحكومة مركزية ضعيفة، والديمقراطية الغربية النيابية التمثيلية السائدة اليوم لو اطلع عليها روسو لضحك من تبجحهم بأنها ديمقراطية؛ لأنها على خلاف نظرته التي أسسها في العقد الاجتماعي، ومع ذلك فإن روسو في الحقيقة كان مؤيداً ونصيراً لجماعات صغيرة تقيم دولاً مترابطة ترابطاً رخواً من خلال نوع من الاتحاد، ويعد روسو عند الأوروبين رائد التجديد المطلق وداعية الإصلاح الشامل لحضارة يراها فاسدة ميؤساً من صلاحها، وداعية المساواة والديمقراطية والبساطة والاشتراكية والعودة إلى الطبيعة، والمستقبلية المتفائلة، ولكثرة تناقضاته لايزال الباحثون في فكره حتى اليوم يتجادلون حول معانيه ومراداته، ويعدونه واضع لبنات الرومانسية، إلاّ أنهم ما زالوا حتى اليوم يرون كتابه «اعترافاتي» من أعظم المنجزات بما فيه من جرأة جنسية حتى أن كولن ولسن قال عن نفسه في «رحلة نحو البداية» لما تحدث عن الجنس: (في هذا الكتاب لم أحاول أن أكون صريحاً صراحة روسو؛ لأن ما يُمكن أن اعترف به أقل بكثير مما كان لدى روسو لكي يعترف به، ولقد تصرفت في حياتي دائماً تصرفاً عادلاً تماماً وملائماً لما تمليه على أفكاري - وفي الهامش - يشير إلى كتاب جان روسو الشهير «اعترافاتي» الذي كان أول الاعترافات الصريحة في العصر الحديث، ويعتبر مرجعاً لتربية الفيلسوف وعناصر التحرر التي كونت موقفه الاجتماعي والفكري والنفسي المتحرر)[1].

ولما انفجرت الثورة الفرنسية جعلت اسمه على كل لسان وشفه مع اسم فولتير ولقبت روسو بالفيلسوف الأول، ورغم تناقضاته الهائلة، ورغم الأمراض العقلية التي كان يعاني منها أصبح «العقد الاجتماعي» يشكل تحولاً

(١) رحلة نحو البداية: ص ٣٨٠.

في المسار الفكري الاجتماعي في أوروبا[1].

٤ ـ كانت[2] ١١٣٧ ـ ١٢١٩هـ/ ١٧٢٤ ـ ١٨٠٤م:

عما نويل كانت هذا الفيلسوف الألماني الذي أحيط بهالات من الإعجاب والانبهار والمديح، يعتبر مذهبه أحد تيارات الفكر الفلسفي في القرن التاسع عشر، بل أكبر التيارات على الإطلاق، ويعتبر كانت عند الأوروبين من أعظم الفلاسفة، بل يعتبر كذلك عند المقلدين من أبناء العالم الإسلامي الذين يحذرون غاية الحذر من نقده، فهو عندهم أعجوبة الأعاجيب في صحة القياس، وضبط الحكم وجودة النظر في الدقائق والجلائل، حتى وصل الحال بأحد المنبهرين إلى القول: (ولايستسهلن أحد أن ينقد من آراء كانت، وإن ظهر له في بادئ الأمر أنها ضعيفة السند، فإن من أشد الغرور أن يجترئ امرؤ على هذا العقل الفذ الذي قل أن ينجب الزمان مثله، فينظر إلى رأي من آرائه نظرة استخفاف أو تسرع، وليذكر الذي يقف هذا الموقف، أنه ما من اعتراض خطر له إلاّ وقد خطر قبله لكانت، ووزنه بميزان لايذر صغيرة ولا كبيرة، ولايسقط من حسابه من شيء)[3].

---

(١) انظر: تاريخ الفكر الأوروبي لرونالدستورمبرج: ص ٢٠٠ ـ ٢١٤، ومنه أخذت أكثر هذه المعلومات، والموسوعة الفلسفية للحفني: ص ٢١٦ ـ ٢١٧، والمسألة الاجتماعية: ص ١١٠ ـ ١١٣، وموسوعة أعلام الفلسفة ١/ ٤٩٨ ـ ٥٠٧، ومعجم الفلاسفة: ص ٢٩٩ ـ ٣٠٣، وتاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم: ص ١٩٥ ـ ١٩٨.

(٢) سبقت ترجمته.

(٣) الكلام للعقاد في كتابه: مطالعات في الكتب والحياة: ص ٣٦٨ نقلاً عن المسألة الاجتماعية لعمر عودة الخطيب: ص ١٣١، وللمقارنة يُمكن أن نقرأ النقد التالي من غربيين يقول هرور: (إن نقد كانط نسيج من اللطائف ومن ضروب التخلف، والفلسفة النقدية ذات أثر ضار على الأخلاق، وعلى السعادة الداخلية للإنسان)، ويقول فردريك شليغل: (لقد برهن كانط على أكمل وجه على مثالية الواقعي، لكنه لم يبرهن على واقعية المثالي، وبالتالي لم يبرهن على واقعية الواقعي). ويقول فكتوركوزان: (لا مناص من التسليم بأن القسم المذهبي من كتب النقد الثلاثة لايصمد لفحص جاد فهو مع ذاته على تناقض دائم لايصدق). انظر: هذه الأقوال في معجم الفلاسفة: ص ٤٧٧ ـ ٤٧٨.

هذا نوع من الانبهار والانشداه الغريب يظهر مقدار الإعجاب الغرب ومفكريه، ودرجة «كانت» على وجه الخصوص عند المقلدين المهازيل.

وسوف أعرض هنا جملة أقوال كانت في القضية الاجتماعية ونرى هل هي بالعصمة التي حاول المنبهر وصفه بها!!.

نشر كانت في سنة ١١٩٩هـ/ ١٧٨٤م شرحاً موجزاً لنظريته السياسية تحت عنوان «المبدأ الطبيعي للنظام السياسي من حيث علاقته بفكرة تاريخ عالمي شامل»، ويعني بالمبدأ الطبيعي لأي نظام الصراع الذي يوجد متأصلاً في الفرد ضد المجتمع، ويعد كانت صدام الفرد ضد المجتمع خيراً وإيجابية، بل يراه أمراً ضرورياً لكل تقدم مأمول، وهو عنده الباعث الحقيقي للنزعة الاجتماعية، يوضح فكرته مقرراً: أن البشر لو كانوا كلهم بشراً اجتماعياً لترهل الإنسان وجمد، ولذا فإن من الضروري أن يكون هناك مزيج معين من الفردية والمنافسة، ليتمكن البشر من البقاء والنماء.

يبتدئ كانت وينتهي في القضية الاجتماعية إلى تقرير قاعدة أن «الصراع باعث الاجتماع».

ولكن بالرغم من ذلك ـ يرى ـ أنه سرعان ما يدرك البشر أن هذا الصراع يجب أن يحصر داخل حدود معينة، وأن تنظمه القواعد والعادات والقوانين، وهنا يكمن عنده أصل تطور المجتمع المدني، فهذه الفردية التي يعبر عنها بـ«اللا اجتماعية» هي التي أرغمت البشر على الانتظام في مجتمع، وهي بالنسبة للأفراد أرغمتهم على إنشاء اتحاد مدني ينتظمه القانون، فاستطاع الأفراد أن يتخلصوا بذلك من الحال الطبيعية وارتباطها الهمجي، وأن يتعاقدوا على المحافظة على السلام.

أمَّا بالنسبة للشعوب ـ بوصف الشعب تراكماً للأفراد ليس غير ـ فإن هذه الروح الفردية تدفع كل شعب لممارسة حرية طليقة من كل قيد في علاقاته الخارجية، وعلى ذلك فيمكن أن تترقب كل دولة من أية دولة أخرى ذلك الشر والعنف الذي أرغم الأفراد على التعاقد الاجتماعي لصون السلام.

ويفسر التاريخ بأن معناه وحركته بأكملها أنه هو الذي يتجه بالأمم كما اتجه بالأفراد من قبل إلى التخلص من الحالة الطبيعية للمجتمعات الإنسانية، وإلى التعاقد فيما بينها لحفظ السلام، ووضع حدود للعدوان والمشاحنة والعنف والتوسع المتزايد والمستمر للسلام.

وفي تفسيره لتاريخ الجنس البشري يعود إلى مبدئه الأساسي «الصراع» باعتباره وسيلة للتقدم، ويدخل في أبواب الفرض والتخمين، فيحول هذه الفرضية التي اخترعها إلى نظرية يفلسف بها تاريخ الجنس البشري، ويحيل - كأي فيلسوف مادي - على الطبيعة صنع الأشياء، فهي التي أوجدت الدستور السياسي الكامل الداخلي والخارجي في الجنس البشري الذي ليس إلاّ منفذاً لمخطط خفي وضعته هذه الطبيعة!!.

ومن المعروف عن كانت أنه تأثر بالفيلسوف الملحد «هيوم» وقال عنه بأنه أيقظه من سباته الاعتقادي، ولذلك اتجاه إلى تيار النزعة التجريبية التي قرأها عند هيوم.

وقد توجه كانت إلى هذه النزعة بقوة وقرر بأن العقل هو مصدر الحقائق، كالحقائق الرياضية التي لايشك في ثبوتها، ولكنه شك في المعرفة الميتافيزيقية وفي قدرة العقل على الحصول على هذه المعرفة، ولذلك قرر بأن العقل حاجز عن التدليل على وجود الله «جلّ وعلا»، ولكن ما سماه العقل العملي يقدر على افتراضه، أو كما قال لو كان لنا حدس عقلي لكانت الميتافيزيقية علماً، ولكن حدسنا حسياً وليس عقلياً، وبناء على ذلك فقد أبعد كانت قضية الدين والإيمان عن مسائل الأخلاق وروابط المجتمع[1].

٥ - أوجست كونت ١٢١٣ - ١٢٧٤هـ/١٧٩٨ - ١٨٥٧م:

فيلسوف وضعي فرنسي، ولد لأسرة شديدة التعلق بالكاثوليكية

---

(١) انظر: المسألة الاجتماعية: ص ١٢٧ - ١٣٢، ومنه جلّ المعلومات، ومعجم الفلاسفة: ص ٢٧٤ - ٤٧٨، والموسوعة الفلسفية للحفني: ص ٣٧٢ - ٣٧٧.

والملكية، ولم يكن أحد من أفراد هذه الأسرة صحيحاً عقلياً، وكان كونت عصبي المزاج، ووقع بعد عام ١٢٤١هـ/ ١٨٢٥م تحت تأثير مرض عقلي، وازداد عليه في قرب عام ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م وحاول أن ينتحر غرقاً في نهر السين، وبقي مريضاً في عقله في صورة مستمرة زهاء عامين، وكان شديد الكراهية لأسرته، وكفر بالله تعالى وأبغض الملكية وعاداها، بسبب بغضه لأهله، ورد فعل ضدهم لتعلقهم الشديد بالدين والملكية، وتزوج من بغي واستمر زواجه بها سبع عشر عاماً كانت وبالاً عليه، وعاش فترات طويلة من الضياع والعوز المادي، وكانت حياته سلسلة من الإحباطات والعلاقات الفاشلة، والتقى بالفيلسوف «سان سيمون» وتأثر به أبلغ تأثر وانطبع بكثير من آرائه وأفكاره، ثم اختلفا وتعاديا، وتعرف كونت في سنة ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م على «كلوتيلد دي فو» وهي امرأة في الثلاثين من العمر متزوجة، وزوجها كان خارج فرنسا، وكانت مصابة بالسل، وبقي كونت معها صديقاً وعشيقاً إلى أن ماتت بعد عامين، فانصرف إلى عبادتها بكل ما في الكلمة من معنى، وستطال هذه العبادة كل الأشياء والذكريات التي بقيت له منها، وسيظهر أثرها واضحاً في مذهبه بما بات يعطيه للمرأة بصفة عامة من دور، وفي وقت احتضاره أحاط به تلامذته الذين سيتولون من بعده تنفيذ وصيته، كان يحتضن الأشياء التي تركتها كلوتيلد، وحرم زوجته في وصيته من الإرث، بعد أن عدد نقائصها وعيوبها، وأورث منزله الذي علم فيه السنوات الأخيرة من حياته للجمعية الوضعية وما تزال هذه الجمعية قائمة إلى اليوم.

يُعد أوجست كونت والد «علم الاجتماع» المعاصر، حسب ماجاء في الكتب التي ترجمت له، وهو في الوقت ذاته رائد «المدرسة الوضعية».

جاء كونت بعد أن حصلت في أوروبا تقلبات اجتماعية وفكرية كبيرة، وحصلت فجوات هائلة في بنية الحياة هناك بعد أن سقطت مقومات الماضي التي كانت تملأ الحياة الغربية، ذهبت الأنظمة والأوضاع التي دامت قروناً متوالية، وأنهار الدين النصراني، وتضعضعت مبادئ الأخلاق، واهتزت قواعد المجتمع، كل ذلك أتى عقيب العصر الذي يسمونه عصر التنوير، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث تم هدم الماضي، ولم يتم بناء

شيء جديد بعد، وكان الشيء الوحيد الذي تعلقت به الأنظار متسلية عما وقع بها هو التطور التقني، ولكن ذلك لم يستطع أن يغطي على الأسقام الكبيرة التي أعقبت هدم القيم والتقاليد والأقطار الماضية، ونقض الكنيسة حجراً حجراً وتقويض بنيانها المعنوي، الذي تلاه الفراغ الروحي والنفسي والاجتماعي، فعلى الرغم من ضلال الكنيسة وخرافة تعاليمها، إلاّ أنها كانت تمثل ديناً يأوي الناس إليه ويقتبسون منه مسيرة حياتهم الاجتماعية، على ما في ذلك ـ كما أسلفت ـ من ضلال وجور وخداع واستغلال، ولكنه كان على كل حال ديناً، أو قل شبه دين، يربط بين السماء والأرض بنوع من الرابطة ولو كانت واهية.

بعد أن سقطت هذه الرابطة وتمزقت تماماً وأصبح الإنسان الغربي مقعياً على الأرض، التفت يبحث عن شيء يتشبث به، وتوجه زعماء الفكر إلى العقل الذي تحرر من سلطان الكنيسة وحقق انتصارات في مجال الطبيعة، لعلهم يجدون فيه «الدين الجديد».

هنا برز أوجست كونت، الهائج المضطرب المعادي للكنيسة بقوة، فأطلق مبادئ «الدين الجديد» الدين المادي الدنيوي الذي لايمت إلى دين الكنيسة ولا إلى أي دين سماوي بصلة، وكان هذا الدين تحت شعار «الفلسفة الوضعية العقلية».

بدأ كونت بدراسة التاريخ البشري ـ حسب زعمه ـ فاكتشف القانون الذي سارت عليه الحياة البشرية، كما يقول.

ودراسة تاريخ العقل البشري التي ادعاها كونت هي في الحقيقة دراسة للعقل الأوروبي؛ لأنه قد صرح بأن الهند والصين ـ مثلاً ـ لم يسهما في تطوير العقل البشري، فهذه أول النقائص في فلسفته، وبداية الادعاءات.

ثم وضع القانون القائل بأن التقدم البشري، والعقول والعلوم مرت بثلاث مراحل:

١ ـ اللاهوتية، وهي مرحلة خرافة، فيها تقدم الآلهة للإنسان مبدأ التفسير والفعل.

٢ ـ الميتافيزيقية، وهي مرحلة الدين، وفيها تنوب مناب القوى الإلهية قوى مجردة ولا شخصية.

٣ ـ الوضعية، وهي مرحلة العلم والعقل «مرحلة الفلسفة الوضعية» حيث يتوقف الإنسان والعقل والعلم عن البحث في العلة الأولى، ويقتصر على دراسة قوانين الظواهر وترتيبها من الخاص إلى العام، حيث تكون الوسيلة الأولى في هذه الدراسة هي الملاحظة ثم يأتي التجريب ثم تأتي المقارنة، التي هي أداة علم الاجتماع، الذي يُدَّعَى أنه أول من قال به[١]، وبعلم الاجتماع هذا يرى كونت أن الإنسان يحقق لنفسه الوعي ويفهم التركيب المنطقي لعقله، وينفذ إلى المراحل الثلاث التي مرّ بها، ويرى أن التقدم الاجتماعي يتحقق عندما تكون لكل أعضاء المجتمع الآراء نفسها، ومحور التقدم عنده أن يصل الإنسان إلى «علمية» المرحلة الثالثة، وذلك بتجريد العقل من الغيبيات والخرافات والأوهام، ويقصد بذلك الدين، وبعد أن يتجرد العقل من هذه الغيبيات[٢] فعليه أن يركز على قضية «الواقع والتاريخ»[٣] الذي هو أساس الأسس في الفلسفة الوضعية، التي من أعظم مهامها العمل على «محو فكرة الحق»[٤] التي تعود ـ عنده ـ إلى أصل لاهوتي أي «ديني» وتفترض سلطة أعلى من الإنسان، ولذلك وجب مقابل محو فكرة الحق والدين، أن يوجد الناس ديناً آخر، هو «الدين الوضعي» دين أرضي مقابل الدين السماوي، دين ينتقل بالناس من الواقع إلى النافع.

وقد استخلص كونت أن الأديان تتلخص في عقيدتين «الله» سبحانه وتعالى و«الخلود» فعمد إلى هذين المفهومين واستخرج للفلسفة الوضعية ما يوافق ذلك، فجعل «المضمون الوضعي» مقابل «الألوهية» أي أن يكون هناك

---

(١) ثبت عكس هذا القول في الحياة الغربية نفسها فقد سبق كونت ـ مثلاً ـ «كبتيليه» الذي أطلق اسم «العلم الاجتماعي الطبيعي»، فكيف بغير هذا من المفكرين والفلاسفة غير الغربيين.

(٢) (٣) (٤) هذه كلها من أصول الحداثة.

فكرة كلية أزلية عظيمة تتصل بها نفوس الناس، وتتلخص هذه الفكرة عنده في «الإنسانية» التي يجب ـ عنده ـ أن تحل محل الإله، طالما أن الدين حاجة ملازمة للمجتمع، وخاصة من خواص النوع الإنساني، وديانة الإنسانية هي عبادة الإنسانية باعتبارها الموجود الأعظم الذي تتشارك فيه الموجودات الماضية والحاضرة والآتية، وهنا يأتي المضمون الوضعي الآخر الذي هو «الخلود».

فالإنسانية هي العقيدة والديانة الوضعية المتطورة لعقيدتي «الله» ـ جلّ جلالُه ـ، و«الخلود» التي كانت البشرية تؤمن بها في المرحلة الثانية، وبذلك تكون الإنسانية قد تخلصت من العقائد الدينية الغيبية، ومايتصل بها من قيم وأخلاق وشرائع ونظم اجتماعية وغيرها، واعتبارها مجرد أفكار ومحاولات إنسانية متخلفة جاءت في مرحلة كانت فيه البشرية قاصرة وغير مكتملة وغير ناضجة[1].

ومن هنا فرع كونت ومن جاء بعده هذه القضية، فعلى الناس بعد اعتناق الدين الوضعي الجديد، وعبادة الإله الجديد «الإنسانية» عليهم أن يستخرجوا النظم والمثل والقيم والأخلاق والتنظيم الاجتماعي منه وحده دون سواه.

وهنا نشأ علم الاجتماع اللاديني، المادي، الأرضي، الدنيوي، الذي يجعل الإنسان مجرد شيء من الأشياء، وما كانت نظرية كونت هذه لتأخذ مكانها من الشيوع والانتشار والتطبيق لولا جهود تلميذه اليهودي الفرنسي «أميل دوركايم» الذي طور أقوال كونت وأنزلها إلى «أرض الواقع ووضع لها قواعد، وأهتم على ضوء الفلسفة الوضعية الإلحادية بالمشاكل العملية[2].

---

(١) هذا أصل من أصول الحداثة.

(٢) انظر: الموسوعة الفلسفية للحفني: ص ٣٨٠ ـ ٣٨٣، ومعجم الفلاسفة: ص ٤٩٨ ـ ٥٠٢، وموسوعة أعلام الفلسفة ٢/ ٣٠١ ـ ٣٠٥.

٦ ـ دوركايم[1] ١٢٧٥ ـ ١٣٣٦هـ/١٨٥٨ ـ ١٩١٧م:

ورث هذا اليهودي الفرنسي الناشيء في أسرة متدينة علم الاجتماع بهيئته الوضعية من أوجست كونت، وسعى جاهداً في دهاء تلمودي هدام إلى استثمار هذه الفلسفة في الواقع المعاش، وأصبح رائداً لعلم الاجتماع بعد كونت، وأستاذاً في جامعة السوربون، وكان تابعاً لكونت ثم صار ناقداً له.

يرى دوركايم أنه لاتصح دراسة الاجتماع من خلال أفكار وانفعالات الأفراد، ولكن مباشرة من خلال استقراء الأنظمة والآداب والفنون التي يعتبرها جميعاً من مظاهر الحياة في المجتمعات الإنسانية، ويتمثل فيها جميعاً الضمير الجماعي الذي يفعل فعله في الأفراد، ويضغط عليهم إلى حد قسرهم على اتخاذ مواقف قد تختلف مع آرائهم الخاصة، ومعنى أن الاستقراء إحصائي هو أن دراسة الانتحار مثلاً كواقعة اجتماعية يعني دراسة المعدل الإحصائي للانتحار في المجتمع، فهو يرى أن الانتحار ظاهرة اجتماعية بمعنى أن ارتباط حدوثه بين الرجال أكثر من النساء والشيوخ والأطفال، وفي شهور الربيع أكثر من بقية السنة، حيث الرجال أكثر اندماجاً في مجتمعاتهم، وشهور الربيع أكثر من الشهور اقتراناً بالنشاط الاجتماعي، ومن ثم لايكون هناك تفسير لزيادة معدل الانتحار إلاّ التفسير الاجتماعي، وبهذا المنظور المادي البحت.

ويرى دوركايم أن كل مجتمع له نظامه التربوي الذي يفرض نفسه بقوة على أفراده، وهو في أغلبه من عمل الأجيال السابقة، ومن ثم فالتربية هي تأثير الأجيال البالغة على الأجيال التي لم تنضح بعد للحياة يتطلبها المجتمع السياسي ككل، والطبقة المفروض أن ينتسب إليها بشكل خاص، والتربية في الطور الوضعي الذي يعنيه ويقصده دوركايم تربية علمانية عقلية، فهو يرى أن الأخلاق في المجتمعات الدنيا دينية، لكنها في الطور الوضعي اجتماعية تستهدف مصلحة الجميع.

---

(١) سبقت ترجمته.

وهكذا أراد دوركايم أن يهدم الدين، والأخلاق من جذورها، فأقام ما أسماه «فلسفة العقل الجمعي» وادعى أن العقل المشترك للمجتمع هو الموجه لكل فرد فيه، بل هو المكون لكل فكرة في كل فرد، ومنشيء المذاهب والعادات والمفاهيم[1].

ومحور فكرة دوركايم في العقل الجمعي أن المجتمع هو الكيان الإنساني، وقد أخذها الماركسيون من بعد ليكون أساساً لمذهبهم الاقتصادي ونظريتهم الاجتماعية التي جعلت اهتمامها مركزاً على المجتمع مضحية بالفرد، وقد اتجه دوركايم بخلفياته اليهودية التي أخبر الله عنها بأنهم يسعون في الأرض فساداً، وركز في دراساته الاجتماعية على:

أ ـ تفسير أية ظاهرة اجتماعية تفسيراً مادياً لايعترف بوجود الله تعالى ولا بالغيبيات، ولا بأي شيء وراء العالم المادي.

ب ـ اختراع فكرة «العقل الجمعي» الذي يحرك الناس دون إرادة منهم ولا تفكير، ولا قدرة على المقاومة، وحين يعرف العقل الجمعي تجد أنه موجود خارج عقول الأفراد، وهو ليس مجموع عقولهم، ولايشترط أن يكون موافقاً لعقل أحد منهم، ولا لمزاجه الخاص، وهو يؤثر في عقول جميع الأفراد من خارج كيانهم، وهم لايملكون إلاّ أن يطيعوه ولو على غير إرادة منهم.

وهذا العقل الجمعي المزعوم والمسيطر، دائم التغير فهو يبيح اليوم ما منعه بالأمس والعكس، دون ضابط ولا منطلق معقول.

وبناء على هذا فلايُمكن ـ عند دوركايم ـ أن يكون هناك ثبات لشيء من القيم إطلاقاً[2]، فلا الدين ولا الأخلاق ولا السلوك ولا الآداب ولا سائر القيم لها ثبات، بل هي دائمة التغير، يغيرها

---

(١) من هذا المنطلق نجد أن الحداثيين يرون الخروج على المجتمع وأخلاقه ومذاهبه أصلاً للحداثة الفكرية والأدبية.

(٢) وهذا أصل حداثي أصيل.

ويؤثر فيها العقل الجمعي الذي لا سلطان للبشر عليه ولا حول لهم ولا قوة معه.

وكما ادعى أوجست كونت إلهاً هو «الإنسانية» فقد ادعى دوركايم إلهاً آخر هو «العقل الجمعي» وراحوا جميعاً يتعبدون لهذه الآلهة المزعومة، ويخضعون لسلطانها وقهرها وغلبتها التي لايُمكن الفكاك منها مطلقاً، حيث يبقى الناس أمام تلك الأرباب المدعاة بلا اختيار ولا حرية ولا تصرف ولا إرادة، إنها الجبرية المادية متمثلة في هذا التصور المادي الإلحادي، كما تمثلت في الجبرية الاقتصادية الماركسية.

جـ ـ سعى دوركايم إلى إلغاء مقتضيات الفطرة الإنسانية النازعة إلى الإيمان بالله تعالى وعبادته وإلى فضائل الأخلاق، وإلى بناء الحياة الاجتماعية على نظام الأسرة القائم على الزواج، وادعى بكل جرأة تخريبية أن الدين والأسرة والزواج التي كان يظن أنها من الفطرة ليست كذلك؛ لأن التاريخ ـ حسب زعمه ـ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان.

د ـ يفسر دوركايم الدين والأخلاق في المجتمعات الإنسانية تفسيراً مادياً بحتاً، ويزعم أنها وليدة أسباب اجتماعية فقط، وليس لها سند من الحقيقة، وليس لها دوافع في الفطرة الإنسانية[1].

وهكذا غرس دوركايم بأسطورته الخرافية «العقل الجمعي» مجموعة من الأمراض الاعتقادية والسلوكية والاجتماعية، وقد أخذ عن داروين فكرة التطور الدائم، وفكرة القهر الخارجي الذي يقهر الفرد على غير رغبة ذاتية منه فيطوره رغماً عنه، وأخذ عنه التفسير الحيواني للإنسان، فهو لايفتأ يستشهد في كل حالة بما يحدث في عالم الحيوان[2].

---

(١) (٢) انظر: الموسوعة الفلسفية للحفني: ص ١٨٣ ـ ١٨٤، وكواشف زيوف: ص ٣٣٣ ـ ٣٤٦، والتطور والثبات في حياة البشر: ص ٥١ ـ ٥٧.

٧ ـ فلاسفة المذهب الذرائعي[١] «البرجماتية» وقد سبق الحديث عن البرجماتية وأثرها، وقد صاغ هؤلاء الفلاسفة الفكرة الذرائعية النفعية، الملخصة في أن السعي لبلوغ غايات مستقبلية فردية أو اجتماعية أو سياسية، واختيار الوسائل للوصول إليها هي العلامة والمعيار على وجود الخصائص العقلية في ظاهرة مّا.

على أن بين أعلام الفلسفة البرغماتية أوجه اختلاف تفصيلية داخل المذهب الذرائعي لايعنينا هنا الخوض في تفاصيلها.

بيد أن هذه النظرية النفعية أوصلت المجتمع الغربي إلى التمزق؛ لأن تحقيق مصالح الأفراد لايُمكن إلاّ بالصراع والمغالبة، والاحتيال، والمراوغة، وهذا ماتجيزه البرجماتية مادام يوصل إلى المصلحة، بل لقد جعلوا الأديان رابطة اجتماعية مصلحية، وكذلك سائر الروابط الاجتماعية مثل الأسرة والزواج والأبناء، وحتى المساعي الاجتماعية ذات الصبغة الإنسانية البحتة.

وعندهم أن الدين والأخلاق يحب أن تدرس على أنها واقع داخلي نفسي يتم تقيمهما على أساس نتائجها العملية، وليس على أساس مصدرها ومنبعها.

يقول أحد فلاسفة البرغماتية: (انظروا في الآثار ذات البعد العملي التي نظن أنه من الممكن أن ينتجها موضوع تصورنا، إن تصورنا لهذه الآثار هو كل تصورنا للموضوع)[٢].

---

(١) وأشهرهم:
١ ـ تشارلس بيرس ١٢٥٥ ـ ١٣٣٣ هـ/ ١٨٣٩ ـ ١٩١٤ م. انظر ترجمته وتفصيل أفكاره في الموسوعة الفلسفية للحفني: ص ١٢٥، وموسوعة أعلام الفلسفة ١/ ٢٩٧.
٢ ـ وليام جيمس ١٢٥٨ ـ ١٣٢٨ هـ/ ١٨٤٢ ـ ١٩١٠ م. انظر ترجمته وتفصيل فلسفته في الموسوعة الفلسفية للحفني: ص ١٢٥، وموسوعة أعلام الفلسفة ١/ ٣٧٥.
٣ ـ جون ديوي ١٢٧٦ ـ ١٣٧٢ هـ/ ١٨٥٩ ـ ١٩٥٢ م. انظر ترجمته وفلسفته في الموسوعة الفلسفية للحفني ١٩٩، وموسوعة أعلام الفلسفة ١/ ٤٦٣.
(٢) موسوعة أعلام الفلسفة ١/ ٢٩٨. والقول لتشارلس بيرس.

وهذا يعني أن النية الداخلية تحدد الموضوع في ذات الإنسان قبل أن يتصوره في الخارج، ذلك أن الذريعة هي أساس المعرفة عند البرجماتي[1].

ويرى بعض فلاسفتهم أن علم التربية يجب أن يخضع لمبدأ عملي؛ لأن المطلوب هو تخريج أناس عمليين لايهتمون بالفكر المجرد.

وبناء على الفلسفة البرغماتية فإن الغطرسة الغربية تغطي على أذهان وعقول الناس هناك، وتتمثل في وهم صارخ يطل من حياتهم وممارساتهم، ويتسلل إلى المستعبدين في الشرق فيملأ ما في نفوسهم من تفاهة وهزيمة وفراغ، مؤدى هذا الوهم «البرغماتي» أنه طالما أن الغرب قد ارتقى صناعياً وتقنياً وبنى وشيد المصانع ووصل إلى الأفلاك وحاز القوة، فذلك دليل على أن مساره الفكري والخلقي والاعتقادي صحيح وجيد، ولمن أراد أن يصل إلى الرقي والازدهار، فلابد أن يسلك المسالك الفكرية والاجتماعية والاعتقادية التي سلكها الغرب.

ومنشأ هذه الخرافة أن العظمة العلمية تستبع حتماً أن يكون الإنسان كله قد ارتقى، فلابد إذن أن تكون الأخلاق والعادات والتقاليد الموجودة في عصر الذرة ومجتمع التقنية، أفضل من مثيلاتها في العصور السابقة!!.

وما دام الإنسان في المجتمع الغربي لايؤمن بإله ولايتقيد بخلق، ويستبيح الفوضى الجنسية، وينكر القيم العليا ولايقر بأسرة ولايطيع أوامر والدين، ولايتردد في استعمال أي وسيلة للوصول إلى منفعته ومصلحته، فلابد إذن أن يكون هذا كله هو الحق؛ لأن هذا هو عصر العلم والنور والحقيقة!!.

وقد نسي الغارقون في هذه الخرافة أن المقياس الحقيقي لعظمة الإنسان ليس هو جهاز الحاسب الآلي ولا ارتياد الفضاء، ولا الأقمار الصناعية ولا الصاروخ، ولا القنبلة الذرية التي يدمر بها الحياة والأحياء، وإنّما المقياس الحقيقي للحضارة والرقي خلفية هذا كله من عقيدة صحيحة

---

(١) انظر: المصدر السابق الصفحة نفسها.

وخلق قويم، وأثر هذا في مشاعره وعواطفه، وكيانه النفسي على وجه العموم، فإذا انطوى الإنسان والمجتمع على عقيدة صحيحة، وفكرة عن الإنسانية أوسع وأشمل وأعمق من الأفكار المادية، وفكرة عن الحياة أكبر وأرفع، فقد ارتقى حقاً.

ولن يكون الغرب قط راقياً حتى يغير نظرته للأحياء والحياة والأشياء، ويقيم فلسفة على أساس غير البراغماتزم أو غير الغاية النفعية للأعمال.

وإنّما ينكر الغرب المادي «البرجماتي» كل القيم العليا ويؤمن بالمادية النفعية، لأسباب عديدة منها ظروف البيئة الأوروبية التي جعلت شعوباً مختلفة تزدحم على رقعة ضيقة من الأرض قليلة الخيرات فأصبح الصراع هو الغالب على طبائعهم، لا التعاون والحب، وصارت تسيطر على مشاعرهم تلك الواقعية المادية التي لاترتفع عن محيط الأرض وعالم الضرورة، فهو إذن عيب اضطرتهم إليه ظروف معينة وليس مزية تشتهى كما يتصور المغفلون.

وامتلاك التقنية والقوة لايستلزم النفور من مقومات الإنسانية الحقة، ما دام قد أمكن عملياً أن يجتمع هذا وذاك حين كان العالم الإسلامي ـ وقت تمسكه بالإسلام ـ يمتلك القوة العملية والحربية والسياسة والاقتصادية، أضف إلى ذلك أن امتلاك القوة على الأسس المادية النفعية لم يجلب للإنسانية غير الخراب والدمار والظلم، فهو قائم على الصراع لا على الحب، وعلى أن الغلبة للأقوى لا لصاحب الحق، وعلى أن التسلط والقهر والظلم والعدوان لا ضير فيها مادامت تصدر من دولة عظمى[1].

ومن مجموع هذه المذاهب والفلسفات، والآراء الفكرية، تكونت الحياة الاجتماعية الغربية، حياة تقوم على نبذ الدين والخلق، وأصبحت الديانة فيه للمادة والجنس والشهرة والغلبة، وأضحى الترابط الاجتماعي قائماً على الروابط النفعية، والصلات المصلحية.

---

(١) انظر: الإنسان بين المادية والإسلام: ص ٢١٨ ـ ٢٢١.

لقد اجتمعوا في سفينة مخروقة يقودها بحارون معتوهون، مجتمع يعيش الإفلاس والحيرة والضياع والتمزق والأمراض العصبية والعاهات النفسية.

يقول رينيه دوبو[1]: (ووصف الإنسان بأنه «آلية من الذرات ليس إلاّ» لايؤدي تفسيراً كاملاً لطبيعته، والأسباب التي يتبعها الباحث في هذا الموضوع تحدد نوع الملاحظات التي يستطيع القيام بها، فإذا اختار العالم دراسة الإنسان بالطرق الفيزيائية ـ الكيماوية، فمن الطبيعي أن يكتشفوا فقط المحددات الفيزيائية والكيماوية في حياته، وأن يجدوا أن جسمه هو آلية من الذرات، إلاّ أنهم بذلك يهملون الخصائص الإنسانية التي لها، على الأقل، نفس القدر من الأهمية... والتعريف الميكانيكي لحياة الإنسان يخطيء الهدف؛ لأن ما هو إنساني في الإنسان هو نفسه بالتحديد «غير ميكانيكي»)[2].

ويقول: (منذ قرنين تقريباً والإنسان الغربي يعتقد أن خلاصه سيأتي عن طريق الاكتشافات التكنولوجية، ولا جدال في أن المكتشفات التكنولوجية زادت من غناه المادي، وحسنت صحته العضوية، إلاّ أنها لم تجلب له بالضرورة الغنى والصحة اللذين يولدان السعادة)[3].

ويقول: (من أسوأ نتائج الحياة العصرية بالنسبة لمخطط «التحضر» الأمريكي «كيستوفر الكسندر» «عارض الاعتزال والاستقلال الذاتي»، يقول «الكسندر»: إن أكثر الناس يستعملون بيوتهم من ضغوط العالم الخارجي ويمارسون العزلة الاجتماعية كشكل من أشكال وقاية الذات وفي النهاية يصبح الانسحاب والاعتزال عادة ويصل الناس لنقطة لايستطيعون معها ـ بل ولايريدون ـ السماح للآخرين بولوج عالمهم الذاتي الخاص بهم)[4].

---

(١) سبقت ترجمته.

(٢) إنسانية الإنسان: ص ١٦٨.

(٣) المصدر السابق: ص ١٨٦.

(٤) المصدر السابق: ص ١٩٤.

ويقول: (تعب الكثير من الناس من هذا السباق المجنون للتغيير الدائم، وأنهك هذا الصراع البالغين، أمَّا المراهقون فلقد أصبحوا لايجدون فيه أية قيمة تذكر، وعندما يشاهد هؤلاء جميعاً تعقيد الحياة المدوخ، والجهود المهووسة لاختراع تكنولوجيات جديدة لتحل مشاكل خلقتها[١] التكنولوجيات نفسها، يعلو صراخهم: قفو[٢] هذا العالم، فنحن نريد أن نخرج منه)[٣].

ويقول: (العلاقات المتبادلة بين بني البشر هي، بالطبع، من أهم العوامل التي يأخذها المخططون بعين الاعتبار، ولكن لايعرف في هذا المجال إلاّ القليل من احتياجات الإنسان الحقيقية، وكثير من علماء الانثروبولوجيا[٤] وعلماء الاجتماع ينظرون بحزن وتشاؤم إلى آثار الشروط المحيطية العصرية على العلاقات الإنسانية، ولايجدون كبير أمل في قدرة الوضع الحاضر على توفير الحاجات الأساسية لقيام صلات ودية حميمة بين أفراد قلائل كما يحصل فقط في المجموعات البدائية الصغيرة[٥]، «وفي المجتمع القديم كان الإنسان مرتبطاً بالإنسان، أمَّا في التجمعات الحديثة ـ ولايُمكن تسمية هذه التجمعات مجتمعاً ـ فيعيش الإنسان وحيداً، وكل شواهد الطب النفساني تشير إلى أن عضوية الإنسان في جماعة أو مجتمع تقويه وتمكنه من الإبقاء على توازنه أمام الصدمات العادية في الحياة، وتساعده على تربية أولاد يكونون بدورهم سعداء مرنين، وهكذا تظهر الحلقة المفرغة، وفقدان الانتماء للجماعة في جيل ما قد يجعل الناس في الجيل القادم أقل قدرة على الاندماج في عضوية الجماعة والمدنية، وهي في أساسها محطمة لحياة الجماعات الصغيرة، تترك الرجال والنساء تعساء يشعرون بالوحدة)[٦].

---

(١) (٢) هكذا الصحيح صنعتها، أمَّا قوله: قفوا، فالصواب: أوقفوا.

(٣) المصدر السابق: ص ١٩٨.

(٤) الانثروبولوجيا سبق شرحها: ص ٧٦٤.

(٥) هذا يدل على جهل أو تجاهل الكاتب للإسلام وتاريخه وحضارته وحياته الاجتماعية.

(٦) المصدر السابق: ص ٢٠٤.

ويقول واصفاً الحياة الأمريكية والأوروبية: (في أيامنا هذه يهتم «المجتمع العظيم»! على ما يظهر بخلق طبقة متوسطة ومدنية مادية مكسوة بالمظاهر التافهة)[1].

ويقول أيضاً: (والحقيقة على مايظهر، أن بيئتنا وطرق معيشتنا تؤثر بعمق على مواقفنا ومواقف الأجيال المقبلة، وليس هناك شيء أكثر كرباً وغماً، بالنسبة لمستقبلنا القريب والبعيد، من الانحطاط وبشاعة مراكزنا الحضرية الكبيرة، واضطراب وسائل النقل العامة، والتركيز الزائد على الراحة المادية الأنانية، وفقدان السلوك الفردي والاجتماعي والتضحية «بالكيف» في مجال الإنتاج والتربية، والنقص في ردود الفعل المبدعة تجاه الأخطار بخاصة يثبط الهمم ويبعث على اليأس؛ لأن كل الناس المفكرين يعون الحالة الحاضرة، وهم متلهفون لعمل شيء ما لإصلاحها، ولكن لايُمكن القيام بعمل جماعي؛ لأن هذا النوع من العمل يحتاج إلى إيمان موحد[2]، وهو غير موجود، وبسبب حاجتنا لهذا الإيمان يصبح البحث عن معنى لحياتنا أهم واجباتنا في هذه الأيام)[3].

ثم ذهب في الصفحات اللاحقة يشرح عجز العلم ومحدوديته، وعجز العلوم المادية ومحدوديتها عن فهم معنى للحياة أو إيجاد حلول للمشاكل الاجتماعية والنفسية القائمة اليوم، ثم عاد يذكر فائدة الإيمان الموحد عندما كان يحكم المجتمعات، وهنا يشير إلى النصرانية، ويذكر أثر الإيمان في إيجاد القيم ثم أثر القيم في المجتمعات[4].

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٠٨.

(٢) رغم داروينية المؤلف رينيه دوبو إلاّ أنه يدعو إلى إيمان موحد غير الداروينية والفرويدية والمادية الشائعة لديهم، وهو لايشير إلى نوعية هذا الإيمان، ولا مصدره، والعودة إلى الإيمان هو الحل السليم إذا كان هذا الإيمان صحيحاً.

(٣) المصدر السابق: ص ٢١٨.

(٤) انظر: المصدر السابق: ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.

ثم يصف الجنوح الاجتماعي الشائع في أمريكا قائلاً: (... يجب اعتبار أكثر الناس في بلاد المدنية الغربية ـ وبخاصة أمريكا اليوم ـ من المجانين؛ لأنهم يتصرفون وكأنما المقياس الوحيد لسلوكهم هو إرضاء رغباتهم ودوافعهم الغريزية الآنية دون النظر لعواقب ذلك على باقي الطبيعة وعلى الذرية، وتستنكر الكتب المدرسية الملاحظة غير المسؤولة التي أطلقها (لويس الخامس عشر) «من بعدي فليكن الطوفان» ومع ذلك فنحن نستعمل الأرض كأننا آخر جيل يسكنها ونتصرف اجتماعياً كأنما نريد أن نُعذر أعمالنا السيئة بالتساؤل: ماذا صنعت ذريتي من أجلي؟؟... والخطورة ليست فقط مقصورة على «اغتصابنا» للطبيعة بل في تهديدنا لمستقبل البشرية نفسه)[1].

(وكل المجتمعات المتأثرة بمدنية الغرب تتبع «توراة التنمية» كعقيدة وتدور في دائرة تشبه «حلقات ذكر الدراويش» وتقول هذه التوراة: «انتجوا أكثر لكي تستهلكوا أكثر ثم لكي تنتجوا أكثر» ولايحتاج الإنسان لكي يكون عالم اجتماع حتى يدرك أن هذه هي فلسفة مريضة مجنونة...)[2].

ثم يضيف: (وأنا أشك أنا في استطاعة البشرية تحمل أسلوب حياتنا السخيف لمدة أطول دون أن تفقد أفضل ما في الإنسانية، وعلى الرجل الغربي أن يختار مجتمعاً جديداً، وإلاّ فإن المجتمع الحديث سيفنيه)[3].

ثم ينقل كلام بعض علماء التقنية الغربيين القائلين بأن: (هناك عناصر في الموقف الحاضر يُمكن إيجاد أجوبة لها في التكنولوجيا، ولكن هناك عناصر أخرى لايُمكن للتكنولوجيا أن تجيب عليها وهي تتعلق إلى حد ما بموضوع نظرتنا الفلسفية الأساسية بالنسبة للإنسان وما يعني تطبيقها)[4].

ويقول: (أصبحت المدن العصرية، وبخاصة الحواضر الأميركية الضخمة كابوساً مزعجاً؛ لأنها تفشل باطراد في توفير محيط مرضٍ للحاجات

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣.

(٢) المصدر السابق: ص ٢٢٩.

(٣) (٤) المصدر السابق: ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

غير المتغيرة في طبيعة الإنسان البيولوجية ولتطوره الثقافي)[١].

ويقول: (وستعاني مجتمعاتنا، لا محالة، من كوارث بيولوجية ونفسية مالم تنمي بيئات تكنولوجية وحضرية تتناسب حقاً وحاجات الإنسان[٢]، فأمراض المدنية وتمرد الشباب هي إنذارات بأن العافية البدنية والصحة العقلية والرضى العاطفي كلها تحتاج لأكثر من الغنى المادي وإنتاج الأشياء ومعرفة أسرار الذرة)[٣].

يقول كولن ولسن في «سقوط الحضارة»: (وكنت كلما تغلغلت في دراسة اللامنتمي شعرت بأنه ليس غير عرض من أعراض هذا العصر، فأمَّا من حيث الجوهر فهو عاصي، وأمَّا سبب عصيانه فهو انعدام الجانب الروحي في حضارتنا الغنية مادياً)[٤].

(... ولم يكن أمراً شديد الأهمية أن أستنتج أن اللامنتمي هو عرض من أعراض تدهور الحضارة؛ لأن اللامنتمين يظهرون كالبثور على جلد الحضارة، ويميل الإنسان إلى أن يكون على طبيعة محيطه، فإذا كانت الحضارة مريضة روحياً فإن الفرد يعاني من المرض ذاته)[٥].

وقال: (... قال لي شاب كان يلوح عليه أنه كان مغرماً بوظيفته المدنية: «أمر يدمر الروح، أليس كذلك؟» وهذه هي عبارة عادية، إلاّ أنني لم أكن قد سمعتها من قبل، وقد استعدتها في ذهني وكأنها إلهام، إنه ليس أمراً يدمر الروح، وإنّما يدمر الحياة، إن الروائح التي تنبعث من خمود قوة الحياة تشبه الروائح المنبعثة من الماء الراكد، وهكذا يتسم الكيان كله)[٦].

---

(١) المصدر السابق: ص ٢٤٩.
(٢) وهو حل إجمالي قاصر، والمراد من النص إثبات مقدار الإنهيار الاجتماعي.
(٣) المصدر السابق: ص ٢٥٢.
(٤) سقوط الحضارة: ص ٥.
(٥) المصدر السابق: ص ٦.
(٦) المصدر السابق: ص ٩.

ويقول في «رحلة نحو البداية»: (الحضارة تجعلنا جميعاً خائفين كالأغنام، ثم تقتل أرواحنا من الجوع والجدب)[1].

ويذكر مؤلف كتاب «نهاية عمالقة في حضارة الغرب» تحت عنوان نهاية عمالقة أو عمالقة النهاية قائلاً: (إلى أي حد يجسد من اخترناهم من العمالقة أزمة لهذه الحضارة في سيرتها؟ وهل هي أزمة عابرة وطارئة تنصب على وظائف الحضارة، وتتجاوز بتصحيحها كما يتصور ذلك مرجو التفاؤل، أم أنها أزمة عضوية تنذر بالتفكك والانهيار كما يذهب إلى ذلك دعاة التشاؤم ومقروره؟ ففي نظر هؤلاء المتشائمين: الحضارة استلبت لإشباع شهوة الاستهلاك، متمردة على كل ما يوقف أو يحد من هذا المد سواء في ذلك الإطار القيمي أو الروحي بل وفي بعض المناحي الإنسانية، فالعد النازل قد بدأ لحضارة الأشياء بعد أن تنكرت للإنسانية وباسم الإنسان فاختنقت ذاتياً، لا نتيجة لقوة أعدائها وخصومها أو من يتطلعون بميراثها، ولا مصداقية لنبوءات «كارل ماركس» الخاصة بالتدمير الذاتي للرأسمالية، فالتدمير حالياً لايُرى على مستوى شق معين من هذه الحضارة الغربية، وإنّما على مستوى شقيها الليبرالي والماركسي، فالأم واحدة وإن اختلفت المبررات، والوسائل والركيزة الثلاثية التي يعتمد عليها كل شطر توجد بالضرورة لدى الشطر الآخر، ونعني بذلك المعرفة التكنولوجية الأسس العلمية، التطبيق الصناعي، وما يملياه من برمجة وعقلنة على مستوى الانتاج والتبادل والاستهلاك... الأزمة أعم وأعمق نتيجة لتعدد العوامل المهيئة لها، بل بخصوصيات هذه الحضارة في حد ذاتها باعتبارها حضارة ركزت على الوعاء والقالب للإنسان كجسد إشباعاً ورفاهية ورخاء، وتلذذاً بالمقتنيات التي أُستلب بها في النهاية، ونسيت أو تناست، جهلت أو تجاهلت الأبعاد الأخرى للإنسان وفي الصدارة إنسانية الإنسان.

ف «مركيز»[2] أحد فلاسفة العصر حينما ركز على الإنسان ذي البعد

---

(١) رحلة نحو البداية: ص ١٧٨.

(٢) هربرت ماركيز أو ماركوز فيلسوف أمريكي ألماني الأصل أستاذ للفلسفة والسياسة في=

الواحد لهذه الحضارة، لم يكن بعيداً عن هذا المنظور، ودعوته إلى مواجهة حضارة التدمير وتجاوزها وما عاصر ذلك من أحداث في نهاية الستينات، متمركزة أساساً في أواسط الشباب في فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وغيرهما، مما جعل هذا الفيلسوف يتصدر من بين المبشرين بأفول حضارة الغرب[1])[2].

وحقيقة الأمر أن واقع المجتمعات اللادينية في الأرض مما تعجز العبارات عن تصوير فضائعه وانحداراته وجرائمه وأهواله وأزماته، والتي يزيد من خطورتها وفضاعتها أنهم يسعون في نشرها في العالم، ويسعى الأغبياء المقلدون في استجلاب هذه الشرور إلى مجتمعاتهم، وينادون بهدم الدين وتحطيم الأخلاق وتفكيك المجتمع، والتمرد على الأب والأسرة، محاكاة للغربيين الذين نادوا في أول عهد مايسمى «النهضة الحديثة» بهذه الأمور، آملين أن يجدوا منبعاً آخر للأخلاق والروابط الاجتماعية غير الدين.

والواقع أنهم كانوا فاقدين للدين الصحيح، وسالكين في طرق الانهيارات الأخلاقية، فكانت مشكلتهم الخاصة أنهم يبحثون عن شيء يسد هذا الفراغ الهائل في نفوسهم، ويلتمسون منبعاً للأخلاق غير الدين، فانغمسوا في التصورات الفلسفية المادية القاحلة، فجاءت النتائج أنهم تخلوا كلياً حتى عن صورة الدين وإيحاءاته التي ظلت منذ زمن طويل ـ رغم التحريفات والخرافات في هذا الدين ـ تسقي شجرة الأخلاق عندهم، ثم

= سان دييغو في كالفورنيا، ولد في برلين ١٣١٥هـ ـ ١٨٩٨ م، وتوفي سنة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩ م. انظر: موسوعة أعلام الفلسفة ٢/ ٤٣٥، ومعجم الفلاسفة: ص ٥٧٦.

(١) ينبغي الإشارة هنا إلى مقال تركي الحمد الذي نشره في الشرق الأوسط بعنوان «هل أن الغرب يسقط ؟» والذي يقرر فيه أن سقوط الغرب بعيد، بل يكاد يقول بأنه مستحيل !!!.

(٢) نهاية عمالقة في حضارة الغرب لرشدي فكار: ص ١٢٩ ـ ١٣٠، وقد ذكر مجموعة فلاسفة ممن لهم رأي في قرب سقوط المدنية الغربية ومنهم راسل، وسارتر وهيدجر، وكارل جاسبرس وكامي.

جاءت الأجيال اللاحقة لتكون أكثر مادية وعلمانية من الأجيال السابقة لأنها توغلت أكثر في الابتعاد عن الدين والقيم، بل أصبحت تصفها بأنها مجرد وهم وخيال، وتلى ذلك النزول من المنحدر إلى المنزلق، ومنه إلى مستنقع المادية الحيوانية البحتة، ومن سطح المستنقع إلى عمقه إلى حمأة الطين الشهواني والحيواني.

وهكذا أزاحت العلمانية اللادينية ميثاق الحياة حين أزاحت الدين عن الحياة، ومع إقصاء الدين أقصيت الأخلاق لأنها أصلاً مستمدة من الدين.

أزيحت الأخلاق والدين عن السياسة، فأصبحت الغاية تبرر الوسيلة وأضحت البرغماتية النفعية أساساً، وأزيحت عن الاقتصاد منذ الثورة الصناعية، بتحليل الربا، والغش والخداع والكذب وشغل الناس بالتوافه من أجل الربح، وشن الحروب وسلب خيرات البلدان، وترسيخ الاستعمار من أجل إيجاد الأيدي العاملة وإيجاد أسواق لترويج البضائع، وإشاعة الفواحش الإعلامية لجلب الأهواء الشهوانية، وأزيحت في مجال العلم التجريبي البحت فلم يعد البحث العلمي من أجل العلم والحقيقة ـ كما كانت الدعاوى الغربية ـ بل أصبح العلم مسخراً للاستكبار والسيطرة ومصاحباً للمصالح والأهواء والشهوات، بل أصبح وسيلة لإخراج الناس عن دينهم بدعوى أن العلم يناقض الإيمان.

أضحى العلم جسراً للإلحاد، وسبباً اتخذه الملاحدة لتقويض الدين والأخلاق بزعم أن الدين والعلم التجريبي لايلتقيان.

وأُزيح الدين والأخلاق من الفكر فأصبح التبجح بالكفر والرذيلة من سمات التقدم والتحضر!! أمَّا الفنون ووسائل الإعلام، فقد أضحت السوق الواسعة لترويج الأضاليل والجاهليات والمفاسد الخلقية والرذائل السلوكية.

وهذه الأمور جميعها عملت في المجتمع عمل النار في الهشيم، وظهرت آثارها فيه ظهوراً صارخاً يدل غاية الدلالة على دمار آت، وأهوال قادمة على تلك المجتمعات.

ومع كل ذلك مازلنا نرى عبيد الأهواء والشبهات والشهوات يلجّون في

طغيانهم، ويصرون على أن درب الهلاك هذا هو درب النجاة والنهضة والتقدم، وما من علماني أو حداثي في بلاد المسلمين إلاّ وهو يدعو بهذه الدعوة أو ببعض مفرداتها، مستدبرين الهدى والخير والضياء، ومستقبلين قبلة المغضوب عليهم والضالين.

وسوف نرى في ما تبقى من هذا الفصل الشواهد العديدة على مقدار انحرافاتهم في القضايا الاجتماعية والنفسية، بيد أنه لابد من التنبيه على أن القضايا الاجتماعية تنبع من أحوال نفسية، وتؤثر فيها في الوقت نفسه، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] وقال ـ جَلَّ جَلالُهُ ـ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ ﴾[2].

ومن هذه الحقيقة وجب الربط بين القضايا النفسية والقضايا الاجتماعية.

وقد شرحت في الفصل السابق لهذا الاتجاه النفسي الذي شاع في الغرب فأثر في سلوكهم وأخلاقهم، كما أشرت إلى شيء من ذلك فيما مضى من هذا الفصل، وعلى ذلك فإن الكلام عن انحرافاتهم في القضايا الاجتماعية سيتضمن انحرافاتهم في القضايا النفسية مع ذكر وجه فيه الربط بين الانحراف النفسي والاجتماعي.

وانحرافاتهم في أوجه عديدة منها:

١ ـ المضادة للمجتمع ومعاداته.

٢ ـ السعي في إفساد المجتمع.

٣ ـ إسقاط مفاهيم الأخلاق والقيم والتقاليد من المجتمع.

٤ ـ نفي قيام مجتمع على أساس ديني.

---

(١) الآية ١١ من سورة الرعد.

(٢) الآية ٥٣ من سورة الأنفال.

٥ ـ الدعوة لتطبيق الحياة الاجتماعية الغربية.

٦ ـ المضادة للأسرة ونظام العائلة، ومعاداة الأب خاصة.

٧ ـ أثر الإنحراف النفسي في الانحراف الاجتماعي.

كل هذه الأوجه وغيرها مما فاضت به كتب ومجلات وأعمال الحداثيين والعلمانيين، والشواهد عليها عديدة، ويُمكن القول بإجمال قبل الدخول في تفاصيل انحرافاتهم ـ أن مما يدل على انحرافاتهم في القضايا الاجتماعية والنفسية:

ما وضعوه لأنفسهم من أصول سبق ذكر أكثرها في ثنايا البحث ومنها:

١ ـ زعمهم أنه ليس هناك حقائق مطلقة.

٢ ـ دعوتهم إلى استباحة المحرمات، والتحرر من الضوابط، وإسقاط موازين الحلال والحرام.

٣ ـ دعوتهم إلى التعددية الوثنية، ومضادة التوحيد ومبدأ الوحدة.

٤ ـ دعوتهم إلى إيجاد مفهومات حديثه شمولية جذرية.

٥ ـ الهجوم على التراث والثقافة الدينية «الإسلامية» والثقافة والعربية.

٦ ـ دعوتهم إلى الرفض والتمرد والثورة على كل شيء، والانقلاب على الأصول والمفاهيم الكلية والقواعد.

٧ ـ تأليه الإنسان، والدعوة إلى الإنسانية مبدأ وغاية.

٨ ـ ممارسة التعمية والغموض، ومضادة الإفهام والوضوح والظهور.

٩ ـ الدعوة إلى الخروج عن المألوف والسائد، ونفي السائد ورفضه.

١٠ ـ إعادة النظر في كل شيء، وممارسة الشك والسؤال في كل قضية.

١١ ـ الدعوة إلى القطيعة مع الماضي والمضادة له والانفصال عنه ومعارضته.

١٢ ـ القضاء على فكرة الثابت، والزعم بأن كل شيء متحول متطور، والزعم بأن كل فكرة أو قضية لها سمة الثبوت فهي تخلف.

١٣ ـ الدعوة إلى تأليه العقل والعلم المادي، والادعاء بأن حرية العقل «بالمفهوم العلماني» أساس كل تحديث وتقدم.

١٤ ـ الزعم بأنه لا حرية للإنسان إلاّ بهدم الشريعة والإسلام والأخلاق.

١٥ ـ رفض العبادة لله تعالى، واعتبار الدين تخلفاً وفشلاً، والادعاء بأن النهضة لاتتم إلاّ بالفصل بين الدين والحياة، وبنقل مركز الثقل من السماء إلى الأرض فقط.

١٦ ـ تبنى الهدم والفوضى، والخلخلة للأفكار والمعتقدات الراسخة، وتصريحهم أن التخريب حيوي وهو أول الواجبات، ومن علائمه المهمة الهذيان والعبث والجنون.

١٧ ـ الدعوة إلى إسقاط القداسة، واختراق المقدس وتدنيسه.

١٨ ـ إدانة الفعل والوعي، وقوانين العلم والنظام والمنطق، وكل ما تعارف عليه الناس وكل مؤسسي وثابت.

١٩ ـ تفكيك كل القيم والمعايير، وزعزعة وخلخلة كل الموازين الماضية.

٢٠ ـ كما أنه يجب أخذ التقنية عن الغرب، فإنه يجب أخذ الأفكار والثقافة والفلسفات والمذاهب والقيم.

٢١ ـ الحداثة رؤيا شاملة للحياة والوجود، وهي عقيدة ومضمون أبدي، ومفهوم حضاري جديد كامل.

وهذه الأصول الحداثية التي تدور عليها معظم أقوال وأعمال أهل الحداثة تدل كلها مجملة وكل واحد منها على حده، على موقفهم المعادي للمجتمع، بل الاتجاه التدميري لمقومات وأسسه ومؤسساته، وخاصة المجتمع المسلم الموجود أو المأمول.

الوجه الأول: المضادة للمجتمع ومعاداته:

يرى الحداثيون أن المجتمع الذي فيه بقايا من الدين وأخلاقه وقضاياه؛ عائق من عوائق انطلاقاتهم، ومعوق من معوقات مشروعاتهم؛ ولذلك سعوا جاهدين في تفكيك المجتمع ومؤسساته.

ويظهر ذلك في انحرافهم الاعتقادي المتمثل في جحدهم لربوبية الله تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته، فإنه هذا الجحد سيقود حتماً إلى محاربة المجتمع الذي يؤمن بهذه الأمور ويعتقدها، وسيعهم في إبعاد المجتمع عن هذه القضايا الأساسية والمهمة سوف يقود المجتمع ـ ولابد ـ إلى التفكك والتمزق والضياع، والواقع أكبر الشواهد على ذلك، فإن الأمة لما تخلت عن عقيدتها أو عن بعض عقيدتها أصابها الوهن والهزيمة والشتات.

ثم إذا نظرنا إلى التصورات الاعتقادية التي استمدها الحداثيون والعلمانيون من الوثنيات القديمة والحديثة ومن الأديان المحرفة، وجدنا أنهم أضافوا عوامل أخرى تزيد من تفكيك المجتمع ودماره وإلحاق الفوضى به وبجميع مؤسساته.

لاسيما إذا تذكرنا ما سبق ذكره في الفصل الرابع من الباب الأول من دعوتهم إلى إلحاق بلاد المسلمين أو بعضها بالغرب من خلال الفكرة المتوسطية التي نادي بها أنطون سعادة وأدونيس والخال وسائر عصابة شعر، والتي دعا إليها طه حسين ولويس عوض وسلامة موسى وغيرهم.

فهذا الإلحاق والدمج الذي يرجوه ويأمله المتغربون العملاء والمقلدون الأغبياء هو دعوة صريحة إلى تدمير المجتمع وتحطيم قوائمه وهدم أركانه وتقويض بقايا ما ورثه من الدين القويم والخلق السليم.

ثم إذا نظرنا في موقفهم من النبوة والوحي والتي كان بسببها توحد الأمة وقيام المجتمع الإسلامي على الأسس الصحيحة القوية، ونظرنا كيف عادى الحداثيون النبوة والأنبياء والوحي والكتب المنزلة وخاصة القرآن العظيم، تبين أي ضرر يردون إلحاقه بالمجتمع.

أمَّا موقفهم العملي من نظم الإسلام ومحاربتهم الأكيدة ومعادتهم الشديدة لحكم الإسلام، فإنها تضيف بصورة عملية أفتك الأسلحة المضادة للمجتمع والداعية إلى انهياره وتمزيقه، وكذلك موقفهم المحارب للأخلاق الإسلامية، والداعي إلى الرذائل الخلقية والانحلال والفوضى.

ويضاف إلى كل ما سبق ذكره ما لهم من مواقف وأقوال صريحة في هذا الصدد، وقد سجل إحسان عباس موقفهم من المجتمع في كتابه «اتجاهات الشعر العربي المعاصر»، ومما جاء فيه أن من الحداثيين من (يعتقدون بلا ريب أن الفرد والمجتمع يمثلان طرفي صراع)[1].

ثم بين وجه رؤيتهم لهذا الصراع الذي أضحى محوراً من محاور شعرهم، وذكر أمثلة لذلك كرواية «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ، وكلام ممدوح عدوان في قصيدته «العابرون كالرعد» ثم يتساءل إحسان عباس: (كيف يكون الوضع بالنسبة لشاعر كان يجد هويته أولاً ثم بسبب عوامل متعددة أحس بالاغتراب من بعد، وبفقدان تلك الهوية؟)[2].

ثم أضاف: (ويبدو لي أنه لابد لوضع هذه القضية في موضعها الصحيح من أن نميز - في الصراع بين الفرد والمجتمع - مواقف متفاوتة فهناك الغربة أو الاغتراب، وهناك الثورة على المجتمع، وهناك التأقلم بالمناخ الاجتماعي، وهناك العزلة الكلية عن المجتمع)[3]، ثم راح يشرح هذه البدائل.

ثم ذكر إلحاح بعضهم على قضية صراع الطبقات، سواء كان ذلك

---

(١) اتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ١٥٣. ومصداق ذلك قول سعيد السريحي: (من شأن البعد الإنساني الحر الذي تتسم به رؤيا الفنان أن يجعل انفصاله عن الجماعة أمراً قدرياً لا مندوحة له عنه وإن آمن في ظاهر الأمر أو باطنه بكل أعرافها وخضع لكل تقاليدها في حياته العامة) الكتابة خارج الأقواس: ص ٣٧.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥٤.

(٣) المصدر السابق: ص ١٥٥.

على أساس ماركسي أو وجودي أو سوريالي[1].

ثم عرج بعد ذلك على الثورة الحداثية في أي صورة من صورها المذهبية، ثم شرح مضمون هذه الثورة قائلاً: (... إن الثورة حين تعتمد التحطيم ترتبط بالإخافة لمن لايقدرون على تصور كل نتائجها، وهؤلاء يخشون إلى درجة الرعب انهيار سلطة الأب، وتفكك نظام العائلة، وبالتالي تقشعر نفوسهم من التحدي للسماء، ذلك أن إنسانية الإنسان ـ دون أي شيء آخر ـ تعني فيما تعنيه إشاحة الوجه عن كل ما هو وراء الغيب، وهذه سمة بارزة في الشعر الحديث، ولايخفف من وقعها أن نحتال لها بالتفسيرات والتوجيهات)[2].

هذا النص الذي كتبه الناقد الحداثي يؤكد ما سبق ذكره من أن انحرافهم الاعتقادي وتحديهم للدين وجحدهم للغيب هو أساس مواقفهم العملية في القضايا الاجتماعية.

لقد أصبح تفكيك المجتمع وانهياره حلماً من أحلام أهل هذه الملة؛ ليتحقق لهم غرس أمراضهم في الأجزاء المفككة دون مقاومة.

وممن صرح بذلك كاهن الحداثة النصيري أدونيس حين تحدث عن معروف الرصافي[3] باعتباره أباً للحداثة، واتخذ أقواله المنحرفة جسراً يعبر من خلالها عن آرائه، كما اتخذ جبران من قبل لهذا الغرض، يقول أدونيس: (إن قراءة الرصافي تكشف لنا عن شخص يدهشه واقع العلم على صعيد التغير والتطور... يبدو لنا، في هذه القراءة أنه يتبنى من حيث الموقف الفكري، العلم ومنجزاته بحماسة من يفضل الحاضر والمستقبل، على الماضي، وأن الماضي لايمثل الكمال، وليس أسطورة أو رمزاً يحرك الطاقة النفسية ويوجهها، كذلك يبدو، تبعاً لذلك، أنه لايريد أن يحافظ على بنية النظام الاجتماعي، بل يحلم، على العكس، بتفككه

---

(١) انظر: المصدر السابق: ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

(٢) المصدر السابق: ص ١٥٨.

(٣) سبقت ترجمته.

وانهياره، لكي تولد بنية أفضل مسايرة للعلم)[1].

وفي موضع آخر يمتطي أدونيس جبران فيذكر أنه استطاع أن يغير علاقة الإنسان مع الكون ومع الله ـ حسب زعمه ـ ويذكر في ذلك أن الإنسان لم يعد عبداً لله، ولم تعد العلاقة بينهما علاقة خالق ومخلوق، بل اجترأ في طغيان واضح فزعم أن الله ـ جلَّ وعلا وَتقَدَّس ـ أصبح هو والإنسان يمثلان كياناً واحداً[2]، ثم يخلص من هذه الإلحاديات قائلاً: (ونستطيع أن نجد هنا ما يذكرنا بالثورة على الأب، في الجيل الحاضر، فالأب رمز للماضي، والله، كأب، رمز لما هو خارج التاريخ، لايتغير ولايتجدد، رمز لشريعة خارجية ثابتة، أي رمز لكل ماينا قض المستقبل؛ لأن الوجود المليء الكامل، في النظرة الأبوية هو الماضي، أمّا المستقبل فعدم ونقص)[3].

تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً.

في هذا النص يكشف لنا أدونيس وأضرابه العلاقة التقليدية المعروفة من عهد الجاهلية الأولى، بين الإلحاد وتدمير المجتمع ومؤسساته، والتي منها الأسرة متمثلة في الأب رائد الأسرة.

وفي موضع آخر من تلمود الحداثة يحدد أدونيس في بياناته الحداثية مراده بمواجهة «السائد» ـ وهي عبارة يرددها الأتباع الصغار كثيراً ـ وقد ذكر أن السائد الذي تجب مواجهته هو المتمثل في (مؤسسات المجتمع العربي: «العائلة، المدرسة، الجامعة، التشريع، السياسة، الدين، الثقافة بأشكالها الإعلامية والأدبية...، وهكذا فإن العائلة في المجتمع العربي ما تزال أسيرة التكوين القبلي ـ الثيوقراطي[4] ـ، والمدرسة العربية ليست تقليدية وحسب،

---

(١) الثابت والمتحول ٣ ـ صدمة الحداثة ٧٠ ـ ٧١.

(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ١٧٢ ـ ١٧٣.

(٣) المصدر السابق ٣/ ١٧٣.

(٤) ثيوقراطي، هو إقامة النظام على أساس ديني، ولما تخلصت أوروبا من حكم الكنيسة ودينها المحرف، اعتبروا بناء على ذلك أن أي حكم يقوم على أساس ديني=

بل رجعية أيضاً فيما تدرسه وفي طرق تدريسها على السواء، والدين ما يزال مهيمناً على الحياة المدنية بكاملها، وعلى الحياة الثقافية والتشريعية والسياسية، وما يزال الوعي الطبقي مطموساً بهذه الهيمنة الدينية، على الأخص، المؤمنون جماعة واحدة، أمة واحدة... الخ»؛ ولذلك فإن الصراع الطبقي مايزال هو الآخر مطموساً... لنقل، إذن، إن المجتمع العربي مايزال في بنيته الإيديولوجية الغالبة، مجتمعاً تقليدياً، غير أنه، مع ذلك، يتحرك أيديولوجيا، بقيادة أقلية طليعية في اتجاه الحداثة)[1].

ولبئسما سولت لهم أنفسهم إذ عمدوا إلى الضلالات يدعون إليها، وإلى المجتمع يسعون في تخريبه وتمزيقه كما عبر عن ذلك أدونيس في قوله:

(استدرك ـ

أقول لخطواتي اتحدي بأحلامي

وأرسم لمشروعاتي تخطيطات:

في جنون الجسد شفاء للروح

تاريخ الأعضاء تعقيب على تاريخ الرغبة

أسمع ريحاً تشافه الحجر وعاراً يواطيء الغيم

وما أغمض الكلام الواضح

وحين أذكر بيروت، أعني

دمشق الرياض بغداد القاهرة

أذكر قبائل تتهدم وأغتبط

= فهو تخلف، وتساوي لفظة الثيوقراطية عندهم لفظة الرجعية، وقد أخذ هذا المعنى المنهزمون من أبناء المسلمين وصاروا يحاربون حكم الإسلام ويدعون إلى الشرك العلماني تقليداً للغرب. انظر: موسوعة السياسة ١/٩٢٨.

(١) الثابت والمتحول ٣ ـ صدمة الحداثة: ص ٢٤٠.

كأن المستقبل يتربى على يدي!)[1].

طموحاته ومشروعاته تهديم المجتمعات وتقويض عواصم بلاد الإسلام، وهدم القبائل الذي يغتبط به لايعني به سوى معاداة هذه المجتمعات والسعي في إبطال مقوماتها الشرعية والأخلاقية والاجتماعية، وكل ذلك يؤكد بشكل قاطع رفض هؤلاء لكل مجتمع انبنى على دين الإسلام أو تأثر به.

ومن معاول هدمهم توجههم إلى الأب والأسرة بعداوة تقويضية هدامة، ومن ذلك دعوتهم إلى تحلل المرأة وفسادها على حد تعبير أحدهم: (الحداثة بالنسبة للمرأة العربية هي مثلها بالنسبة للمراهق، وتختصر بكلمة حادة وحاسمة «الرفض» وترى الحداثة كأنها ليست بتبني طريقة جديدة في العيش والتفكير بقدر ماهي رفض القديم، إنّما من الملفت أنه في ما يتعلق بالأخلاق الجنسية، الحداثة ليست سوى إرادة اللا، ولم يكن من قبيل المصادفة أن الحداثة كانت، ومنذ البدء، مطابقة لتحرر وانطلاق المرأة وانتهت بأن أصبحت مطابقة للتحرر الجنسي، تسير الأمور وكأن المرأة العربية، ترفض من الآن فصاعداً كونها الضحية الأبدية... هذا الرفض يعاش فردياً، ومنذ اللحظة التي تعي فيها المرأة ذاتها وجسدها، في زمن اجتماعي يقع تحت ضغط الحداثة، إنّما هذا الرفض لايطال حياتها فقط، إنّما يطال كل المستوى العلائقي مرة واحدة... ما ترفضه المرأة، هو وضعية القاصر، أي الدور التقليدي السلبي اجتماعياً، أم ـ زوجة، تابعة لسلطة رجل مالك للأولاد والأرزاق، إذاً ترفض المرأة ماتربت عليه، حيث في غفلة عنها جعلوها قاصرة بواسطة العنف الرمزي المقنع للتربية الأخلاقية السائدة... الخروج من الاستلاب الإيديولوجي بدأ يضرم النار في الحياة الزوجية، إن إعادة النظر في توزيع الأدوار، ووعي المرأة لهويتها وإرادتها بالاستقلالية، وبحثها عن شخصية منعتقة من الشعارات والنماذج التقليدية دفعها للتساؤل حول معنى

(١) الأعمال الشعرية لأدونيس ٢/٤١٦.

حياتها كمرأة حول معنى التزامها العاطفي...)[1].

ثم تنقل قولاً طويلاً عن الخصائص الاجتماعية للأسرة العربية وهو قول يظهر صاحبه فيه أنه مجرد واصف، غير أنه في الحقيقة يملأ وصفه بالعبارات المنفرة من الأسرة ومن نظامها ومن الوالدين والأب خصوصاً، ويضفي عقيدته التدميرية على ألفاظه وعباراته.

ثم تستخرج الكاتبة من ذلك نتائج تابعة لأصلهم البغيض المستهدف مضادة المجتمع ومعاداته وإرادة تحطيمه، فتقول: (إذاً يُمكن وصف مستويات التحرر عند المرأة العربية على الشكل التالي:

- انعتاق من الاستلاب البيولوجي «وتقصد التحرر والانحلال الجنسي».

- مسألة نسبية للمستوى الإيديولوجي حسب درجة الوعي الطبقي.

- رضوخ وخضوع تام للمستوى العاطفي.

والمستوى العاطفي يطال علاقات الحب والزواج، اللذة والرغبة، وكل الاقتصاد النفسي للفرد...)[2].

ثم أضافت: (إن الخروج من المؤسسات الدينية والقبلية، الإيديولوجية والأسرية، يفتح الباب واسعاً أمام الحرية، إنّما حرية الحداثة ذات المرجعية الضبابية في مجتمع سجين تقليديته وتكراريته الباهتة)[3].

وهكذا تمد الحداثة بساط فسادها، من خلال إفساد المرأة، وإفساد الأسرة، التي يتحقق لهم من خلالها إفساد المجتمع وتدميره والقضاء المبرم على كل أركانه وأسسه ومؤسساته.

أمَّا فئة الحداثيين الذين يترفعون عن المجتمع بحجة تفوقهم عليه!! أو

---

(١) قضايا وشهادات ٢/١٠٩ - ١١١، والقول لأنسية الأمين تحت عنوان «امرأة الحداثة العربية».

(٢) (٣) المصدر السابق ٢/١١٣.

بحجة الترفع عن الانغماس في المباشرة، والالتزام، أو بغير ذلك من الحجج[1]، فإن الحديث عنهم هنا مما لايعنينا إلاّ من جهة أنهم يرون ـ حسب ملتهم الحداثية ـ أنهم البشر الأرقى والأعلم والأفضل، وهم في الحقيقة عكس ذلك تماماً، بل العامة والأميون من المسلمين خير منهم، بل واحد من هؤلاء العامة خير في إيمانه وأخلاقه من جملة الحداثيين والعلمانيين، فبم يكون ترفعهم على المجتمع؟ أبالمحاكاة والتقليد للغربيين، أم بالهبوط والانحلال؟.

وغني عن الذكر ما في نتاج الحداثيين الماركسيين والوجوديين من مضامين معادية للمجتمع وفق رؤيتهم الماركسية أو الوجودية، التي سبق في مواضع من هذا البحث ذكر مضامينها، ومواقفها العدائية والتدميرية للمجتمع.

وفي شعر البياتي وسعدي يوسف ومحمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد، وفي نتاج أميل حبيبي وغالب هلسا، ورشيد بوجدرة، الأدلة الكثيرة على أثر الماركسية في اتباعها هؤلاء، وقل مثل ذلك عن أتباع الوجودية وخاصة مجلة «آداب» وأتباعها.

ثم قل مثل ذلك في اتباع المذاهب الحداثية الأخرى.

الوجه الثاني: السعي في إفساد المجتمع:

من الأمور البديهية التي يكتشفها كل من يطلع على نتاج الحداثة الفكرية أو الأدبية أن السعي في الفساد على نحو مقصود مبرمج هادف من أهم مشروعاتهم وأعظم غاياتهم.

وقد ذكرت في الفصل السابق لهذا الفصل شواهد كثيرة على ذلك، من كلامهم واعترافاتهم، ودعواتهم الصريحة إلى الرذائل والمفسدات، بل وتفاخرهم بذلك، واعتبارهم من علامات التقدم والنهضة.

تهيجت شهواتهم فانقادوا لها هائمين، وتشعبت شبهاتهم فانساقوا معها

---

(١) انظر: بسط ذلك في الحداثة في الشعر العربي المعاصر بيانها ومظاهرها: ص ٢٢٣ ـ ٢٢٧.

تائهين، وهلكوا بين الشبهات والشهوات واستبسلوا في الدعوة إلى الرذائل وتمجيدها، والتفاخر بالتحلل الخلقي والفساد.

غرقوا في مستنقعات الجنس والخمر والحشيش وبيوت الدعارة وبذلوا جهدهم الفكري والعملي لانحراف المجتمعات في هذه المستنقعات.

جعلوا المرأة مجرد جسد، وناضلوا في إخراجها عارية من الملابس والقيم والعفاف والشرف، بل أبغضوا وعادوا مفاهيم العفاف والشرف والعرض، بل قالوا لا وجود للأخلاق أصلاً؛ لأنها نسبية اعتبارية!!، ركزوا جهودهم من خلال وسائلهم على إفساد المرأة والشبان والشابات، من قبيل قول أدونيس:

(إن رأيت على مدخل الجامعة
نجمة خذ يديها
إن رأيتِ على مدخل الجامعة
كوكباً عانقيه
وكتبنا على مدخل الجامعة
التواريخ تنهار، والنار قطعي خطانا
لهب يتغلغل في جثة الأرض
نستأصل العائلة
ونقيم الصداقة / غنوا
للشقوق التي يتحرج الدهر / هذا
زمن يتفتت / غنوا
لهجوم الفجيعة)[1].

---

(١) الأعمال الشعرية لأدونيس ٢/ ٤٩١.

الوجه الثالث: إسقاط مفاهيم الأخلاق والقيم من المجتمع:

وأي مجتمع خلا من هذه المفاهيم فهو ركام من رماد، لايلبث غير قليل فينهار ويتداعى، وقد سبق بسط هذه القضية في الفصل السابق على هذا الفصل.

الوجه الرابع: نفي قيام مجتمع على أساس ديني:

لأن الدين أكبر مانع لفسادهم، وأظهر قوة في مقابل أعمالهم المنحرفة، ومشروعاتهم الباطلة.

وأيضاً لأن قيام المجتمع على أساس ديني يؤدي إلى تماسكه وتآزره، وهذا مايبطل مخططاتهم ويفسد أعمالهم الهدامة.

ثم إنهم إذا تحقق لهم نزع الدين عن الحياة الاجتماعية استطاعوا غرس عقائد الإلحاد والشك، وهذا وحده كافٍ في تمزيق أي مجتمع وإحلال الدمار به.

وما يشاهد اليوم في المجتمعات الكافرة الماركسية أو الليبرالية أكبر دليل على ذلك، وما يشاهد كذلك في المجتمعات الإسلامية التي يحاول المرتدون جرها إلى حضيض الردة ومستنقع العلمانية، من أكبر الأدلة على هذا، فقد (حملت أوروبا إلى الشرق الفلسفات التي قامت على إنكار أسس الدين وإنكار القوة المصرفة لهذا العالم، القوة الواعية التي أخرجت هذا العالم من العدم إلى الوجود وبيدها زمام الكون «الإله، الخلق الأمر» وعلى إنكار الشرائع السماوية، وإنكار القيم الروحية والخلقية، منها ما تبحث في علم الحياة والنشوء والارتقاء، ومنها ما تتصل بالأخلاق، ومنها ما تدور حول علم النفس، ومنها ما موضوعها الاقتصاد والسياسة، ومهما اختلفت هذه الفلسفات في ألوانها وأهدافها وأسسها، فإنها جميعها تلتقي على النظرية المادية المحضة إلى الإنسان وإلى الكون والتعليل المادي لظواهرهما وأفعالهما.

غزت هذه الفلسفات المجتمع الشرقي الإسلامي وتغلغلت في أحشائه

وكانت أعظم ديانة ظهرت بعد الإسلام في التاريخ، أعظمها انتشاراً وأعمقها جذوراً وأقواها سيطرة على العقول والقلوب، وأقبل عليها زهرة البلاد الإسلامية وزبدتها عقلاً وثقافة، وساغتها وهضمتها ودانت بها كما يدين المسلم بالإسلام، والمسيحي بالمسيحية بكل معنى الكلمة، فهي تستميت في سبيلها وتقدس شعارها وتجل قادتها ودعاتها وتدعو إليها في أدبها ومؤلفاتها، وتحتقر كل ما يعارضها من الأديان والنظم والعقليات وتؤاخي كل من يدين بها، فأفرادها أمة واحدة وأسرة واحدة ومعسكر واحد...

إنها ردة، أعود فأقول: اكتسحت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وغزت الأسر والبيوتات، والجامعات والكليات والثانويات والمؤسسات، فما من أسرة مثقفة ـ إلاّ من عصم ربك ـ إلاّ وفيها من يدين بها أو يحبها أو يجلها، وإذا استنطقته أو خلوت به أو أثرته عرفت أنه لايؤمن بالله، أو لايؤمن بالآخرة، أو لايؤمن بالرسول ﷺ، أو لايؤمن بالقرآن كالكتاب المعجز الخالد ودستور الحياة، وأفضلهم من يقول إنه لايفكر في مثل هذه المسائل ولايهتم بها كبير اهتمام)[1].

بيد أن الحداثيين قد أبعدوا النجعة في مراعي الزقوم الإلحادي، وكانوا أبشع مثال على هذه الردة الكبيرة التي مارسوها وبذلوا غاية جهدهم لصبغ المجتمعات الإسلامية بها.

فها هو أدونيس يصور المجتمع العربي ـ حسب رؤيته الباطنية والحداثية ـ تصويراً أسودَ؟، ويصفه بأنه رجعي مستهلك ثابت رجعي تراثي، وسبب ذلك ـ عنده ـ أنه مجتمع متدين، يقول: (هذا السلوك السائد في الحياة العربية إنّما هو سلوك يناقض الثقافة بعامة[2]، ويناقض الكتابة بخاصة، فمهم الثقافة يتضمن الاستقلال: يؤكد تفتح الإنسان إلى أقصى حد[3] بقواه الخاصة ووسائله الخاصة، ذلك أن الثقافة هي الحلول التي

---

(١) ردة ولا أبا بكر لها: ص ٦ ـ ٨.

(٢) يقصد ثقافة الإلحاد والانحلال.

(٣) يريد تفتحه على كل الضلالات والانحرافات.

يبتكرها الإنسان لمشكلاته، أمّا هذا السلوك فيتضمن التبعية، أي الخضوع لسلطة فوق سلطة الإنسان، الحلول جاهزة سلفاً، والإنسان في هذا السلوك يؤكد استسلامه لإرادة سامية تتجاوزه «يقصد الله ـ جلّ وعلا ـ» والاستسلام استسلام للأكمل، لما يتجاوز إرادة الإنسان، وفي هذا نفي للثقافة، أو فيه توكيد على أن الثقافة هي حفظ الماضي واستعادته باستمرار، وهكذا تتحول السياسة والثقافة إلى نوع من التدين، والواقع أن كلا منها ليس إلاّ مجموعة من المواقف الدينية تتقنع في السياسة بقشرة وطنية وفي الثقافة بقشرة فكرية، يبدو في هذا المنظور أن الذي تكلم وكتب في المجتمع العربي هو الله وحده، وأن تراثنا يمثل نوعاً من الكتابة الأولى، وكل كتابة يكتبها الإنسان يجب أن تكون شرحاً أو تفسيراً لهذه الكتابة الأولى.

المجتمع الذي يتأسس على مفهوم الكتابة الأولى مجتمع أمر ونهي مجتمع وعيد وعقاب، مجتمع طقسي، حرفي، يمنع النقد، يمنع طرح مشكلات أو أسئلة جديدة، والكتابة فيه لاتقبل إلاّ إذا انطلقت من الكتابة الأولى، فجاءت تسويغاً لها، وشرحاً، واستعادة، وتذكراً، هذا المجتمع هو في جوهره مجتمع قمع وإرهاب)[1].

وهذا القول يتضمن الدعوة إلى ترك الدين ليصل المجتمع إلى السلوك الموافق للثقافة والاستقلال حسب معاييره الإلحادية الساقطة.

ثم هو يشير إلى قضية الأمر والنهي والوعيد وامتناع النقد، باعتبارها معالم للتخلف.

وأدونيس وطائفة الحداثيين والعلمانيين يمارسون هذا ويدعون إلى ممارسته، فهم تحت طائلة الأمر والنهي التي ترد عليهم من أساتذتهم زعماء المذاهب الفكرية والأدبية.

ومن اطلع على نتاجهم وأفكارهم وأعمالهم وقارن ذلك مع سيرة وأعمال أصحاب المذاهب الفكرية والأدبية الغربية لم يخرج إلاّ بنتيجة واحدة

---

(١) زمن الشعر: ص ٨١ ـ ٨٢.

هي: أن هؤلاء أتباع مطيعون طاعة عمياء، ومقلدون تقليداً أعمى يرجون معه ثواب ومديح أسيادهم والمكافآت المعنوية والحسية.

ويشكلون لأنفسهم مجتمعاً فكرياً وعملياً يحاط بالطقسية الكهنوتية الكاملة، لايقبلون معها نقداً ولايرتضون أسئلة ولايسمحون لغيرهم أن يدخل مجتمعاتهم الإعلامية أو المنبرية أو التأليفية، وهو ما كتب عنه بعض الكتاب والصحفيين باسم «الشللية».

وعلى كل حال فإن طموحهم العلماني لعزل المجتمع عن تأثير الدين ما زال يحدوهم فكرياً وعملياً إلى ترديد الزعم بأنه لايُمكن قيام مجتمع على أساس ديني بعبارات متنوعة، على حد تعبير من يصرح بذلك مكذباً للتاريخ الإسلامي، وللواقع المعاصر الذي قامت فيه مجتمعات على أساس دين الإسلام، وممن صرح بهذا التصريح المغالط الحداثي عبدالرحمن منيف القائل: (لايسعنا تصور مجتمع قائم على أسس دينية في زمننا الحاضر، فالدين بات مسألة شخصية لايتعدى هذه التخوم، لذا يستحيل قيام مجتمعنا على دعائم دينية، كما يستحيل إضفاء على أحد الأديان صفة الشمولية الكونية)[1].

أمَّا يوسف الخال فيقسم التيارات الإسلامية إلى صادق وجاهل وخبيث حسب رأيه في موقفهم من تطبيق الإسلام على المجتمعات فـ (الخبيث الذي يدعي عن غير اقتناع أن الخضوع للشريعة الإسلامية واجب على كل المجتمعات، ويضم هذا التيار عدد[2] من المثقفين لايستهان به)[3].

ويطلق أحدهم تصريحاً ثورياً بعيداً عن أي احترام لديه للأمة أو عقول الناس فيقول: (... إنها فكرة متطرفة أن نحاول اليوم تطبيق نظام اجتماعي يعود لما قبل خمسة عشر قرناً)[4].

وأمثال هذا الكلام كثير في كتبهم ومجلاتهم ومحاضراتهم.

---

(١) رأيهم في الإسلام: ص ٢١.

(٢) هكذا.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٩.

(٤) المصدر السابق: ص ١٢١. والقول للحداثي المصري جمال الغيطاني.

الوجه الخامس: الدعوة لتطبيق الحياة الاجتماعية الغربية في المجتمعات الإسلامية:

رغم أن التحلل والتفكك الاجتماعي سمة تلك المجتمعات، ورغم أن بعض عقلائهم يطلق صرخات التحذير، إلاّ أن الأتباع المبهورين من أبناء البلاد الإسلامية قد عميت أبصارهم وصمت آذانهم، فأصبحوا غربيين أكثر من الغرب!!.

وقد ذكرت في الفصل الرابع من الباب الأول الأقوال الكثيرة التي تشهد بانتمائهم العضوي والفكري للغرب، للفكرة المتوسطية أو الفينيقية، وتشهد بحربهم وبغضهم لهذه الأمة عقيدة ولغة ومكاناً وتاريخاً وحضارة.

على أن هذا الموقف لايأتي في كلامهم بشكل عرضي، بل هو من أظهر مبادئهم وأسس عقائدهم وقد اعترفوا بذلك بافتخار في أحيان كثيرة، وبانتقاد من بعضهم في بعض الأحيان، وقد نقلت ذلك في الفصل المشار إليه فأغنى ذلك عن إعادته هنا[1].

ومن أكبر حججهم في الدعوة «للاستغراب» الثقافي والاجتماعي زعمهم أنه كما استوردنا الثلاجة والغسالة والمكيف والسيارة وسائر المصنوعات فإنه لا مانع بل يجب أن نستورد العقائد والأفكار والقيم والنظام الاجتماعي والسلوك النفسي.

ومع ما في هذه الحجة من هزال وسخف إلاّ أنهم لايفتأون يرددونها زاعمين أن الحداثة تشتمل على كلا الأمرين: «التقنية والعقائد» أو «العلوم التجريبية والقيم والأفكار»[2]، وأنه لابد من استيراد الجميع إذا كانت هناك إرادة للتقدم والتحضر والرقي!!.

---

(١) انظر: ص ٧٠٧ ـ ٧١٤ من هذا الكتاب.

(٢) انظر أمثلة لهذه الأقوال في: الثابت والمتحول ٣/ ٢٣٨، ٢٦٨، وقضايا وشهادات ٢/ ٢٥٧، والإسلام والحداثة: ص ١٨٥ والقول لجابر عصفور، وص ٣٢٨، ٣٥٥، ٣٥٨ والقول لمحمد أركون، وص ٣٧٨ والقول لهاشم شرابي، وقضايا الشعر الحديث: ص ٢٩٦، ٢٩٨ والقول ليوسف الخال، وشعرنا الحديث إلى أين: ص ١٩.

مع ملاحظة أن نفيهم لقيام مجتمع على أساس ديني يتوافق مع دعوتهم لتطبيق الحياة الاجتماعية على مجتمعات المسلمين، بل هما وجهان لمقصد واحد تلقوه عن أسيادهم، ورددوه وروجوه، ليكونوا بذلك طليعة الأعداء.

الوجه السادس: المضادة للأسرة ونظام العائلة والوالدين وخاصة الأب:

تعد الأسرة البنية الأولية للمجتمع، الذي يتكون من أفراد وأسر.

وفي إطار انحرافاتهم الاجتماعية، والتوائهم النفسي، توجهوا إلى الخلية الأولى للمجتمع بالمضادة والمحاربة، والسعي في تقويض نظام الأسرة، وقد مرّ معنا في الفصل السابق أمثلة لمعاداتهم للوالدين ومحاربتهم وبغضهم للأب خاصة.

فعند ابن جلون تذهب فتاة روايته إلى قبر والدها فتنبشه وتلقي فيه بعض ما تركه[1].

وعند محمد شكري تفصيل طويل لبغضه لوالده وشتمه له، وتمنيه قتله، وفرحه بموته، وذهابه إلى قبره ليبول فوقه[2].

وأمّا نوال السعداوي فتتناول موضوع الأسرة والوالدين في كتابها دراسات عن المرأة والرجل في المجتمع العربي على مشرحة علمانيتها وانحلالها الداعية إلى تفكيك الأسرة والتمرد على الأب والخروج عن طاعته[3].

أمّا أدونيس فإنه يعبر عن هذا المقصد بقوله:

(لهب يتغلغل في جثة الأرض

---

(١) انظر: ليلة القدر: ص ٤٣.

(٢) انظر: الخبز الحافي: ص ٢٦ ـ ٢٧، ٣٦، ٩١، ٩٣، ٩٧، ٧١، ٧٨، ٩٥، ٩٨.

(٣) انظر: دراسات عن المرأة والرجل: ص ٣١، ٣٧، ٩٦، ١٧٦، ١٨٣.

نستأصل العائلة)[1].

وقد نقلت عنه في مطلع هذا الفصل حلمه الذي مدده من خلال معروف الرصافي في تفكيك المجتمع ونظامه، واعتبار ذلك أول الطريق للتحضر والتقدم[2]، بل ومناداته صراحة بالثورة على الأب والنظام الأبوي في أي شكل من الأشكال جاء[3].

وتصريحه بأنه ضد مؤسسات المجتمع «العائلة والمدرسة والدين»[4]، ويتحدث أحد نقادهم عن الطموح الحداثي النضالي!! فيقول: (تريد أن نحل أزمة الأب؟ إذن علينا أن نكون في الطليعة النضالية مع إعطاء هذا التعبير شموله الكامل، فنحارب حقول العائلة والمجتمع والسياسة، في جميع الحقول وحيث نرى مجالاً للجهاد، لنعط عواطفنا القوة الكافية لتصبح سيلاً جارفاً، بدلاً من أن تكون ألواناً باهتة تلصق بنا لصقاً، لنتعلم الحقد والكره والحب)[5].

ولعل في هذا النص الخلاصة لموقفهم من المجتمع، ووسائلهم في ذلك.

ويذكر إحسان عباس الأجواء التي ترعرعت فيها الحداثة ومن ضمنها: (اهتزاز وضع العائلة أو تفككها، وضياع سلطة الأب، والعلاقات الجديدة بين الأب والأبناء «أو انعدام العلاقات» واستعلاء قضية «الجنس» واحتلالها مقام الأهمية، والاستشفاء في معالجة الكبت «العفة القديمة» بإشباع الرغبات، كيف فعلت كل هذه في توجيه الشعر، وقبل كل ذلك كيف غيرت مفهوم العصبية العائلة، وحطمت القيم القديمة، وأبدت التساهل في تصوير الشذوذ، وأوجدت معنى جديداً للحب...)[6].

---

(١) الأعمال الشعرية لأدونيس ٢/ ٤٩١.
(٢) انظر: الثابت والمتحول ٣/ ٧١.
(٣) انظر: المصدر السابق ٣/ ١٧٣.
(٤) انظر: المصدر السابق ٣/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠.
(٥) بحثاً عن الحداثة: ص ١١٧ نقلاً عن مجلة الآداب إبريل ١٩٥٤ م/ ١٣٧٤ هـ: ص ٣٩ـ ٤٠.
(٦) اتجاهات الشعر العربي المعاصر: ص ٥٠.

ثم يذكر الثورة الحداثية وكيف تعتمد التحطيم والدعوة إلى (انهيار سلطة الأب، وتفكيك نظام العائلة)[1].

الوجه السابع: أثر انحرافهم في القضايا النفسية في الانحرافات الاجتماعية:

مرّ في الفصل السابق توضيح الأصل الكبير الذي اعتمده الغربيون في دراستهم للنفس الإنسانية ذلك الأصل المسمى بمدرسة «التحليل النفسي» التي يتزعمها اليهودي «فرويد»، وذكرنا مجمل هذا الاتجاه، وما يتضمنه من دلالات وإيحاءات وما ترتب عليه من ممارسات عملية على مستوى الفرد والجماعة.

لقد تغلغلت نظرية داروين ووليدتها نظرية فرويد النفسية في الحياة الاجتماعية الغربية، والحياة الاجتماعية التابعة للغرب، فأثرت أعظم التأثير في الأخلاق والتقاليد الاجتماعية والقيم العليا، والممارسات والعلاقات الاجتماعية والدولية والسياسية.

لقد أصبح المجتمع بناء على هذه النظريات في هيئة قطيع يعيش الحياة الجنسية المحمومة، ويلهث كل فرد منه خلف مصلحته الذاتية وشهوته الحيوانية وملذاته ورغباته الأنانية.

إن الأصل الذي رسخته الحداثة من خلال اعتقاداتها المادية، وفلسفتها الحيوانية، ورؤيتها الدنيوية البحتة كلها تعود من قريب أو بعيد بتصريح أو تلميح إلى جعل الإنسان مجرد كائن أرضي لا علاقة له بخالق أو إله، ولانصيب فيه لروح بل هو جسد محض يعيش مكبوتاً ـ حسب زعمهم ـ تحت ضغط الدين والأخلاق والمجتمع، ولا حرية له إلاّ بالقضاء على هذه الأمور.

وهذا الإنسان لايتحقق كيانه ولاتظهر إبداعاته إلاّ بعيشه بعيداً عن هذه

---

(١) المصدر السابق: ص ١٥٨.

العوائق، فالدين أفيون وخرافة، والأخلاق من اختراع الإنسان وهي غير ثابتة، والمجتمع عدو، أو كما تقول الوجودية: «العدو هو الآخر».

فما الذي حدث بعد نزع إنسانية الإنسان، وبعد إلقائه في جب الحيوانية، وبعد تلويث فكرة الدين والأخلاق والتقاليد القويمة، وتقذيرها وتدنيسها؟.

لقد ارتكست النفوس، وتحطمت مقومات المجتمع وأصبحت الغرائز والشهوات والأهواء هي المسيطرة والغالية، أمّا القيم والأخلاق فقد زويت في زوايا النسيان، وإن مارسها أحد فلغرض مصلحي أو باستحياء واعتذار وتبرير.

انفلت عقد المجتمع وتناثرت حباته على قارعة الإهمال أو في مزابل الأرجاس.

وجاء المنخدعون من أبناء المسلمين بأسوأ وأقذر ما لدى الغرب المريض، جاؤوا بالأمراض والعلل النفسية والاجتماعية، ينشرونها على أنها هي وسائل الإنقاذ، ويبشرون بها على أنها هي مقومات النهضة، وهي في الحقيقة ليست سوى السم الزعاف والمرض العضال، الذي يشتكي منه عقلاء الغرب اليوم.

جاؤوا بنفسيات مريضة بالجنس والدعارة والانحلال، زاعمين أن ذلك من مقتضيات التحضر والتحرر!!، ونزلوا ساحة المجتمعات الإسلامية بهذه النفسيات الملتوية المريضة، وبأفكار مترعة بالجهل والضلال والانحراف، وأعملوا معاولهم في بنيان هذه المجتمعات، وما زالوا في هذا العمل التخريبي سائرين، ولن يكفوا حتى يروا المجتمعات الإسلامية الممزقة مفتتة أكثر، لينعموا بالفتات وفتات الفتات، ويسعدوا بذوبان هذه المجتمعات بصورة كاملة في مجتمعات أسيادهم وطواغيت المذاهب العلمانية والحداثية، ولكن الله غالب على أمره، والأمة ـ بعون الله ـ محفوظة، وما زالت في عروق أبناء المسلمين دماء تثور حمية لدينها وأمتها.

❁ ❁ ❁